أحمد الحميري



خرافة السلالة والولاية

تقديم:

مروان دماج

حارث الشوكاني


مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام
Nashwan Alhemyari for Studies & Media

خرافة السلالة والولاية

أحمد الحميري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: خرافة السلالة والولاية

المؤلف: أحمد مرشد الحميري

الناشر: مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام

الجمهورية اليمنية، هاتف: ٧٣٠٤٤٦٣٤٠ - ٧٧٧١١٣٦٣٤

البريد الإلكتروني: info@nafsam.org

الموقع الالكتروني: www.nafsam.org

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٢٨) ٢٠٢٠، المكتبة الوطنية مارب

الطبعة: الأولى أكتوبر ٢٠٢٠م

خرافة السلالة والولاية

تأليف:

أحمد مرشد الحميري

تقديم:

مروان دماج　　　　　حارث الشوكاني

مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام

٢٠٢٠

الفهرس

تقديم

بقلم: مروان أحمد قاسم دماج

النضال ضد الطغيان نضال متعدد، ومقاومة الجريمة أيضا.. متعدد يشمل أولئك المناضلين في ميدان الكفاح بالسلاح والنار الى المقاومين بالكلمة المنطوقة والمكتوبة وكافة صنوف الآداب والفنون، وبالتأكيد يشمل مناضلي المعرفة والعلم الذين يتصدون للأكاذيب والخرافات والدجل بنُشدان الحقيقة وطلب الحق وتقديم معرفة مدارها طلب الحقيقة في سياقها التاريخي والموضوعي.

وتاريخيا لعب المثقفون اليمنيون دوراً طلائعياً ورائداً في تأسيس الحركة الوطنية والنهوض بالثورة الاجتماعية والسياسية والإنسانية في تجليها الأبرز ٢٦ سبتمبر و ١٤ أكتوبر.

ولعل اليمن هو البلد العربي الوحيد الذي وصل فيه الى موقع الرئاسة ومنصب الرجل الأول في الدولة، مثقفون بالمعنى التقليدي للكلمة وهما القاضي عبدالرحمن الإرياني وعبدالفتاح إسماعيل، ومن قادتها المشهورين بالنضال ومقارعة الاستبداد من كانوا أيضاً شعراء ومبدعين ومكرسين أمثال الشهيد علي بن ناصر القردعي والشهيد أحمد عبدربه العواضي وصفٌّ واسع وعريض وفي كل المجالات.

والتساؤل عن تراجع دور الثقافة والمثقفين في حرب اليمن الوطنية وتصديها للجائحة الحوثية أسوأ وأخطر ما واجهته اليمن، سؤال مشروع وله أسبابه الموضوعية، فما ينتظره اليمن واليمنيون من المثقفين أكبر من دورهم الحالي بكثير.

وكتاب الأستاذ أحمد الحميري "خرافة السلالة والولاية" يمكن اعتباره دون شك، إسهاماً في المقاومة الثقافية للجائحة الحوثية المتأسسة على الأكاذيب والخرافات والدعوات المتخلفة التي تتنافى مع كل القيم الإنسانية والأخلاقية التي تعرفها المجتمعات الحديثة تماما كما تتنافى مع القيم الكبرى لحضارتنا وثقافتنا العربية والإسلامية، حتى وهي تستند إلى الجانب المظلم من تاريخنا ومحاولة تكريس أسوأ ما فيه لإنتاج جريمتها العنصرية والسلالية والرجعية وإضفاء مشروعية زائفه لها.

إن تكوين معرفة علمية وموضوعية بتاريخنا، ومعالجة إشكالياته، تظل مهمة مطروحة على باحثينا ومثقفينا، وبالإضافة إلى أهميتها الذاتية فإنها مهمة في تنوير شعبنا وإسناده في معركة الحرية ومواجهة ضحايا العصور من الواهمين والطامعين وخرافاتهم وأكاذيبهم.

هذا جهد يستحق عليه الأستاذ أحمد التحية، التي يستحقها أيضاً مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام والزميل عادل الأحمدي على جهودهم الحثيثة في نشر المعرفة بتاريخنا السياسي والاجتماعي والإسهام في معركة شعبنا من أجل الحرية والكرامة والمساواة.

وزير الثقافة

١٩ سبتمبر ٢٠٢٠

تقديم

بقلم: حارث عبدالحميد الشوكاني

أزعم اني قد قرأت عشرات بل مئات الكتب في موضوع بحث الكتاب الذي بين أيدينا ولم أعد أرى جديداً في كثير ما ينشر أو يقال منذ أن تعمقتُ فيه قراءة وبحثاً وتأليفاً طوال ما يزيد عن ثلاثة عقود، لكنني ما إن بدأت استعراض صفحات هذا الكتاب وفصوله، حتى أيقنت أنني أمام كتاب غير مسبوق في مضمار معركتنا كيمنيين وكعرب في مواجهة الفكرة الإبليسية التي لبست لبوس الدين، ولاتزال عامل هدم متكرر لكل الجوانب المضيئة في تاريخنا وبلداننا وذلك منذ أطلت برأسها في القرون الهجرية الأولى وحتى اليوم.

والحقيقة أن السعادة غمرتني خلال صفحات الكتاب الذي اشتمل على فصول ومحاور كنت أحسب طروحاتها فتوحات فكرية لي توصلت إليها خلال عقود منذ أن فتحت عينيّ على حجم الكارثة الغائبة عن عيون كثير من أبناء اليمن والأمة بوجه عام، ولهذا سعدت كثيراً حينما وجدت هذا التوافق ما بيني وبين المؤلف القدير الأستاذ أحمد الحميري الذي يبدو جليّاً أنه بذل مجهوداً كبيراً لكي يُهدي المكتبة العربية مؤلَّفاً فارقاً بكل معنى الكلمة.

وأكاد أجزم أن بمستطاع هذا الكتاب -أو بالأحرى هذا الفتح الفكري المبين- أن يضع حداً لهذه الخرافة التي لاتزال تدمر مجتمعاتنا بين الفترة والأخرى، بشرط أن يتم توزيعه على أكبر نطاق، وأن يتم ترجمته الى أكثر من لغة، وهذه ليست مسؤولية مركز نشوان الحميري وحده، بل هي مسؤولية وطنية ودينية وقومية على كل مؤسسات التنوير الرسمية والأهلية سواء في اليمن أو في سائر الأقطار العربية لأن هذا الكتاب ليس متعلقاً بمُشكل محلي أو مُعضل آنيّ، بل هو وثيق الصلة بمشكلة عابرة للأزمان والأقطار.

كما أن من واجب القارئ المستنير، أن يتمعن مضامين الكتاب وينشره بين الناس ويعيد إنتاج طروحاته بأكثر من صيغة وأكثر من طريقة؛ فالتكرار هنا مهم لأن الناس "قد يصدقون كذبة تقال لهم مئة مرة، ولا يصدقون حقيقة تقال لهم مرة واحدة"! كما تقول القاعدة الشهيرة في علم نفس الإعلام.

**

وعودة إلى نقطة التوافق الكبير بيني وبين المؤلف الحميري، أؤكد هنا أن ما ساقه في كتابه بأسلوبه المقنع وطرحه القوي الذي يستعرض كافة الاحتمالات ويُحسن الاستدلال والاستنباط والشرح، ويفند كافة الشبهات، أؤكد، بل وأشعر بالسعادة، أنه ذات ما تحدثت عنه مراراً في العديد من الدراسات والمقالات من أن التشيع بصورته التي أعادت الصنمية والوثنية تحت ستار آل البيت، ليس سوى "التأويل المجوسي للإسلام".

لقد فكك الباحث الحميري عُرى الخرافة عروة عروة، وأظهر مقدار مجافاتها للعقل والنقل، وأتوقع أن القارى الكريم سيصل إلى نهاية الكتاب ويسأل نفسه: كيف تمكنت خرافة مؤكد بطلانها وزيفها، بل هي أوهى من بيت العنكبوت، كيف تمكنت أن تصمد قروناً من الزمان رغم زيفها ومناقضتها للفطَر السليمة بشكل واضح، ولمقاصد الشرع ونصوص الوحي بشكل لا يخفى على كل ذي عقل!

والجواب بنظري يكمن في أن معظم علماء ومفكري الأمة طيلة قرون لم يقوموا بواجبهم في تفنيد وتعرية هذه الخرافة وكشف زيفها وبطلانها على الوجه المطلوب، ولو كانوا على مستوى وعي وشجاعة الإمام نشوان بن سعيد الحميري وشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، والعالم إحسان إلهي ظهير، وغيرهم من القلائل المعدودين بأصابع اليدين، أقول لو كان علماؤنا ومفكرونا على هذي الدرجة من العلم والإلمام والشجاعة واستشعار المسؤولية، لَكانت سقطت هذه الخرافة منذ زمن طويل.

من هنا أحيي الباحث الأصيل الاستاذ أحمد الحميري وأهنئ اليمن والأمة جمعاء بهذا الكتاب الفارق. وأشكر إخوتي وأخواتي في مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام على إخراج هذا المجهود الثمين إلى النور، وأشكرهم أيضاً على المجهود الكبير الذي يبذلونه عبر منابرهم المتعددة، في مواجهة الأفكار الشريرة التي تعيث في أوطاننا فساداً.

وختاماً أشكر المؤلف والناشر على التوقيت العبقري بتحديد ال٢٦ من سبتمبر ٢٠٢٠، موعداً لإشهار الكتاب احتفاء بالعيد ال٥٨ للثورة السبتمبرية الخالدة. ولعمري إن الكتاب والتوقيت، يمثلان ضربة قاصمة للإمامة العنصرية السلالية التي حان وقت غروبها من بلادنا وحياتنا وإلى الأبد، والله ولي التوفيق.

٢٣ سبتمبر ٢٠٢٠

مقدمة الناشر

بقلم: عادل علي الأحمدي

الخرافة التي ينسفها هذا الكتاب ليست هيّنة ولا بسيطة بل هي معقدة التركيب وإن كانت بلا أساس. خرافة شديدة التأثير على حياتنا قديماً وحديثاً، ما إن تهدأ حتى تعود مخلِّفة أنهاراً من الدماء وألواناً من المآسي.

ورغم كونها كذلك، إلا أن العقل العربي والإسلامي لم يُعمل أدواته في تفنيدها وتعريتها بالشكل الكافي والكامل وذلك في تقديرنا يعود لعدة أسباب بعضها يتعلق بالخشية من الإثارة الطائفية أو العرقية، وبعضها الآخر يكمن في كون التعمق في كشف وتعرية هذه الخرافة، يستوجب ثقافة واسعة واطلاعاً كبيراً في كافة ميادين التفنيد، دين، تاريخ، لغة، اجتماع، سياسة.. وجزء ثالث يتعلق بحملة الترهيب الفظيع التي عادةً ما يقابل بها أيّ مجهود فكري جاد في هذا الصدد. بالتالي، كان لابد من تحليل وتفكيك هذه الخرافة وتفنيدها بأدوات غير طائفية ولا مذهبية، وبذهن وقّاد متسلح بالشجاعة الأدبية، ومتمكن في كافة الفنون والمعارف والمهارات اللازمة.

*

بعض المعضلات لا تحتاج سوى إلى تشخيصٍ دقيق لكي تأخذ المعالجات مجراها تلقائياً، فالكشف الدقيق والتعرية الأمينة والشاملة لهذه الخرافة يمثل في تقديري ٥٠ بالمائة على الأقل من الحل.

هذه الخرافة رغم بطلان استدلالها النظري وزيف نموذجها السياسي ودموية تاريخها العملي، إلا أنها لاتزال تتكرر وتتوسع معها دائرة الضحايا، ذلك أنها معضلة ذات أنساق عديدة، إذا قمت بتحطيم نسق ما وأثبتَّ بطلانه، توارت واختبأت وراء النسَق التالي، لذا كان لابد أيضاً، من دليل نظري يحطم كل هذه الأنساق بما فيها الكامنة داخل بعض الموروث المحسوب على الطرف المقابل.

ولعل نسبةً كبيرةً من التناولات التي لامست هذه الخرافة حاولت أن تعالجها دينياً أو مذهبياً وغفلت عن شقها السياسي، والبعض عالجها سياسياً متجاهلاً جانبها الديني، والبعض ناقشها تاريخياً وأغفل جانبها السياسي الحديث والمعاصر، وهناك من عالجها قُطرياً ولم يضعها في إطارها العام بوصفها معضلة عابرة للأقطار. وعلاوة على كل ما سبق، هنالك من ناقش هذه الخرافة من الناحية الأيديولوجية وغفل عن حاملها البيولوجي. ولذا بدت جلُّ تلك التناولات والمعالجات ناقصة بنسبة أو بأخرى، ومعها استمرت الخرافة متعددة الأوجه، كلما سقط قناعٌ استدارت واستخدمت القناع الآخر، سواء في نفس المكان والزمان أو في بيئة زمنية أخرى.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا، يقدم نفسه بقوة ليكون منطلقاً شاملاً لمعالجات جذرية جادة يبدأ معها العد التنازلي الحقيقي لانتفاشة تلك الخرافة المدمرة.

*

لقد حرص الكاتب الحميري أن يضمّن كتابه أكبر قدر من الإضاءات بأقل قدرٍ من الكلمات. ولذا فإن الكتاب الذي بين أيدينا مَتْنٌ شديد الكثافة، يحتاج إلى قارئٍ واسع الاطلاع بالمواضيع ذات الصلة. ومؤكد أن القارئ الحصيف سيمثل له هذا الكتاب نقلة فكرية متعددة

الخطوط. كما أن الباحث النبيه سيجد ضمن صفحاته عشرات الأفكار تستحق كل واحدة منها أن تكون مشروع بحث.

***

جاءت أقسام الكتاب متكاملة ومتسلسلة. غاص الكاتب خلال القسمين الأول والثاني، في تعرية ونسف الجذر الأيديولوجي الديني الزائف لهذه الخرافة متفنناً في بيان بطلان الاستدلالات التي تقوم عليها نظرية التفضيل عموماً ومن ثم التفضيل العلوي المفضي لخرافة حصر الولاية، وذلك بأدوات مجتهد متمكّن عالم بأصول الاستدلال والاستنباط، مدعّماً نتائجه بالعقل والنقل والحجة والدليل.

لم يكتفِ الكاتب بذلك، إذ ذهب ليؤكد بطلان الخرافة من خلال الغوص في جزئية حاملها البيولوجي (السلالة) بأسلوب علميٍ وبحثي دقيق. وهنا لابد من الوقوف قليلاً تجاه هذه الجزئية التي قد تثير بعض اللغط، إذ كثيراً ما أحجم المهتمون عن مناقشة مسألة التكاثر السلالي خشية الوقوع في التشكيك بالأنساب امتثالاً لمقولة قديمة "الناس مؤتمنون في أنسابهم" أو "الناس إلى ما انتسبوا إليه"، وهذه المقولة صحيحة من ناحية القذف المنهي عنه في الحالات الفردية، لكنها في مضمار التحري بموضوع كتابنا، ليست سوى مبرر أخلاقي للتهرب من كشف الحقائق لا أكثر، ولئن كان اعتمدها ابن خلدون في مقدمته فإنه قد نفى في المقابل، إمكانية نقاء السلالة بعد أربعة أجيال.

ومن اللازم التذكير على أن علم الأنساب مهمٌ لدى كافة الحضارات وكافة الأمم، خصوصاً إذا كان يترتب عليه دفع خرافة لها تأثيرها الدموي على أرض الواقع، كما هو الحال اليوم. ومعروفٌ أنه لا نهضة لأيّة أمة بدون نسّابة. ولقد كان أبوبكر الصديق رضي الله عنه، نسّابة العرب في

العهد النبوي، عالماً بخصائص القبائل ومحامدها، وموظفاً خبرته في خدمة الدعوة.

وبسبب أهمية هذا الجانب أصبح توثيق الأنساب علماً بحد ذاته، حتى لا يكثر الادّعاء ومنعاً لاختراق الحركات الباطنية بين الشعوب سيما وقد صار صرف "مشجّرات الأنساب" تجارة لها مغازيها السياسية وإفرازاتها العنصرية والدموية.

بل إن من السذاجة والتسطيح فصل الجانب البيولوجي عن الجانب الحضاري، لأن التاريخ "شظية من البيولوجيا"، وفقاً للمفكر الكبير "وول ديورانت" في كتابه "قصة الحضارة".

وللأهمية التي صار يكتسبها علم الأنساب كانت أهمية كتاب "الإكليل" لمؤلفه لسان اليمن أبي محمد الحسن الهمداني رحمه الله، ذلك السفر العظيم المفقود ستة من أجزائه العشرة!

والواضح أن المؤلف ترجم إلمامه الكبير بهذا الجانب، متجنّباً الإكثار من الشواهد في مسألة انتحال النسب إلا ما تقتضيه الضرورة، سيما وقد قام بتوفير الخيوط اللازمة للعثور على بقية الشواهد. فالغرض التحقيق لا التشهير، ليتوصل إلى نتائج لا ينكرها عاقل، في أن التكاثر المدَّعى للعشيرة العلوية أو الهاشمية على الوجه المعلن عنه في عصرنا الحديث، هو عبارة عن حلقة من حلقات الخرافة.

وهنا قد يقول قائل إن ثمة صفات سلوكية يجتمع فيها كلٌّ مدّعٍ للتميز العرقي، وهذا صحيح لكنه ليس دليلاً على واحدية العرق بقدر ما هو تأكيد إضافي أن الشعور بالأفضلية والتميز العرقي هو غطاء مفاهيمي يُكسب صاحبَه (أياً كانت أصوله الجينية) جملةً من السلوكيات العنصرية يتشابه فيها مع أقرانه من مُدّعِي التميز.

ولعل من تمام الفائدة التأكيد هنا أن الهدف ليس نفي أو إثبات قرشية الأدعياء أو هاشميتهم أو فارسيتهم أو تُركيتهم أو قحطانيتهم، فالنظرية تظل باطلة حتى لو كان كل هؤلاء أحفاداً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام وليسوا فقط أدعياء نسب لذرية أسباطه. فالنبيُّ لم يكن له أحفاد بل أسباط.

*

وطالما أن هذه الخرافة ليس لها جذرٌ في الإسلام، كما يؤكد القسمان الأول والثاني من الكتاب، وهي أيضاً باطلة من جهة حاملها البيولوجي، كما يبرهن القسم الثالث.. فمن أين إذن جاءت هذه الخرافة وكيف تراكمت ووصلت إلى الصورة التي هي عليه الآن؟

استلزمت الإجابة على هذا السؤال بحثاً طويلاً في الأديان والملل والنحل السابقة والمعاصرة للإسلام، لمعرفة مدى التأثير والتأثر، ليخرج لنا المؤلف بصفحات غاية في الروعة والدقة ضمن القسم الرابع (المصادر غير الإسلامية للتشيع). مؤكداً أن التشيع في بداياته، كان عربيَّ المنشأ بدافع العاطفة، لكنه ظل لمدة غير قصيرة، شكلاً من أشكال الحزبية السياسية لا غير، وذلك قبل أن يتم تطويره وتلبيسه لبوس الدين، ويغدو في نظر علماء الخرافة وأتباعها ركناً ركيناً لا يصح التدين إلا به، بل وكأنه محور الدين ومغزى الخليقة!

عند ذلك، وضع المؤلف يده على الموروث الديني الفارسي موثقاً نقاط اختراقه الثقافة الإسلامية على أنساق عدة، لينتج بالتشيع ما يمكن وصفه "النسخة الفارسية للإسلام"، وذلك بعد أن يئست النخب الفارسية المسكونة بتبعات الهزيمة في القادسية، من إسقاط الإسلام كدين وهوية.

لم يتوقف الكاتب عند هذه النتيجة، وراح يبحث عن أسبابها ويقلب احتمالاتها، محمّلاً مسؤولية تضخُّم الشخصية الفارسية المتعالية على العرب، أطرافاً عدة بينها العرب أنفسهم. ولقد ناقش المؤلف تلك العوامل انطلاقاً من أن من ينكر احتكار الطهر والعصمة لدى عرق ما، فهو أيضاً يرفض حصر الشر في عرق ما.

وبناء على ما سبق، وجد المؤلف نفسه معنيّاً في القسم الخامس والأخير، باستعراض تاريخ التعاطي الفارسي مع العرب والإسلام قديماً وحديثا، ليس لجهة الجذور الفارسية للتشيع فقط، ولكن لأن مياه التشيع تصب حالياً (ودائماً) في النهر الفارسي وتقدّم إيران الملالي وحزب الله، بوصفهما النموذج الواجب احتذاؤه! ذلك النموذج الذي يشنُّ في حقيقة الأمر حرباً لا هوادة فيها قديماً وحديثاً على العرب (مادة الإسلام).

وبكل سلاسة، قام الكاتب بتعرية الصورة المزيفة لإيران الثورة ولحزب الله، بطريقة يكتمل معها الإسقاط الكلي لـ"خرافة السلالة والولاية"، بمرتكزاتها الأربعة: النظرية والتاريخية والبيولوجية والشعاراتية.

*

إنه كتاب "غير مسبوق"، نستطيع كمركز متخصص أن نقولها بكل ثقة. وإننا لعلى ثقة أن هذا الكتاب سيجد بإذن الله، فرصته المستحقة في الانتشار والنقاش والتحقيق والتدقيق والترجمة إلى لغات عدة في مقدمتها اللغة الفارسية.

وهناك نقطة أخيرة تتعلق بالإحالات والهوامش وقد بررها الكاتب في الخاتمة بالقول إن فصول الكتاب بدأت في حقيقة الأمر كمشاريع مقالات تطورت مع الأيام، وليس كبحث أكاديمي ملتزم بشروط صارمة. على أن قائمة أهم المراجع في نهاية الكتاب توفر على الباحثين مؤونة الوصول إلى كافة المصادر، علما أن أغلب الاستنتاجات غير المنسوبة لمصادر، هي إنتاج أصيل للمؤلف.

***

أخيرا..

ليس من الوارد أو المعقول ترك هذه الخرافة تدمر أوطاننا وشعوبنا جيلاً بعد جيل، وتفرز منظومة من الأمراض المدمرة للهوية وللمجتمع: العنصرية، العنف، الإرهاب، الكراهية، الإفقار، الاستعباد، قمع الحريات ومصادرة الحقوق وفوق كل ذلك، قتل النفس التي حرم الله، بخرافة ليس لها أساس، وثارات ليس لها غريم!

ينبغي أن ينطلق قطار التنوير غير متأثر بغبار التطورات اليومية. ينبغي علينا في معركة استعادتنا لبلادنا وهويتنا أن نكون على إلمام واسع وعميق بطبيعة الخرافة المعقدة التي تحاربنا ببعض أبنائنا وتريد أن تغتال حاضرنا ومستقبلنا كما اغتالت أجزاء من ماضينا. وتبعاً لما سبق، ينبغي أن يتحول هذا الكتاب إلى كُتُب، وهذه مسؤولية كل مقتدر وكل عالم وكل باحث وكل إعلامي وكل أديب في الوطن العربي عموماً، وفي اليمن على وجه الخصوص. لأن اليمن، كما يشير الأستاذ القدير مروان دماج وزير الثقافة في تقديمه المركّز لهذا الكتاب، كان دائماً في طليعة الإسهام الثقافي الذي يحقق للأمة نقلات فارقة.

جزيل الشكر للأستاذ القدير مروان دماج، كما نشكر الأستاذ الكبير حارث الشوكاني الذي اختطّ في الزمن اليمني الحاضر، بدايات البحث الجاد في نسف هذه الخرافة المزمِنة. والشكر موصول للكاتب الحميري على هذا الإسهام الفكري التاريخي المميز، والذي سيكون له بمشيئة الله، ما بعده..

٦ أكتوبر ٢٠٢٠

المقدمة

الغالبية الساحقة من البشر سلبية تجاه شغل عقولهم بالتفكير في ما يحيط بهم من ظواهر. يفضل هؤلاء الارتكان كلية على القلة النادرة التي تتعامل بإيجابية عقلية وفكرية تفحص الظواهر وتنقدها ومن ثم تستنتج أفكارا ومفاهيم ربما تكون جديدة، صائبة أو خاطئة، أصيلة أو سطحية، واقعية أو خيالية، عادة ما يتلقفها السلبيون فتصبح عقائد يقينية بالنسبة لهم لا مجال لإعادة النظر فيها. لذلك فلا عجب من الأدوار التي لعبتها الخرافات والأساطير في حياة الشعوب، وفي مسار التاريخ، ولا غرابة في احتفاظ المجتمعات - ربما كل المجتمعات- بمنظومات من الأساطير تمنح حياتها متنفسات تفكها من تعقيدات الواقع وقيوده، وغالبا من صعوباته وعقباته.

شئنا أم أبينا، فالكثير من الخرافات والأساطير تشكل مساحات من تفكيرنا وتصوراتنا كبشر، والأسوأ، من هوياتنا ومواقفنا.

وإذا كان ذلك كذلك، فإننا لسنا قادرين على الخلاص النهائي من سطوة الأساطير والخرافات، لكننا مع هذا نستطيع بأي قدر ممارسة حركة تمرد على ما يمكن من أساطير بتعيينها أولا، واستخدام آلة العقل في دحضها ثانيا، سيما تلك الخرافات والأساطير السافرة الوقاحة والمهترئة المنطق، وبذات الوقت عميقة الأثر في حياتنا والجادة المحاولة لأن تصبح حقائق مقدسة أبدية.

وفي هذه المحاولة للفهم والإفهام سنتطرق إلى واحدة مما نعتقد أنها من أسخف الخرافات التي رافقت المجتمعات البشرية منذ القدم والتي تأتي خطورتها من كونها ما إن تذبل حتى تنتعش وتتفتح، وما إن تختفي هنا حتى تظهر هناك، تتمتع بقدرة (خرافية) على تبديل أثوابها. إنها خرافة احتكار الله وما يترتب على هذا الاحتكار من مسلسل خرافات تجمع بينها وتربطها بالخرافة الأساسية خرافة العلاقة الخاصة مع الله بما ينطوي عليه من امتيازات فوق أرضية.

وهذا ما ينطبق على الحالة المحددة في موضوع الفصول القادمة، والمثبتة في العنوان الرئيسي "خرافة السلالة والولاية".

وقد يبدو طرح كهذا صادما ومستفزا في ظرف يسعى الفكر الشيعي لتقديم نفسه كبديل ديني للداخل المسلم، والخارج غير المسلم المستاء في عمومه من نموذج الإسلام السني المرتبط تاريخيا بحركة الجهاد والفتوحات، وحديثا توليده حركات متطرفة في عنفها.

لعل الوضع الاستفزازي لهذا الطرح يكمن في ما قد يتبادر إلى الذهن من إنكار التناسل الهاشمي، وهذا ما لا يقوله عاقل ولا يثبته دليل من منطق أو تاريخ، وإن كان لهذه المادة أن تقول شيئا فليس أكثر من أن الهاشميين الحقيقيين باتوا نقطة قصية في مساحة واسعة من الأدعياء، وليس أكثر من أن النسب أيا كان لا يترتب عليه امتيازات من أي نوع. وهذا سبب آخر يجعل مثل هذا الطرح مستفزا بل وذا مسحة طائفية تجترئ على الاقتراب من عمود الفكر الشيعي المتمثل في الفضيلة المطلقة للنسب والقرابة العضوية من النبي محمد عليه الصلاة والسلام وما تدعيه من امتيازات روحية وسياسية واقتصادية واجتماعية متوارثة.

ربما تبدو هذه التناولة متحيزة، وهي كذلك فعلا لأن كاتبها لا يستطيع أن يكون حياديا حيال ما يعتقده إحدى الخرافات. وستتم تغطية التناولة في خمسة أقسام أساسية:

- الأول: دعاوى الاصطفاء السلالي
- الثاني: مزاعم الاصطفاء العلوي
- الثالث: الانتساب السلالي
- الرابع: المصادر غير الإسلامية للتشيع
- الخامس: الدور الفارسي.. قديما وحديثا

دعاوى الاصطفاء السلالي

معايير الأفضلية القرآنية

لعل تصور معايير التفضيل لدى المنتسبين لأي دين ما هو إلا تعبير منبثق عن تصور هؤلاء للإله، فاعتقد كل مجتمع ديني أفضليته حيال غيره من المجتمعات، وأن هذه الأفضلية هي منحة إلهية خاصة، تظهر الإله وكأنه متحيز وغير محايد إزاء بني البشر.

بيد أن المنطق الديني القرآني لا يرى التحيز الإلهي غير الموضوعي لفئة بشرية دون غيرها باعتبار أنه ابتداء زود البشر عموما بآلة العقل، ثم أسند العقل بالوحي والنبوات أو الرسالات، يقول تعالى "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ"[1]، ويقول "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا"[2]، ويقول "ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا..."[3]، ويقول "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا"[4]. ويقول "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ"[5].

ومن هنا يظهر العدل واللطف الإلهيان بكل البشر والمجتمعات دون تمييز أو محاباة لهذه أو تلك من الأمم أو المجتمعات، وإذا كان هناك من تفضيلات ما لاحقة فلا تخرج عن العدالة الإلهية التي تجعل عملية التفضيل قائمة على أساس موضوعي هو بصورته الإجمالية في مختلف الأديان، مدى التزام الفرد والمجتمع بتعليمات الدين المرسل إليهم عبر نبيهم.

١- يونس ٤٧
٢ النحل ٣٦
٣ - المؤمنون ٤٤
٤ - الإسراء ١٥
٥ - الرعد ٧

ذلك المعيار هو ما يعبر عنه القرآن الكريم بالتقوى، يقول تعالى "وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ.."[1]، ويقول "فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى"[2]، ويقول "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[3]. والأكثر من ذلك أن القرآن استهجن ادعاءات التميز والخيرية بقوله "فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ"[4]. وقوله "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا"[5]، وتؤكد الآية الأخيرة أن التزكية إلى جانب اختصاص الله بها، قائمة على أساس العدالة وعدم الظلم.

ومن المعلوم أن رأس الشرور إبليس خالف أمر الله بالسجود لآدم وبالتالي استحق الطرد من الرحمة بسبب تجاوزه معايير التفضيل الإلهي إلى معيار مادة الخلق، فيقول القرآن على لسان إبليس "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ"[6]. ويقول "قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ"[7].

آدم خالف أمر الله فأكل من الشجرة ثم تاب الله عليه، وإبليس خالف أمر الله فلم يسجد ثم طرده الله من رحمته، مخالفة آدم ناجمة عن نسيان أما مخالفة إبليس فناجمة عن اعتقاد بأفضلية على أساس مادة الخلق.

كذلك عندما أعلم الله ملائكته بخلق آدم واستخلافه كان معنى كلامهم "نحن أفضل منه"، "وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ"[8].

---

١ – الأعراف ٢٦
٢ – البقرة ١٩٧
٣ – الحجرات ١٣
٤ – النجم ٣٢
٥ – النساء ٤٩
٦ – الأعراف ١٢
٧ – الحجر ٣٣
٨ – البقرة: ٣٠

وعندما تخلف إبليس عن السجود كان معنى كلامه نفس معنى كلام الملائكة "أنا أفضل منه"، الفارق في مبرر الأفضلية، فالملائكة برروا أفضليتهم على أساس اختياري قائم على معيار موضوعي هو العمل (التسبيح والتقديس)، أما إبليس فبرر أفضليته على أساس إجباري قائم على معيار غير موضوعي هو مادة الخلق "خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ" لهذا ظل الملائكة مقربين وصار إبليس ملعونا مدحورا.

فإذا كان اعتقاد وسلوك إبليس تجاه البشر قائما على اختلاف حقيقي في مادة الخلق (أي النار والطين) ومع ذلك تم لعنه واستبعاده من رحمة الله، فما بال اعتقاد وسلوك إنسان حيال إنسان آخر رغم الاشتراك في مادة الخلق.

وإذا كانت المفاضلة على أساس مادة الخلق مرفوضة قرآنيا، فالأولى رفضها في محاولة وضع ميزات تفاضلية على أساس عضوي في مادة خلق واحدة، وبعبارة أخرى البحث عن خصائص جينية تؤسس للتمايز بين البشر لأن اختلاق معيار التميز الجيني أو العضوي باطل في مبتدأه لوحدة مادة الخلق والتناسل البشري من مصدر واحد، يقول تعالى "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"[1]. ويقول "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ"[2]. ويقول "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ"[3].

ومن عجائب القرآن أنه أظهر بطلان المفعول العضوي أو الجيني في مسألة التفضيلات الإلهية بذكر قرابات من الدرجة الأولى -وفق

---

١ - النساء ١

٢ - الأنعام ٩٨

٣ - الأعراف ١٨٩

المصطلحات التشريعية والقانونية- لأنبياء موضحا بجلاء أن القرابة العضوية لا تغني شيئا طالما خرجت عن معيار الالتزام الديني (التقوى)، ففي قصة نوح ذكر ولده، وإبراهيم ذكر والده، ولوط ذكر امرأته.

وفي الحالات الثلاث الثلاث لم تفد قرابة الدرجة الأولى من الأنبياء الثلاثة في تخفيف الاستياء الإلهي. كما لم تشفع القرابة العضوية لأبي لهب عم خاتم النبيين.

ما سبق لا يعني أن القرآن أغفل العلاقات العضوية بين البشر، بل أكد على المصاحبة بالمعروف والإحسان للوالدين حتى مع الخروج الكلي عن الالتزام الديني، أي مع الكفر، وكذلك أكد عليها إضافة للرابط الديني ومعه في مواضيع منها ما يتعلق بالوراثة أو الصلات المالية، إنما يعني أن أصل التفضيل الإلهي كأحد تجليات العلاقة بين الخالق والبشر هو اختصاص إلهي وفق معيار عادل يقوم على أساس الاقتراب أو الابتعاد من التعليمات الإلهية، حسب ما بيّن القرآن.

أهم ألفاظ التفضيل في القرآن

قد يبدو لوهلة أن القرآن بقدر ما أكد على التقوى أو التزام التعاليم الإلهية - بأوامرها ونواهيها- فإنه ضم بين دفتيه ما يشير إلى تفضيلات لا تظهر واضحة الأساس والمعيار، بل وقد توحي بقوة بالتفضيل على أساس عضوي، مما قد يعطي انطباعا بأن في القرآن وجهتي نظر متعارضتين، التفضيل على أساس عضوي، وعلى أساس التزام ديني. قد يكون الأمر صحيحا إذا اعتبرنا القرآن الكريم تعليمات مشتتة ومفككة لا يربط بينها سوى سمتها الإلهية، لكنه حقيقة ليس كذلك، وإنما هو منظومة واحدة لا تناقض فيها ولا اختلاف.

وفي ضوء هذا يمكن النظر في بعض إشارات التفضيل وألفاظه الواردة في القرآن، والتي من الجائز حصرها مبدئيا بألفاظ الاصطفاء، والاجتباء، والخيرية، والتزكية، والتفضيل.

ويمكن تناول الموضوع بملاحظات عامة بداية نوجزها فيما يلي:

١) ألفاظ الأفضلية والخيرية والإجتباء والاصطفاء وردت في القرآن مرتبطة بفعل إنساني وقواعد موضوعية والتزامات ما، وليس بشكل عبثي أو اعتباطي.

٢) المعيار الناظم للأفضليات على أساس ديني هو "التقوى".

٣) هذه الأمور نسبية ووظيفية حسب ما ورد في القرآن، كأمثلة، اصطفاء طالوت تم بوجود نبي لأن وظيفة الملك تقتضي شروطا خاصة، واصطفاء مريم كان بالنسبة للنساء ومحدود في إطارهن، وحالة اصطفاء موسى كانت قائمة ومع ذلك تفوق عليه النبي "الخضر" في بعض نواحي العلم.

٤) الأنبياء والرسل أنفسهم مرتبطة عملية الاصطفاء الوظيفي بالتزام مواثيق، والإخلال بهذه المواثيق يجعلهم كسائر البشر معرضين للغضب الإلهي "ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الوَتِينَ"[١].

٥) منطق الأفضلية لأسباب غير موضوعية منطق إبليسي سار عليه بنو إسرائيل عندما نسوا أو تجاهلوا أن تفضيلهم واختيارهم لأداء رسالي كان لأسباب موضوعية لا عرقية، فعندما صبروا وأحسنوا والتزموا الميثاق استحقوا التفضيل الوظيفي وعندما نقضوا الميثاق انحدروا من خانة الفضل إلى خانة اللعن.

---

[١] – الحاقة ٤٦

٦) إذا كانت مسألة التفضيل والاستحقاق الديني محسومة سلفا من الله ولا علاقة لها بالفعل والجهد الإنساني فإن هذا ينسف الدين وأوامره ونواهيه من الأساس ويحوله إلى مجرد عبث لا ينبغي لله سبحانه وتعالى، فإذا كانت المسألة محسومة إلهيا فما فائدة الإرادة الإنسانية التي منحها الله وما جدوى المنافسة على التزام الأوامر واجتناب النواهي، فتكون القضية مثل من يضع اثنين في سباق للجري أحدهما مشلول الساقين والآخر بكامل صحته!

٧) هذا المنطق يناقض مبدأ العدل الإلهي الذي تقوم عليه النظرية الشيعية بكل مذاهبها.

٨) ألفاظ الاصطفاء وما في معناها إما أن تكون عامة أو خاصة بمعيَّن وهذه توقيفية على الله سبحانه، ويقينية طالما أظهرها الله، حسب علمه، وما لم يعينه الله في الاصطفاء لا يحق للبشر تحديد هذا أو ذاك بالاصطفاء لأن الوحي قد انقطع، أما الاصطفاء لغير معين فننظر في انطباق المواصفات القرآنية ومع ذلك لا نجزم يقينا بعملية التفضيل لأنها تبقى تقديرا بشريا لا وحيا وتحديدا إلهيا.

من حيث التفصيل يمكن متابعة الموضوع على النحو التالي:

أولا: الاصطفاء والاجتباء

الاصطفاء والاجتباء مترادفان يعنيان لغويا الاختيار ويلاحظ في السياق القرآني أن اللفظين أكثر ما أتيا كانا في الأنبياء والصالحين، أي بمعينين، كما جاء في أتباعهم، أي على العموم وبالنظر إلى السياقات يتبين أن الاصطفاء والاجتباء ليسا عملية عبثية خارجة عن معايير العدالة والحكمة والعلم الإلهي.

- اصطفاء طالوت:

طالوت، لم تُشتهر عنه النبوة ومع ذلك تم اصطفاؤه حسب ما أفاد النبي الذي أعلم بني إسرائيل باختيار طالوت ملكا "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"[1]، ولعل في الآية الكريمة ثلاث إشارات أساسية توضح أولا، أن الاصطفاء اختصاص إلهي بحت. ثانيا، أن الاصطفاء لم يكن عبثا وإنما قام على أساس حاجة الظرف والموضوع – وهو السياسة والحرب – بسطة العلم والجسم، ثالثا. أن الاصطفاء كان ناتجا عن علم إلهي "والله واسع عليم".

- اصطفاء مريم:

قد تكون مريم إحدى نبيات بني إسرائيل، فالوحي نزل عليها، وإن لم تُشتهر عنها الدعوة فالقرآن ذكر أنبياء لم يشر إلى أنهم حملوا رسالات أو دعوا قومهم، كما أن التاريخ الديني اليهودي يقول بوجود نبيات في بني

---

١ – البقرة ٢٤٧

إسرائيل كالنبية خلدة، وحتى إن لم تكن مريم نبية فقد أبلغها الوحي بالاصطفاء على نساء العالمين "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ"[1]. ويتبين من الآية أن الاصطفاء الإلهي تم بإبلاغ الملائكة لها، بمعنى أنها كانت في مرحلة نضج عقلي وعمري قادرة معها على استيعاب بلاغ الملائكة، وهذا مجددا يوضح أن الاصطفاء لم يكن اعتباطيا أو ابتداء فقد كان نتيجة التقوى أو الالتزام الديني السابق لمريم، غير دعوة ونَذْر والدتها الصالحة كما تشير آيات أخرى.

- اصطفاء الأنبياء:

من السياقات القرآنية يظهر أن الإعلام بالاجتباء للنبوة لا يقوم ابتداء إلا في حالة عيسى ويحيى وإسحاق عليهم السلام، كحالات غاية في الخصوصية، حيث يجمع بينهم اشتراكهم في ما يخالف العادة، عدم وجود أب لعيسى وحمل العاقر بالنسبة ليحيى وإسحاق، والاشتراك في البشارة الإلهية بمولدهما، ودعوات أبويهما قبل ولادتهما، ومع ذلك لم تأت النبوة والرسالة لأي منهم إلا بعد النضج.

ومن الشواهد على ذلك، إبراهيم عليه السلام الذي اجتمع فيه، خصوصا، لفظا الاصطفاء والاجتباء، وكذا موسى عليه السلام إذ في الحالتين كان الاصطفاء للرسالة والنبوة عملية لاحقة لحالة معاناة فكرية واجتماعية أسفرتا عن اقترابهما من منطقة الاصطفاء الإلهي، فحالة البحث عن الإله الحقيقي والتثبت منها أو المعاناة الفكرية بارزة في قصة إبراهيم، والمعاناة الاجتماعية ذات الأبعاد الخاصة بادية في قصة موسى.

---

١ - آل عمران ٤٢

إضافة لذلك فالاصطفاء والاجتباء في حق عموم الأنبياء وفقا للسياق القرآني يقترن في آيات سابقة ولاحقة للآيات التي جاء فيها اللفظان بإشارات إلى تقواهم وأعمالهم الصالحة.

ويمكن في هذا الصدد اعتبار الاصطفاء الإلهي اصطفاء وظيفيا لا يفترق عن المعنى الحديث للوظيفة الإدارية -إذا اضطررنا للتشبيه والتقريب- فاصطفاء طالوت كان اصطفاء وظيفيا للملك لتوافر متطلبات، أو اشتراطات الملك حسب الظرف الزماني آنذاك في طالوت من بسطة في العلم والجسم، في حين كانت الوظيفة النبوية منوطة بالنبي الذي أبلغهم الاختيار لطالوت.

ويؤكد المعنى الوظيفي للاصطفاء قوله تعالى "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ"[1]. فكأن عملية الاصطفاء لوراثة الكتاب منوطة بتوفر شروط أولية وأساسية أشارت إليها لفظة "عبادنا" إلا أن الأداء الوظيفي تفاوت بين المصطفين على ثلاثة مستويات، كما يتفاوت في الوظيفة النبوية، ما يؤدي إلى تفاوت الأفضلية في الدرجات ضمن هذه الوظيفة "وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ"[2].

إذن فالوصول إلى استحقاق الاختيار والاصطفاء للوظيفة النبوية عملية مسجلة في علم الله تقتضي جهدا بشريا لتوفير شروط التقدم للوظيفة، والارتقاء إليها، كما يتبين من حالات المعاناة النضالية، الفكرية والعملية التي طالت أكثر الأنبياء ذكرا في القرآن، إبراهيم وموسى قبل استحقاقهما دخول دائرة الاصطفاء الإلهي للنبوة، ما يوحي باشتراطات أولية أشار

---

١ - فاطر ٣٢

٢ - الإسراء ٥٥

القرآن إلى بعضها كما في قوله تعالى في إبراهيم "إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"[1]. وكأن في لفظة "جاء" إشارة إلى بذل إبراهيم جهدا في توفير شرط سلامة القلب لنيل الاصطفاء الإلهي، ويقول فيه أيضا "وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ"[2]. ثم يورد بعدها آيات انتقاده لأبيه وقومه. فإتيان الرشد يتوافق مع الآيات التي ترجع العمليات الاختيارية لله دون أن تعني نفي الفعل البشري بدليل قوله "وكنا به عالمين"، وكما في شأن يوسف "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ"[3]. وفي موسى "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ"[4]. إضافة لما ورد من آيات بما فيها الآيتان الأخيرتان "كذلك نجزي المحسنين" في إشارة إلى استحقاق الحكم والعلم كعملية تأهيلية في الوظيفة النبوية، ناجمة من توفر شرط الإحسان.

وبعد الوصول لنيل الوظيفة النبوية تأتي مرحلة شروط العقد أو التوقيع على التعاقد وفق القواعد القانونية -إذا جاز التشبيه- والتأكيد على الالتزام بأداء مهام الوظيفة كما تشير آيات عديدة منها قوله تعالى " وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْك وَمِنْ نُوحٍ"[5].

وفي حالة وقوع الاختيار فمن الطبيعي والعدل منح امتيازات الوظيفة لمن تحصّل عليها خصوصا مع المزيد من الترقيات داخل دائرة الاصطفاء، كاستجابة بعض الطلبات، بينها حق اختيار مساعدين في حال سماح الأنظمة الوظيفية، وهو الحق الذي استخدمه بعض الأنبياء مثل إبراهيم وموسى، ومنه طلب إبراهيم سريان الإمامة على نسله فنال من ذريته

---

١ - الصافات ٨٤

٢ - الأنبياء ٥١

٣ - يوسف ٢٢

٤ - القصص ١٤

٥ - الأحزاب ٧

القريبة النبوة كل من إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط، بما يتوافق -حتى في هذه الحالة- مع الاشتراطات اللازمة للوظيفة النبوية بدليل حرمان من لا تتوافر فيهم شروط دخول دائرة الاصطفاء "قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ"[1]. وقوله تعالى في معظم ذرية إبراهيم "وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ"[2]. وبالمثل إجابة طلب موسى في اصطفاء هارون كنبي مساعد لأداء مهام الرسالة.

وبموازاة الامتيازات النبوية تظل العقوبة من حيث المبدأ قائمة في وجه كل من يخالف التزامات وظيفته النبوية كما في قوله تعالى بحق نبينا الأعظم "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ"[3]. سوى ما أكده القرآن كقاعدة للاصطفاء بالنبوات والرسالات في قوله تعالى " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ"[4]، وليس خافياً من الآية أن الاختيار الإلهي لأشخاص معينين للأداء الرسالي عملية قائمة على علم وحكمة إلهيين وليست اختيارا عشوائيا.

- اصطفاء العموم: أي بدون تعيين شخصي، يقول تعالى في قصة لوط "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ"[5]، يلاحظ من سياق القصة والآيات التي أوردتها أن الاصطفاء ونجاة آل لوط كان أساسه الالتزام والتقوى، "إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ"[6]. حتى حتى إذا نزعت الآية من سياقها كما في تفسيرات لها وأن المقصود بعبارة

---

١ - البقرة ١٢٤

٢ - البقرة ٤٠

٣ - الحاقة ٤٤،٤٥،٤٦

٤ - الأنعام ١٢٤

٥ - النمل ٥٩

٦ - الأعراف ٨٢، النمل ٥٦

الذين اصطفى هم الرسل، فإن لوطاً منهم وهو من الذين يتطهرون، فيظل شرط الالتزام الديني قائما.

ويمكن استخلاص التالي في قضيتي الاصطفاء والاجتباء:

١- أنها عملية توقيفية على الله سبحانه بالنسبة للمعينين، ومن ثم يكون من التجاوز تسمية معينين بالاصطفاء والاجتباء دون دليل نص إلهي.

٢- أنها ليست عشوائية وعبثية واعتباطية إنما تقوم على أسس في علم الله أوضح لنا بعضها، وما أوضحه فهو ما يلزمنا الحجة.

٣- أنها في الأغلب لاحقة وليست ابتدائية إلا في حالات عيسى ويحيى الخاصتين.

٤- أنها لا تنفي بقاء الأساس القرآني المذكور وهو التقوى.

٥- أن وصول المعيَّن لدائرة الاصطفاء الإلهي ليس مطلقا بل مقترنا باشتراطات لاحقة وإضافية، والخروج عن هذه الاشتراطات يترتب عليه تأثر درجة الاصطفاء، كما في قصة ذي النون وخروجه مغاضبا.

٦- بالنسبة لاصطفاء العموم أو غير المعينين فهو أيضا غير مطلق ودائم ويرتبط مرة أخرى بمدى الالتزام الديني، يقول تعالى "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ"[1]. ويقول "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ"[2].

٧- الاصطفاء، كما أنه عملية مشروطة بتبعات والتزامات، فهو عملية نسبية وليست مطلقة، فاصطفاء طالوت محدد بالملك رغم وجود نبي،

---

١ - فاطر ٣٢

٢ - الحديد ٢٦

واصطفاء مريم بالنسبة للنساء، واصطفاء هارون أقل درجة من اصطفاء موسى. وبنص القرآن هناك أنبياء أفضل من أنبياء بمعنى وجود تفاوت في درجات الاصطفاء، ولو كان الاصطفاء عملية مطلقة لتساوى الجميع وعدُم التفاوت بين الأنبياء.

ثانيا: الخيرية والتزكية:

من اللافت في هذه الألفاظ أن المنسوب لبشر منها في القرآن الكريم أتى في الأغلب دون تعيين، وإنما منسوب لعموم بعضه مقرون باشتراطات، يمكن انطباقها على أي شخص يتوافر على الشروط، مع التأكيد السابق الإشارة إليه بعدم تزكية الذات.

من ذلك يقول تعالى :"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"[1]، ويقول " وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ"[2].

أما لفظ التفضيل فورد في القرآن كثيرا، إلا أنه في مسألة المقارنة التفضيلية بين البشر أتى بما يخص بني إسرائيل، و"بني" هنا توحي بأساس عضوي وهو ما يعنينا.

ثالثا: تفضيل بني إسرائيل:

بداية تجدر الإشارة إلى أن اقتران أو وصول فرد أو مجموعة إلى منطقة الاصطفاء، كما يترتب عليه اشتراطات والتزامات إضافية - مقارنة بمن هم خارج منطقة الاصطفاء -فإنهم وبمقتضى العدالة الإلهية تضاف لهم- مقابل الالتزامات الإضافية- المزيد من الفضيلة والتفضيل بما يمكن

---

١ - .." آل عمران ١١٠

٢ - البقرة ١٢٩

تسميته مجازا متوالية التفضيل. وبهذا المعنى يقول الله تعالى "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"[1]، ويقول "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ"[2]، ويقول في قصة أهل الكهف، وهم جماعة "إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى"[3]، ويقول "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى"[4]، ويقول " فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا"[5].

خصوصية بني إسرائيل

إن مجرد كثرة ورود قصص بني إسرائيل، واحتلالهم مساحة كبيرة من القرآن الكريم يؤشر على وضعيتهم الخاصة كمادة بشرية فيها الكثير مما يمكن أن يمثل عبرة وعظة لغيرهم، لاسيما للمسلمين، وتتكشف هذه الخصوصية من دواعٍ عديدة مكنتهم من الوصول كجماعة إلى دائرة التفضيل.

تبدأ الملحمة اليهودية بإبراهيم عليه السلام، مرورا بقصة الذبح لأحد أولاده، وقصة يوسف وإخوته، وصولا إلى موسى، ثم داؤود وسليمان، وانتهاء بعيسى، وباستقراء التاريخ اليهودي من مصادر مختلفة يجد المرء صعوبة في إيجاد ذات الدراما والاستمرارية في سجلات التاريخ البشري لأقوام آخرين.

---

١ – العنكبوت ٦٩
٢ – محمد ١٧
٣ – الكهف ١٣
٤ – مريم ٧٦
٥ – التوبة ١٢٤

بالتأكيد هناك شعوب تعرضت للغزو وتدمير مدنها وقتل رجالها وأسرهم، وسبي نسائهم وأطفالهم، بل كان هذا الوضع القلق سمة معظم العصور التاريخية المدونة، إلا أنها لم تكن رغم ذلك بنفس المدى المتنوع والمستمر للمسيرة التاريخية اليهودية، ولو اقتصرنا فقط على ما ورد في القرآن بشأنهم لناحية أبرز معالم حياتهم لرأينا كيف تناقض تاريخهم ما بين اضطهاد استثنائي في عهد موسى وفرعون، وملك ومجد استثنائي تجلى في ملك سليمان. ومن فرار شعب بكامله ومطاردته من فرعون، ثم إلى أسره بالكامل على يد نبوخذ نصر البابلي كما جاء في كتب التاريخ.

ومن الملاحظ أن صيغة التسمية في القرآن "بني إسرائيل" بدأ ترديدها كما يتبين من السياق القرآني في قصة موسى وفرعون بكثرة وما تلاها.

وقبل الدخول في بعض التفصيلات فمن المستحسن الإشارة إلى أن تسمية "بني إسرائيل" مع ما يبدو عليها للوهلة الأولى من مسحة عرقية تضفيها لفظة "بني" ذات المدلول العضوي في اللغة السائدة إلا أن الحقيقة ليست كذلك لأسباب نلخص بعضها فيما يلي:

- أن القرآن في معظم خطابه يلتزم ما يمكن تسميته النطاق المفاهيمي للعرب "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ"[1].

لهذا فقد عَمِد القرآن إلى استخدام عبارة "بني إسرائيل" فيما لا وجود للفظة "العبرانيين" التي لم تكن محل استعمال سائد لدى العرب، مثلها كمثل لفظة "النصارى" مع أن الاستخدام السائد من قبل معتنقي الديانة

---

١ - الشعراء ١٩٥.

هي لفظة "المسيحية" فيما ركز القرآن على ما هو جارٍ على اللسان العربي.

- من المعروف في الصيغ البلاغية العربية سريان إطلاق لفظ الجزء على الكل أو العكس، حسب مقتضيات الدلالة البلاغية، كما في إطلاق تسمية "بني إسرائيل" الجزء على كل العبرانيين.

- التسمية لها دلالة دينية، إذ أن لفظة "إيل" كانت تسمية للإله الأعلى في عديد من ديانات الساميين، والعبارة "إسرائيل" معانيها لا تخرج عن مدلولات دينية منها "يجاهد الله"، ولو كان المراد دلالة عرقية لاستعملت تسمية "بني يعقوب" لا بني إسرائيل.

- كان أغلب أتباع الديانات، ومازالوا، ينظرون للإله نظرة فيها مسحة أسرية توحي بالعناية، فألصقت مفاهيم العلاقات الأسرية بعلاقات الإله بالإنسان، بل إن نظريات انحدار الإنسان من الآلهة التي يدين لها كانت سائدة في أكثر الديانات، لهذا نجد مفاهيم ابن الإله، أو الانتساب إلى الإله كانت من المسارات الفكرية الاعتيادية في الديانات، من ذلك انتساب قبائل في العربية الجنوبية (اليمن وعُمان) لآلهتها، وأبناء الآلهة في شمال الجزيرة، ووصف الإله بـ"الأب"، ومن المسلم به تأثر الديانات ببعضها بعضا، ويشير القرآن إلى هذا النوع من الارتباط الإلهي الإنساني الذي كان سائدا بقوله "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ.."[1].

وبالعودة إلى بعض التواريخ بين وصول يعقوب وأبنائه مصر وطرد أحفاده في عهد موسى نجد أن هذا الشعب المنحدر عرقيا في الجزء الأهم منه، من يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم تمكن عبر قرون من

---

١ - المائدة ١٨

تكوين ثقافة خاصة قوامها الدين والمدلول العرقي، حتى أصبح الدين الإسرائيلي عَلَماً على الشعب الإسرائيلي، رغم اعتناق غير إسرائيليين للدين اليهودي.

وبقدر ما مكنت هذه الثقافة المركبة من حفظ هوية خاصة باليهود بقدر ما جعلت منهم فئة معزولة عن محيطهم، ما أعطى تاريخهم سمة خاصة ذات طابع نضالي، وجعلتهم أشد تمسكا والتزاما بالدين –مقارنة بغيرهم– ما أهّلهم لاستحقاق وسام التفضيل الإلهي فقال تعالى "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ"[١]، وقال "وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ"[٢].

إذن، ومرة اخرى، يتأكد أن الاختيار والتفضيل قائم على أساس من علم الله، وأنهما وقعا على بني إسرائيل استحقاقا لاحقا، لكن الإشكالية باقية في الجيل الاسرائيلي الأول، أي توارث الاصطفاء على أساس القرابة العضوية في حالات إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته عند من قال إن إخوة يوسف أنبياء، ثم ظهورها في نسلهم، ويمكن معالجة ذلك في معنييْ الوراثة والذرية الواردين في القرآن:

– الوراثة: يقول تعالى "وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُد"[٣]، في الآية، ومن واقع السياق القرآني والتاريخي أن الوراثة المقصودة هي الملك، ووراثة الابن لملك أبيه هو السائد في أغلب فترات التاريخ، أما النبوة فيوحي السياق القرآني أن سليمان نال اصطفاء النبوة قبل موت أبيه داوود، يقول تعالى "فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا"[٤].

---

١ – البقرة ٤٧
٢ – الدخان ٣٢
٣ – النمل ١٦
٤ – الأنبياء ٧٩

- الذرية: يقول تعالى "وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ"[1]، ويقول "وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ"[2]. ويقول "أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا"[3]، ويقول "وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[4]، ويقول تعالى "وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ"[5].

الآيات السابقة تشير إلى الوراثة أو الانتقال العضوي للاصطفاء والفضل كما يظهر من عباراتها، لكن يمكن مناقشة المسألة من عدة جوانب:

أ) الوراثة ليست متصلة فإذا أخذنا سلسلة وارثي النبوة ممن ذكرهم القرآن نجد أنها متصلة في خمسة أنبياء فقط من بين خمسة وعشرين نبياً ذكرهم القرآن الكريم، فيبدو أن الوراثة كانت في إسماعيل، إسحاق ويعقوب (إسرائيل) ويوسف كسلسلة قرابية متتابعة، وسليمان. بالنسبة للأخير تم الإيضاح آنفا أن نبوة سليمان كانت في عهد أبيه وما ورثه بعد مماته هو الملك، وكذلك الأمر بالنسبة ليوسف فقد صار نبياً في عهد أبيه وبعيداً عنه، وإسحاق أيضاً، يقول تعالى "وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ"[6]، فكانت نبوته مرافقة بشارة مولده. ومن السياق القرآني

---

١ - الزخرف ٢٨
٢ - الأنعام ٨٤
٣ - مريم ٥٨
٤ - الأنعام ٨٧
٥ - العنكبوت ٢٧
٦ - الصافات ١١٢

كذلك يبدو أن نبوة إسماعيل كانت في حياة إبراهيم، يقول تعالى "وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ"[1].

إضافة لذلك من الثابت انقطاع النبوة في أغلب أعمدة ذرية إبراهيم عليه السلام، ليس كما يبين القرآن فحسب بل وفي الكتاب المقدس لليهود أنفسهم، وبالتالي فليست القرابة هي الأصل في امتداد الاصطفاء.

ب) من أهم خصائص الأنبياء من بني إسرائيل بل وقبلهم أبو الأنبياء إبراهيم، أنهم بعد وصولهم منطقة الاصطفاء، ووقوعهم تحت متوالية الاصطفاء نالوا فيما نالوا من نتائج الرضا الإلهي استجابة الدعوة التي تضمنت امتداد الاصطفاء لذوي قرابات عضوية وبخاصة بالنسبة لإبراهيم عليه السلام الجد الأول لبني إسرائيل، فكان كثير الدعاء لذريته يقول تعالى على لسانه "رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ"[2]، ويقول "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ"[3]، ويقول "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ"[4]، ويقول تعالى "قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي"[5]، ويقول على لسان امرأة عمران "وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"[6].

---

١ – البقرة ١٢٥
٢ – إبراهيم ٤٠
٣ – إبراهيم ٣٧
٤ – البقرة ١٢٨
٥ – البقرة ١٢٤
٦ – آل عمران ٣٦

ويقول تعالى على لسان زكريا "هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ"[١]، ويقول " فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا"[٢]،ويقول في شأن هارون "وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي"[٣].

ومن ثم فقد كان الاصطفاء للقرابات العضوية ناجما عن دعوات من نالوا فعلاً الاصطفاء سابقاً، فهو تالياً، ناجم عن الدعوة وليس مجرد القرابة، ودعوة إبراهيم تحديداً تفسر سريان الاصطفاء على عديد من الأشخاص ذوي القرابة الجينية منه، مع التأكيد مجدداً أن تلك الدعوات لا تنافي بعض قواعد الاصطفاء المشار إليها سابقاً اعتماداً على نصوص قرآنية، وهو ما سيتم التأكيد عليه أكثر لاحقاً.

حيال ذلك لم يسجل القرآن الكريم دعوات مماثلة متصلة بالقرابات العضوية لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

قد يحتج قائل بأن الله بين وراثة ذرية نوح للنبوة رغم أنه لم يطلب سريان الاصطفاء على ذريته كما طلب إبراهيم حيث يقول تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ"[٤]، والجواب أن هذا لا يغير في الأمر شيئا، فإذا استبعدنا المفهوم الديني لمعنى الذرية، فإن "وجعلنا" لا تفيد الحصر، بمعنى أن النبوة ليست مقصورة على الذرية العضوية لكل من نوح وإبراهيم، ولو كانت تفيد الحصر لتناقضت مع آيات أخرى، وهذا محال على القرآن، كقوله تعالى "ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ

١ – آل عمران ٣٨
٢ – مريم ٥، ٦
٣ – طه ٢٩- ٣٢
٤ – الحديد ٢٦

إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا"[1]، وقوله "أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا"[2]. فمن "حملنا مع نوح" هم من غير ذرية نوح عليه السلام، ولو قيل أبناؤه ممن حملوا معه، لكان في ذكر ذرية نوح ما يفيد. إضافة إلى الآيات العامة في اختصاص كل أمة أو قوم برسول. إلى جانب أن الآية المحتج بها تماثل قوله تعالى "أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ"، ومعلوم أن ذرية إسرائيل هي من ذرية إبراهيم وذرية الأخير من ذرية آدم.

جـ) أكثر الآيات صراحة فيما يبدو أنه توريث لفضيلة النبوة هي قوله تعالى في إبراهيم "وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ"[3]. وبصرف النظر عن ميول بعض التفسيرات اعتبار الذرية، ذرية دينية لا عضوية على غرار "وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ"[4]، وقوله "مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ"[5]، وقوله "وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ"[6]، يؤكد المعنى قوله "حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ"[7]، وبجمع الآيتين الأخيرتين فذريته الباقية هم من آمن معه. وبغض الطرف عن عدم اشتراط امتداد الذرية لأكثر من جيل كما وصف القرآن النبي يحيى بأنه ذرية زكريا حصرا "هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي

١ – الإسراء ٣
٢ – مريم ٥٨
٣ – العنكبوت ٢٧
٤ – الأحزاب ٦
٥ – الحج ٧٨
٦ – الصافات ٧٧
٧ – هود ٤٠

الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ"[1].

بتجاهل ما سبق فإن الآية لا تعني قطعا حصر النبوة في ذرية إبراهيم العضوية بدليل قوله تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ"[2]. ما يلغي إفادة لفظة "وجعلنا" حصر النبوة في ذرية إبراهيم، وبانعدام الحصر العضوي يزول الاختصاص العضوي بالفضيلة. يؤكد ذلك أن القرآن يكرر من واقع العدالة الإلهية ابتعاث الرسل لكل الأمم من أي عرق كانت كما في قوله تعالى "وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ"[3]، وقوله "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ"[4]، وقوله "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا"[5].

إذن فالإشارة إلى الذرية في هذه الآية لا تفيد الاصطفاء العضوي لنسل معين أو تخصيصهم بأفضلية توارث الوظيفة النبوية لإمكانية ظهور النبوة في غير هذا النسل -ذرية نوح من غير ذرية إبراهيم- وإنما تفيد ما تناوله القرآن في كثير من المواضع عن الحالة الخاصة لبني إسرائيل، النسل الأساسي لإبراهيم، بمعنى أن بني إسرائيل في حقيقتهم مجموعة بشرية تماهى فيها العرق في مفهوم الأمة المستندة على مكونين متمازجين، القومية والدين، فهم وفق التعبير القرآني قوم أو أمة يستدعي وجودها وجود رسل منهم لإنذارهم وتبشيرهم "مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ"[6]،

---

١ - آل عمران ٣٨،٣٩
٢ - الحديد ٢٦
٣ - الرعد ٧
٤ - يونس ٤٧
٥ - النحل ٣٦
٦ - إبراهيم ٤

ونتيجة لهذا التماهي القومي الديني كان طبيعيا أن تتكون ذرية إبراهيم من أنبياء يحملون الرسالة إلى أمتهم.

مما سبق يتوضح أن الاصطفاء والتفضيلات الواردة في الآيات القرآنية لبني إسرائيل وانتقالها لمعينين لديهم قرابات عضوية بمصطفين لا يلغي انطباق قواعد الاصطفاء المشار إليها سابقا وفي آيات أخرى من كون الاصطفاء والتفضيل عملية توقيفية على الله للمعينين، وأنها في الأغلب لاحقة، وأنها نسبية ومشروطة، والأهم أن أساسها ابتداءً هو الفعل والاكتساب الإنساني بالارتقاء إلى دائرة الاصطفاء الإلهي والمساعدة الإلهية التالية، وما يؤكد ذلك قوله تعالى:

- "قال مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"[1]، التزام الصبر والتقوى.

- "وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا"[2]، خصوصية متعلقة بالاستضعاف والاستحقاق عبر الصبر.

- "وبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ"،[3]، اصطفاء غير مطلق، ومشروط.

- "إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ"[4]، استحقاق إبراهيم للإمامة نتيجة التزام التعليمات الإلهية، واستجابة إلهية للدعوة كما تشي الآية وتوضح آيات أخرى مع استثناء الخارجين عن مسار الالتزام.

---

١ – الأعراف ١٢٨
٢ – الأعراف ١٣٧
٣ – الصافات ١١٣
٤ – البقرة ١٢٤

- "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ"[1]، الآية تجمع بين الالتزام الديني وبين القرابة العضوية وتوضح بجلاء قاعدة الاصطفاء الأساسية المتمثلة في استحقاقه على أساس الفعل الإنساني عبر الالتزام الديني للاقتراب من منطقة التفضيل العام ونيل نتيجته ولا شك أن الأنبياء هم رؤوس المؤمنين، ومن ثم فهم يدخلون في مضمون الآية، ونيل الاصطفاء والتوبة الإلهية مرهون بفعلهم الملتزم لا لأنهم ذوو قرابة عضوية.

د) الذرية في القرآن لا تقتصر على الذرية العضوية، بل تأتي بشكل أظهر، تستقيم معه المعاني، للدلالة على ذرية دينية. إذ يصف القرآن من نجا في السفينة مع نوح بأنهم ذريته، من بينهم بعض أولاده، لكن بجانب آخرين من غيرهم آمنوا معهم، يقول تعالى "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ..."[2]. فآل إبراهيم إذا أخذنا بالمعنى العضوي ليسوا من ذرية نوح، إذا أخذنا مرة أخرى معناها العضوي، ويقول تعالى "وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ"[3]. فإذا كانت "ومن ذريته" تعود إلى نوح، فليس إبراهيم وبنوه من ذريته، وإن عادت إلى إبراهيم، وهو الظاهر، فلوط ليس من ذرية إبراهيم، إذن فالذرية التي يستقيم معها المعنى هي الذرية الدينية.

---

١ - الطور ٢١

٢ - آل عمران،٣٣، ٤٣.

٣ - الأنعام ٨٤، ٨٥، ٨٦

"بل أنتم بشرٌ ممن خلق"

وأخيراً، فإن ما يؤكد أن عملية الاصطفاء والتفضيل تقوم على أساس التزام التعاليم الإلهية، بنو إسرائيل تحديداً، إذ أنهم خرجوا من دائرة التفضيل بانحرافهم عن التعاليم الإلهية، بل وتحولوا إلى دائرة الغضب الإلهي كما يبين السياق القرآني، كقوله تعالى "وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ"[١].

وقوله "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ"[٢]، وقوله تعالى "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ"[٣]. ويقول تعالى "وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ"[٤].

وهذا ما تشير إليه بوضوح كثير من أسفار العهد القديم، الكتاب المقدس لليهود. بل إن التزام التعاليم الإلهية هو أساس بقاء الاصطفاء الاكتسابي حتى في حق الأنبياء أنفسهم، إذ انهم بعد دخولهم دائرة الاصطفاء (الاختيار والتكليف) الإلهي للنبوة فإنهم يرتبطون بمواثيق ملزمة، يقول تعالى "وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ

---

١ – المائدة، ١٢و١٣

٢ – المائدة ١٨

٣ – المائدة ١٣

٤ – البقرة ٤٠

وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا"[1]. ويقول في حق نبينا محمد "وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاك لَقَدْ كِدْت تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إذًا لَأَذَقْنَاك ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَك عَلَيْنَا نَصِيرًا"[2]، ويقول " وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ"[3].

١ – الأحزاب ٧

٢ – الإسراء ٧٤، ٧٥

٣ – الحاقة ٤٤– ٤٧

مزاعم
الاصطفاء
العلوي

استدلالات الشيعة

يكمن التعريف الأقرب للتشيع والشيعة في المدلول السياسي، إذ يمكن القول إن الشيعة طائفة إسلامية تعتنق منظومة فكرية تقوم على أساس تفضيل وأحقية الصحابي علي بن أبي طالب بوراثة الولاية الروحية والسياسية عن النبي واستمرار هذه الوراثة في ذريته، مع موقف سلبي بدرجات متفاوتة -حسب الفرق داخل الشيعة- من الخلفاء السابقين عليه وتقييم أتباع النبي قديماً وحديثاً على أساس موقفهم من هذه الولاية.

ولإثبات صحة الموقف السياسي والديني الشيعي عمد علماؤهم إلى حشد استدلالات عقلية، ونقلية قرآنية وحديثية، وتاريخية بهدف تأييد توجههم.

وبالإمكان تقسيم الاستدلالات إلى عامة، وخاصة، وقبل الولوج في مناقشة أهمها نورد بعضاً من أثر منسوب للإمام جعفر الصادق فيه من الخرافة ما فيه من الفكاهة، لكنه مع ذلك يضع اليد على أسس الخرافة السلالية والمحرك المتواري والصامت غالباً للعقائد والشعائر الشيعية.

يقول الأثر الوارد في كتاب الكافي للكليني الذي يُعد المرجعية الحديثية الأولى لدى الشيعة الاثني عشرية الجعفرية، في باب خلق أبدان الأئمة وأرواحهم وقلوبهم "إن الله خلقنا -أي الأئمة- من نور عظمته، ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونة من تحت العرش، فأسكن ذلك النور فيه، فكنا نحن خلقاً وبشراً نورانيين، لم يجعل لأحد في مثل خلقنا منه نصيبا"[1].

١- الكليني في (الكافي) المجلد الأول صفحة (٣٨٩).

على ما في الأثر المفترى على الإمام جعفر الصادق من تخريف لا يستسيغه المجنون ناهيك عن أن يتقبله عاقل، لكن هذه هي طبيعة الأساطير الدينية والمقدسات، تفضل البقاء خارج نطاق العقل، رغماً من ذلك دعونا نخضعه للعقل الذي يعلي الشيعة من شأنه ونطرح السؤال التالي: لو سلمنا بالطبيعة المتميزة لمادة خلق الأئمة فكيف تم انتقال هذه المادة إلى الأئمة؟

بالتأكيد لا يقول الشيعة أو يعتقدون أن أئمتهم ليسوا من نسل آدم الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه، ومن ثم فوصول هذه المادة، ولنسمها النطفة النورانية، لن يكون إلا عبر آدم وحواء، وطالما الأمر كذلك فلا يخلو من واحد من الاحتمالات، فإما أن تكون هذه النطفة قابلة للانتشار، وبذلك سينال كل فرد في ذرية آدم منها نصيباً، فلا ميزة لأحد على أحد.

وإما تنتقل من فرد لفرد فقط، سواء كان ذكراً أو أنثى، فإذا جاز انتقالها للأنثى لضاعت هذه النطفة واستحال على أي أحد ادعاء أنه تكّون منها باعتبار أن أعمدة النسب تقوم على الذكورة على الأقل منذ تحولت المجتمعات البدائية إلى مجتمعات أبوية.

وإما أن تنتقل عبر الذكر الأكبر، وهنا يمكن أيضاً ضياعها لاحتمال الانقطاع، مثلاً إذا افترضنا وصولها للنبي الخاتم -الذي يؤكد القرآن على بشريته- فإن النطفة ستتوقف عند القاسم، وسيخرج البقية من فضيلتها بمن فيهم فاطمة الزهراء وأولادها، كما سيخرج قبلهم الإمام علي.

أما الاحتمال الأخير فهو أن هذه النطفة النورانية ستنتقل للذكر أو الأنثى حسب الاختيار الإلهي دون اشتراط أن يكون أحدهما الأكبر، وعلى هذا سنفترض أنها انتقلت من عبد المطلب لعبدالله ومنه إلى نبينا، وهذا

سيخرج علي بن أبي طالب من فضيلتها، ثم انتقلت من النبي إلى فاطمة، وهنا إما ستنتقل للحسن أو الحسين وإذا انتقلت لأحدهما خرج الأخر وذريته من فضيلتها ومن ميزة الإمامة تبعاً لذلك، مع الإشارة إلى أن الشيعة بفرقهم الرئيسية الثلاث، الاثني عشرية والإسماعيلية والزيدية، تتفق بينها على إمامة علي والحسن والحسين.

بعد هذا المدخل الطريف نناقش الأدلة الشيعية بعيدا عن الخرافات البالغة في انفصالها عن العقل، والمثيرة للدهشة والسخرية، وأيضا الشفقة:

الأدلة العامة:

أولاً: استحالة ترك الشارع لأمر في غاية الأهمية بحجم خلافة النبي دون معالجة: تندرج هذه الحجة في إطار الحجج العقلية، وهي صحيحة، لكن ليس بالتوجيه الذي يوجهه الشيعة بأنه عالجها بتخصيص علي بالخلافة، بل إن الشارع الحكيم عالجها بصورة أكثر كمالاً، وتسبق التصور الضيق للشيعة بمراحل طويلة، فقد وضع القرآن الكريم أسسا سياسية للحكم متوازنة وقادرة على استيعاب أرقى ما توصلت إليه البشرية من نظريات وتنظيمات سياسية، كونها عالجت شأن السياسة والحكم بكل أطرافها في الإطار الداخلي للدولة الإسلامية، تتوزع هذه الأسس في ثلاثة أركان:

- حق المحكوم؛ وهي في ذات الوقت واجب الحاكم: العدل، كما تبين آيات قرآنية كثيرة.

- حق الحاكم؛ وهي في ذات الوقت واجب المحكوم: الطاعة، مضافاً إليها النصيحة.

- طبيعة العلاقة بينهما: الشورى، مطلقاً بما في ذلك اختيار الحاكم "وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ"[1]، وفي إدارة شؤون الحكم "وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ"[2].

وفي إطار هذه المبادئ الثلاثة، وباعتبار السياسة شأناً دنيوياً في معظمه يخضع للمتغيرات، ترك الشارع التفصيلات للاجتهاد البشري فكون أمرهم شورى يعني استطاعتهم استيعاب العمليات الانتخابية المباشرة وغير المباشرة في الأزمنة الحديثة، بل وصيغ المعارضة المختلفة بتنظيماتها المتعددة، فالشورى بطبيعتها تستوعب تعدد الآراء وتنوعها.

"وشاورهم في الأمر" بإمكان هذا المبدأ التعاطي مع صيغ الاستفتاء، أو المجالس النيابية والاستشارية المعمول بها حديثاً.

ثانيا: الإمامة والنبوة

الإمامة هي محور الفكر الشيعي الذي تتركز عليه بقية المقولات وتدور حوله. وهي أيضا الإشكالية الأساسية لهذا الفكر لجهة إمكانية العثور بسهولة على المصادر غير الإسلامية لفكرة الإمامة المحورة من ديانات سابقة على الإسلام وتكييفها مع مصطلحات قرآنية، ولجهة هشاشة المستندات الداعمة للفكرة من القرآن الكريم وتوجيهها التعسفي ناحية المقولة الإمامية.

تتضمن الإمامة في الفكر الشيعي -على درجات متفاوتة لدى الفرق الشيعية- استمرارية الحضور والإشراف الإلهي المباشر على الشؤون الدينية والدنيوية للبشر عبر استمرارية الاتصال الإلهي وانتقاله من النبي

١- الشورى ٣٨

٢- آل عمران ١٥٩.

إلى الإمام، بمعنى أن التوجيهات الإلهية لم تنقطع مع انقطاع النبوة وختمها بل هي مستمرة عبر الإمام المعني الحصري بتفسير وترجمة الإرادة الإلهية الواردة في القرآن أو المستجدة في الحياة.

وتتركز محاولة أسلمة فكرة الإمامة وفق التصور الشيعي من خلال مستندات قرآنية أساسية مستقاة من ورود لفظة الإمامة، وقصص قرآني أهمه قصة الخضر وموسى، وبقدر أقل قصة مريم ورزقها في المحراب وقصة من عنده علم من الكتاب في حضرة سليمان وقصة الوحي لأم موسى، لنواحي إمكانية الوحي إلى غير النبي وجريان المعجزات على أيدي غير النبي وإمكانية أفضلية بعض البشر على أنبياء. ومحاور الاستدلال الشيعي في جميعها نفي النبوة عن الخضر ومن عنده علم من الكتاب ومريم وأم موسى والإصرار على الصبغة الإعجازية في تلك القصص، ودون تفريق بين درجات الوحي وصوره المختلفة. وفي أفضل حالات الاستدلال الشيعي فإنه في هذا الشأن يعتمد على تفسيرات ظنية لإثبات فكرة يقينية ومركزية تقوم عليها المذاهب الشيعية.

ونظرا لمحورية قصة الخضر في الاستنادات الشيعية فسنكتفي بالتطرق إليها أكثر من غيرها.

- مقام الإمامة:

يتناول الفكر الشيعي الإمامة كصورة من صور النبوة تساويها إن لم تكن تتفوق عليها في الفضل، ويعتبر أن مكانة إبراهيم المتميزة بين الأنبياء تتأتى في أحد معالمها من تفرده بالإمامة عن سائر الأنبياء، يقول تعالى "قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا"[1].

١- البقرة ١٢٤

وفي تفسير تعسفي للمحورية الدينية للإمامة يتعاطى هذا الفكر مع قوله تعالى "يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ"[١]،وقوله "وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ"[٢]، وفي الصدد يمكن إيراد عدة ملاحظات:

- العبارتان القرآنيتان الأخيرتان منزوعتان من سياقي آيتين، الأولى توضح أن الإمام المقصود هو كتاب الأعمال "يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ"[٣]. يؤيد ذلك أن لفظة إمام في القرآن كثيرا ما وردت بمعنى الكتاب، يقول تعالى "وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ"[٤]، ويقول "وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً"[٥].

أما الآية الثانية فسياقها يوضح بجلاء أنها تعني بالهاد الأنبياء، يقول تعالى "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ"[٦].

- الإمامة في القرآن يمكن أن تنطبق على أي شخص توافر فيه الصلاح الذي يؤهله لأن يكون قدوة لغيره، يقول تعالى "وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا"[٧].

- الإمام يمكن أن يكون نبيا، أو شخصا توافرت فيه مؤهلات القدوة، أو مرجعية منهجية غير مشخصة، ككتاب أو مبادئ، ومن ثم فلا تخصيص لها يخرجها إلى المستوى فوق البشري، أو حصرها في مجموعة جينية.

١- الإسراء ٧١
٢- الرعد ٧
٣- الإسراء ٧١
٤ - يس ١٢
٥- الأحقاف ١٢
٦- الرعد ٧
٧- الفرقان ١٤

وفي مقام الإمامة كذلك وإمكانية تفوقها على النبوة تأتي قصة الخضر وموسى. وإذا استبعدنا روايات تاريخية ترى أن موسى المقصود ليس موسى بني إسرائيل، فإن القرآن حسم مسألة الأفضلية لموسى بقوله تعالى "قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي"[1]، والخضر من الناس ولم يرقَ لمستوى الرسالة والكلام.

أما بخصوص نبوة الخضر فيمكن إيراد الملاحظات التالية:

- أن عبارة "عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا"[2]، تؤشر حسب الاستدلال الشيعي إلى عدم نبوة الخضر، لكنها بالقدر نفسه لا تعني عدم نبوته فهي لا تثبت ولا تنفي، ومع هذا تتعزز إمكانية دلالتها على النبوة من كون لفظة عبد ومشتقاتها وردت كثيرا في القرآن الكريم لتوصيف الأنبياء، يقول تعالى "وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ"[3]، ويقول "وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ"[4]،ويقول "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا"[5].

- لفظة "رحمة" في قوله تعالى "آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا"[6]، وردت في غير موضع قرآني مرادفة لمعنى النبوة، يقول تعالى في صالح عليه السلام "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً"[7].

- مما يدل على نبوة الخضر قوله تعالى "وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي"[8].

١- الأعراف ١٤٤
٢- الكهف ٦٥
٣- الصافات ١٧١
٤- ص ٤٥
٥- البقرة ٢٣
٦- الكهف ٦٥
٧- هود ٦٣
٨- الكهف ٨٢.

وهنا تندرج استنادات أخرى في وجهة الاستدلالات الشيعية ممثلة بقضية الوحي وإمكانية إتيانه النبي وغير النبي كما في قصة أم موسى. وبالخصوص يمكن إيراد الملاحظات التالية:

- ما المانع من كون أم موسى نبية من نبيات بني إسرائيل، فالنص القرآني تحدث عن الرسالات للرجال ولم ينف النبوة المجردة من الرسالة عن النساء.

- تتعدد صور الوحي الإلهي كما ورد في الآثار ما بين الرؤيا الصالحة واللقاء المباشر مع ملاك مرسل، وحتى الكلام الإلهي شبه المباشر. ويمكن أن يأتي الوحي في بعض مظاهره كحالة من الإلهام الإلهي التي يمكن أن تشمل البشر وغير البشر، يقول تعالى "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"[1]. ويكمن محل الإشكالية في مسألة الوحي الإلهي اليقيني المتضمن الخطاب الإلهي المبين للمراد الإلهي. وفي الصدد أفعال الخضر توحي بتبين المراد الإلهي يقينا من قبل الخضر بما في ذلك الأمر الإلهي بقتل الغلام.

إذن فعملية الاستناد على قصة الخضر باعتباره وليا لا نبيا عملية ظنية في أفضل حالاتها لا ترقى إلى حد اعتبارها قاعدة متينة لبناء مقولة الإمامة اليقينية في الفكر الشيعي.

العلم اللدني:

اختراع مقولة العلم اللدني لتبرير اصطفاء الأئمة للمعرفة اليقينية بمراد الله مسألة مرتبطة ومتفرعة عن مقولة استمرار الاتصال المباشر بين الله والإمام كفضيلة ربما تتفوق على علاقة الله بالأنبياء القائمة أساسا على وساطة الوحي في معظم الأحوال. ووجه الاستدلال الشيعي أن كلمة

١- النحل ٦٨

"لدُنَّا" تلغي الواسطة بين الله والخضر، وبالمثل بين الله والإمام مع أن هذه اللفظة وفق المصطلح القرآني لا تنفي الاتصال الإلهي البشري عبر واسطة، يقول تعالى في خطابه لنبينا عليه الصلاة والسلام "وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا"[1].ومعلوم أن الذكر أو القرآن جاء بواسطة الوحي عبر جبريل، ويقول تعالى "يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا"[2]. والرزق يأتي عبر وسائط "يجبى إليه".

وبالتالي فلا فضيلة زائدة معتبرة في مسمى العلم اللدني، وفي أفضل حالاته يمكن أن يندرج ضمن الإلهامات التي تحدث لأي إنسان كإلهام نيوتن عند سقوط التفاحة.

ثالثاً: يوم السقيفة

تصر المقولة الشيعية -بدرجات مختلفة الحدة- على أن ما حصل يوم سقيفة بني ساعدة بعد وفاة النبي ليس أكثر من مؤامرة لمصادرة حق علي في الخلافة، لاسيما من أبي بكر وعمر، وإلى حد ما أبي عبيدة بن الجراح، وأن ذلك سبب ما عانته الأمة لاحقاً.

وبالرجوع إلى حيثيات الروايات التاريخية -الظاهرة الفجوات- الخاصة بالحادثة يجد المرء الاتفاق الضمني بأن الاجتماع كان للأنصار لاختيار خليفة منهم -ولعلهم كانوا أحق- دون المهاجرين، فما كان من أبي بكر وعمر إلا تدارك الأمر وتم تمثيل المهاجرين في الاجتماع وحسم قضية الخلافة باختيار أبي بكر، ولولا هذا التدخل العاجل لحرم المهاجرون

١- طه ٩٩
٢- القصص ٥٧

منها بمن فيهم أبو بكر وعلي، ولكان الأغلب الانشقاق والاحتراب المبكر بين المسلمين ولربما كان المسلمون اليوم قلة قليلة لاحتمالات استنزاف الاقتتال الداخلي قوة المسلمين وقتها ونجاح عمليات الارتداد الشاملة معظم الجزيرة العربية التي لم يخرج الإسلام حينها عن نطاقها الجغرافي. ثم إذا كانت الخلافة حقاً دينياً لعلي بن أبي طالب، فهل يعقل أن يتوانى شخص بتقواه وشجاعته عن التهاون في أمر ديني محوري في حياة المجتمع المسلم.

ولو سايرنا المنطق القائل بخطأ نتائج السقيفة باستخلاف أبي بكر ومصادرة حق علي، لرأينا أن الحق عاد لنصابه بعد استشهاد عثمان بن عفان واختيار المسلمين لعلي، فما الذي قدمه علي للمجتمع الإسلامي أكثر مما قدمه سابقوه، بل على العكس لم تتسع رقعة الإسلام في عهده شبراً واحداً، وغرقت الجماعة الإسلامية في حروب أهلية، ولم تظهر منه قدرات قيادية كقدرات أبي بكر في مواجهة الردة، أو قدرات عمر في تنظيم وتوسيع رقعة الإسلام وحفظ وحدة واستقرار الدولة والمجتمع الإسلاميين، غير ارتكابه أخطاء سياسية في نقل عاصمة الخلافة إلى الكوفة، وإفلات مصر من يديه بتغيير قيس بن سعد بمحمد بن أبي بكر، وانشقاق جماعته عنه. وبهذا تضيع الحكمة الإلهية -تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا- في النص على شخص وذريته، وهي الحكمة التي تحرص العقائد الشيعية على استخراجها من كل فعل إلهي. لا يعني ذلك الانتقاص من شخص علي، حاشا وكلا، فهو من أكابر الصحابة وقد زكاهم الله في قرآنه، وخص النبي علياً بالكثير من الفضائل التي تجعله من نخبة الصحابة، وإنما كل المقصود أنهم اجتهدوا في أمور دنيوية وأخطأوا، وهذا لا يؤثر في فضيلتهم الدينية.

رابعا: الفضائل

خص القرآن الكريم الصحابة بمن فيهم الإمام علي بالثناء، يقول تعالى "والَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"[1].

ويقول "وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ"[2].

ويقول عز وجل "لقد رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا"[3]، الكثير من الصحابة مشمولون بهذه الآيات بمن فيهم علي فهو من المهاجرين، والمجاهدين، والمبايعين تحت الشجرة.

وتتركز الحجج الشيعة بهذا الخصوص في مسارين الأول يضخم ويعلي ويختلق ما يتعلق بعلي، والثاني ينتقص ويضيف على ما يتصل بالصحابة، ابتداء من انتقاد التعريف السني للصحابي - وهو قابل للنقد على أية حال- والقول بإمكانية تنزيل آيات خاصة بالمنافقين والأعراب على الصحابة، وأخرى تنتقد بعض السلوكيات متغافلين عن النهج التربوي للقرآن أكان ذلك للنبي أو أصحابه أو الأمة عموما. وليس هنا مقام تناول حجج الانتقاص الشيعية من صحابة النبي.

---

١ - الأنفال ٧٤

٢- التوبة ١٠٠

٣ - الفتح ١٨

تستند الحجج الشيعية على أن علياً جمع من الفضائل ما تفرق في غيره -وهنا الأمر نسبي- نتطرق لأهمها:

- **السبق للإسلام:**

الإمام علي من أوائل من دخل الإسلام وقيل إنه بين أول ثلاثة إلى جانب السيدة خديجة وزيد بن حارثة. وفي الصدد تكاد الروايات تجمع، أو أجمعت بالفعل على أن علياً أسلم وهو صبي، غالباً دون العاشرة، ومع الإشارة إلى أنه تربى في كنف النبي، فإن إسلامه كان أمر طبيعياً، ولو من باب تقليد الصغير لوالده أو من هو في حكم والده، ولعل الفضيلة الأكبر هي لمن يغير دينه في سنوات النضج كأبي بكر وعثمان. ولم يسجل التاريخ المكي للإسلام، الأغلب في عمر الدعوة لعلي ما سجله لآخرين من فضائل كما هو حال أبي بكر ومساندته المتميزة للدعوة والنبي كمساهمته في إسلام العديد من كبار الصحابة، وبذله أمواله، وانتشاله مسلمين مستضعفين من عذاب المشركين.

قد يكون سن علي السبب في عدم لمعان نجمه في المرحلة المكية إلى وقت الهجرة، مع ملاحظة أن الفكر الشيعي يتحدث عن قوى فوق بشرية للأئمة ترتبط بمادة التكوين بصرف النظر عن السن، ولو استبعدنا الخوارق المفترضة فالسن لا ينفي عن الآخرين تفوقهم خلال الفترة المكية. وفي موضوع نوم علي في فراش النبي عشية الهجرة إلى المدينة يبالغ الشيعة في جعلها فضيلة لا تبزها فضيلة، وهذا ينافيه سياق الروايات في جزئية على الأقل تؤكد أن بقاء علي في فراش النبي لا يشكل أي خطر على الأول، فلم يكن في نية المشركين اقتحام المنزل - فهذا ليس من شيم

العرب - إنما حاصروا المنزل ليقتلوا النبي لدى خروجه منه، والنبي كان هدفهم لا غيره بدليل المحاورة التي حدثت بين علي والمشركين المكلفين بقتل النبي أثناء خروجه بعد مغادرة النبي.

- **الهجرة:**

يشمل الثناء على المهاجرين علياً، كما يشمل غيره، بل إن أبا بكر الصديق يتفوق في فضيلة مصاحبة النبي في هذه اللحظة الفارقة من الحياة الإسلامية، وتميز بفضيلة الإشارة القرآنية لمحاورته النبي في الغار. يجدر التنويه هنا إلى أن بعض الشيعة حاولوا التقليل أو نفي فضيلة مصاحبة أبي بكر النبي في الهجرة، وبعضهم من المحدَثين حاول نفي أن من كان مع النبي في الغار هو أبو بكر، كما نفوا أن تكون التبرئة في حادثة الإفك للسيدة عائشة، مع أن أقدم المؤرخين المحسوبين على الشيعة كاليعقوبي ذكر أن صاحب النبي في الهجرة كان أبا بكر.

- **العلم:**

استند الشيعة لأحاديث واهية أو ضعيفة وموضوعة -حسب مصطلحات أهل الحديث- جعلوا علياً خلالها أعلم الصحابة على الإطلاق كحديث "أنا مدينة العلم وعلي بابها". وحديث "علي مع القرآن والقرآن مع علي". وبعيداً عن الأحاديث الملفقة -سنناقش المسألة لاحقاً- فالروايات التاريخية المتواترة تتحدث عن علماء غير علي من الصحابة، وعن تفوق هذا أو ذاك على غيره في مجال من المجالات الدينية، كعائشة، وزيد بن ثابت، وعمر، وأبي بكر، وطبعاً علي معهم، بل لقد

وردت أحاديث صحيحة في دعاء النبي لعبدالله بن عباس بأن يعلمه الله الكتاب، والحكمة، ويفقهه في الدين.

- **الجهاد:**

بدأ الجهاد بمعنى قتال الكفرة في المرحلة المدنية، وخلالها برزت القدرة القتالية لعدد من الصحابة بينهم علي بن أبي طالب، وسجل التاريخ الإسلامي لعلي موقفين بطوليين أساسيين، أحدهما في موقعة الخندق أو الأحزاب، والثاني في خيبر، كما كان من الذين ثبتوا في موقعتي أحد وحنين. لكن ذلك لا يلغي بروز بطولات الآخرين كالحمزة بن عبد المطلب في بدر، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله في أحد، وأبي دجانة. وكونه شارك النبي في كل غزواته باستثناء تبوك، فهو بذلك مثل كثير من الصحابة شاركوا الرسول في كل غزواته، بما فيها تبوك التي أنزل الله في المشاركين فيها نصوصا قرآنية بل وتفوق عليه عدد كبير من الصحابة في ثلاث نقاط تتعلق بالجهاد القتالي، أولاها أن بينهم من جاهد بنفسه وبماله فيما الأغلب الأعم في علي أن جهاده كان بنفسه فقط لما اشتهر به من فقر الحال، وثانيها أن غيره من الصحابة كما شاركوا النبي في كل غزواته، فقد قاتلوا كذلك من خلال السرايا والجيوش التي ابتعثها النبي، وثالثها أن التاريخ الإسلامي يكاد لا يحفظ لعلي أي دور في حروب الردة وحركة الفتوحات الإسلامية بعد وفاة النبي، وإنما كان نجمها الجهادي اللامع سيف الله خالد بن الوليد. ولا يحتج قائل بأن عزوف علي كان بسبب اغتصاب حقه في الخلافة، إذ علي أسمى من أن يتوانى عن خدمة الدين إذا لم يكن هو صاحب الموقع السياسي الأول كما فعل في أداء دور

استشاري وقضائي خصوصا في عهد عمر. ولو كان التميز في حصد الأعداء قتلا فضيلة ما بعدها فضيلة فكم قتل النبي بيده؟

ـ مصاهرته النبي وعدم التأمير عليه:

أما المصاهرة والقرابة، فقد سبق الإيضاح بالمعايير القرآنية في الاصطفاء والتفضيل، وإذا كان لها مزية دينية فقد تزوج عثمان بن عفان اثنتين من بنات النبي، وننبه هنا إلى أن بعض الشيعة ينكرون أن يكون للنبي بنات من صلبه غير فاطمة الزهراء، وذلك لأن مذهبهم يقوم أساساً على القرابة، وابتغاء خلع عثمان من فضيلة مصاهرة النبي –حسب معتقدهم– فقد قالوا إن أم كلثوم ورُقيّة وزينب كن بنات خديجة من زواجها السابق على زواج النبي، وهذا يخالف ما أورده المؤرخون –الذين يعول الشيعة كثيراً عليهم في استدلالاتهم– بمن فيهم مؤرخون محسوبون على الشيعة وأبرزهم اليعقوبي، والأهم أن ذلك يخالف قوله تعالى "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ"[1]. ولو لم تكن بناته لقال ربائبك أو لاكتفى بعبارتي أزواجك ونساء المؤمنين فتدخل الربائب في مضمون نساء المؤمنين.

أما أن النبي لم يؤمّر على الإمام علي أحداً، فلأنه كان بمثابة ابنه وبالتالي أحد مديري شؤونه الخاصة، كما ظهر من قصة الهجرة واعتماده على الإمام علي في رد الأمانات عنه. كما أن الأمر ذاته ينطبق على زيد بن حارثة وهو الصحابي الوحيد الذي شرفه الله بذكر اسمه في القرآن، فلم

١– الأحزاب ٥٩

يؤمر النبي أحداً على زيد بن حارثة الذي كان بمثابة ولده أيضاً وهو مولى، بل إن النبي ولى زيداً إمرة جيش مؤتة على صحابة كبار بينهم ابن عم النبي وأخوه في الرضاعة جعفر بن أبي طالب. غير ذلك في حج السنة التاسعة أرسل النبي علياً بسورة التوبة وحج تحت إمرة أبي بكر. كما لا يوجد ما ينفي أن علياً كان ضمن جيش إسامة.

ـ الاختصاص بثناء النبي عليه:

بالمقابل ثبت ورود أحاديث خاصة بكثير من الصحابة. وجملة القول مما سبق من احتجاجات باجتماع فضائل في علي تفرقت في غيره، أن الأمر نسبي بين الصحابة رضوان الله عنهم، فما اختص هذا به، اختص بغيره آخر، وما تفوق هذا فيه تفوق ذلك في غيره، فكان مجتمعاً استطاعت القيادة الفذة للنبي أن تحول الفروق إلى حالة تكامل تصب بمجموعها في خدمة الدين الإسلامي.

الأدلة الخاصة

من المناسب قبل الولوج في أهم الاستدلالات الخاصة التنويه إلى أن كل الفرق الإسلامية تعتمد في استدلالاتها النقلية في قضاياها على ثلاثة مستويات:

أولها: القرآن الكريم: ونصوصه إما أن تكون قطعية الدلالة بذاتها وهذه مما لا يحتمل الاختلاف، وأما أن تكون ظنية الدلالة. وهذه تحتمل الاختلاف وتحتاج لمساندة خارجية تقوي وجهة الاستدلال، قد تكون هذه

المساندة نقلية أو عقلية. ويعتمد مدى قبول ترجيح استدلال وجهة على أخرى في النص القرآني ظني الدلالة على قوة الدليل المساند في إفادته العلم اليقيني أو العلم الظني.

ثانيها: الحديث النبوي: كل الفرق الإسلامية -عدا قلة قديمة مندثرة وحداثيين- يحتجون بالأحاديث النبوية لكن تفاوتت عناية كل فرقة بالحديث النبوي، وبرز من الوسط السني -مجازاً- من عرفوا بأهل الحديث، وهؤلاء أفرغوا جهدهم في العناية بالحديث حتى صيروه علماً قائماً بذاته من بين العلوم الإسلامية، فعنوا بدراسة الأحاديث لمعرفة درجة صدقية نسبتها للنبي وبالتالي صلاحية الاحتجاج بها، وفي هذا الشأن اهتموا بجرح وتعديل رواة الحديث، والتراجم، وتقسيمات الحديث من حيث مدى صحته وإفادته ليقينية أو ظنية نسبته إلى النبي، وبذلك يكونون هم أصحاب المهنة، ومن المنطقي والمعقول أن يكون رأيهم في حديث ما مقدما على غيرهم. خصوصاً وأن كل طائفة لما لم تجد في القرآن ما يؤيد قضاياها لجأت لاختلاق أحاديث نبوية، كما لا تبدو الوجهات السياسية - أساس افتراق المسلمين - ذات تأثير في إيراد الأحاديث في مدوناتهم مقارنة بغيرهم ممن يظهر التعصب واضحاً جلياً في بعض ما نقلوا من أحاديث، وفي جل الأحاديث ذات المسحة السياسية.

ثالثها: كتب السيرة والتاريخ: وهذه تكاد تكون ذات قيمة شديدة الانخفاض كاستدلالات لو أخضعت للدراسة النقدية الفاحصة، أو لو طبقت عليها القواعد النقدية للحديث النبوي.

ومن الملفت في هذا الصدد أن الشيعة يضعون ضمن قائمة استدلالاتهم الخاصة أحاديث منسوبة للنبي وردت في كتب التاريخ الحديث.

وسيتم التركيز تالياً على الاستدلالات الخاصة للشيعة، ذات الأهمية والتي وردت في كتب أهل الحديث متجنبين استدلالات أحاديث كتب التاريخ أو الأحاديث التي اختلقوها ودونوها في كتبهم، فأهل فن الحديث أولى من غيرهم طالما سندخل ميدان الفضائل والاصطفاء استناداً للأحاديث النبوية.

ومرة أخرى يمكن تقسيم الاستدلالات الخاصة إلى طائفتين أدلة عامة بأهل بيت النبي، وأدلة مخصوصة بالإمام علي:

ـ أدلة عامة بأهل البيت:

يكون ملائماً هنا، كذلك، محاولة فهم بعض الألفاظ القرآنية في ضوء القرآن نفسه كمدخل ضروري يساعد على تفكيك التباسات ذات صلة بهذا النوع من الأدلة. وسنتناول لفظين أساسيين هما آل، وأهل. وعلاقتهما بالذرية:

– **آل:** لغوياً تعني آل الرجل أهله وعياله، وأتباعه وأنصاره. باستعراض آيات قرآنية يتكشف المقصود القرآني باللفظة.

يقول تعالى: "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ"[١].

"وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ"[٢].

"وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ"[٣].

"وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ"[١].

١- البقرة ٤٩، الأعراف ١٤١

٢- الأعراف ١٣٠

٣- غافر ٢٨

"أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ"[2].

"فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً"[3].

"يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ"[4].

يلاحظ في الآيات السابقة أن لفظة آل تشمل المعنى اللغوي من أهل، وأتباع، أي إمكانية اشتمالها على القرابة العضوية. بيد أن من غير الممكن إسقاط جميع الآيات الواردة فيها لفظة آل، على معنى الأهل بعكس إمكانية إسقاطها في الجميع على معنى الأتباع، أي أتباع النهج والطريقة. فمن الواضح أن آل فرعون ليس المقصود بهم أهله وذريته، بل أتباعه، إذ أن من أتباع فرعون ظاهراً من يكتم إيمانه، فهل يدخل هذا المؤمن ضمن "أدخلوا آل فرعون أشد العذاب". وأيضاً هل يدخل المؤمنون من ذرية فرعون في آية العذاب، ومن الملفت كذلك أن أغلب الآيات المتضمنة لفظة "آل" تشير إلى وحدة الزمان بين الأتباع والمتبوع أو المعاصرة، بمعنى أن آل فرعون هم أتباع فرعون وقت حياته، قال تعالى "وأغرقنا آل فرعون". و"أخرجوا آل لوط".

وفي الآية المتعلقة بإبراهيم "آتينا آل إبراهيم" إشارة لخصوصية بني إسرائيل لجهة تماهي الأتباع مع القرابة العضوية، فبنو إسرائيل هم أتباع إبراهيم ويعقوب، وهم ذات الوقت من ذريتهما. وهذا ما تؤيده الحركة التاريخية للدين اليهودي إذ كان بنو إسرائيل هم الأغلبية الساحقة من معتنقي ذلك الدين الذي لم يكن ديناً عالمياً أو تبشيرياً وإنما كان ديناً قومياً.

١- غافر ٤٦

٢- النمل ٥٦

٣ - النساء ٥٤

٤- مريم ٦

وتنضبط الآية أكثر في مدلولها لو حملت على مفهوم الأتباع لا الذرية سيما في الإشارة إلى الملك العظيم، إذ لو أخذنا بمفهوم الذرية فلم يتسن لبني إسرائيل ملك عظيم إلا لسليمان، حتى ملكه رغم مكوناته الخارقة للعادة من تسخير للريح والجن إلا أنه من حيث رقعة مملكته أرضاً وشعباً لم يتجاوز بعض فلسطين المعروفة الآن ولم يتعد الشعب اليهودي.

فيما لو أخذنا الإشارة بمفهوم الأتباع لانضبط المدلول كون الدين اليهودي والمسيحي والإسلامي هي امتدادات لدين إبراهيم، وواقعياً حققت الدولة الرومانية المسيحية واحدة من أعظم الامبراطوريات في التاريخ وأطولها مدة وكذلك الدولة الإسلامية بعد وفاة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، والدول المسيحية في عصور مختلفة.

يؤيد أن مفهوم الأديان السماوية امتداد للدين الإبراهيمي قوله تعالى: "وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ"[1]، وقوله "وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"[2]، وقوله تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"[3]، وقوله "إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ"[4]، وقوله "قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"[5]، وقوله "ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"[6]، وقوله "مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ"[7]، ومن الواضح أن أن الأبوة في هذه الآية هي أبوة دينية كون الخطاب موجها للمسلمين

١- البقرة ١٣٠
٢ - البقرة ١٣٥
٣ - النساء ١٢٥
٤ - آل عمران ٦٨
٥- الأنعام ١٦١
٦ - النحل ١٢٣
٧- الحج ٧٨

بصرف النظر عن أعراقهم. ويؤكد ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم "فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي"[١]. وأبوة إبراهيم كأمومة نساء النبي محمد للمؤمنين "وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ"[٢]. فالأمومة هنا دينية وليست جينية.

إذن فالأصل في لفظة "آل" الأتباع[٣]، مع إمكانية أن يدخل في اللفظة ذوو القرابة العضوية شريطة توفر الإتباع.

وأخيراً يلاحظ في لفظة آل أنها لا تسند لغير العاقل حسب ورودها القرآني، وعليه لا يصح أن يقال "آل البيت" أو "آل القرية".

- **أهل**: أتت في القرآن الكريم، حال إسنادها للعاقل، معبرة عن القرابة العضوية، يقول تعالى "وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ"[٤]، في النفي، نفي لتأثير القرابة العضوية مع عدم الاتبّاع، وليس نفيا للقرابة ذاتها. ويقول تعالى: "فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ"[٥]. ويقول "فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَه"[٦]، ويقول: "اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْه أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ"[٧]، ويقول "وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي"[٨]. مما سبق يتبين بأن لفظة "آل" أوسع دلالة من لفظة "أهل" التي تختص بالقرابة العضوية، والأولى بالإمكان أن تشمل الثانية إلا أن معناها

---

١ - إبراهيم ٣٦

٢- الأحزاب ٦

٣ - وفي هذا يقول نشوان بن سعيد الحميري وهو حجة في اللغة والتفسير:
آل النبي همُ أتباع ملته.. من الأعاجم والسودان والعربِ
لو لم يكن آله إلا قرابته.. صلى المصلي على الطاغي أبي لهبِ

٤- هود ٤٥، ٤٦

٥- هود ٨١

٦ - الأعراف ٨٣، النمل ٥٧

٧ - يوسف ٩٣

٨ - طه ٢٩، ٣٠

الأصلي هو الأتباع. عقب هذا المدخل نستعرض أهم الأدلة العامة بأهل البيت:

* **آية التطهير**: المقصود قوله تعالى "إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا"[1]. والعبارة هي جزء من آية لا آية كاملة ويستند عليها الشيعة في إثبات خصوصية قرابية عضوية فيها منحة تفضيلية إلهية. وبشأنها يمكن إيراد الملاحظات التالية:

- الآية كاملة والآيات قبلها وبعدها تشير بوضوح إلى نساء النبي.

- مما تدل عليه لفظة أهل في القرآن، الزوجة، يقول تعالى في بشارة الولد "وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَي أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ"[2].

- الاحتجاج الشيعي بنون النسوة، فإذا كان المقصود نساء النبي فقط لقال ليذهب عنكن الرجس أهل البيت ويطهركن، وعلى هذا فمن المقصود إلى جانب زوجة إبراهيم في الآية الأخيرة؟ فقد وردت بصيغة الجمع بالميم.

إضافة إلى أن هناك من قال استخدمت الميم بدلاً من نون النسوة لدخول النبي الأكرم وإبراهيم عليهما السلام في التطهير والمباركة، فإن آيات أخرى استخدمت الميم، صيغة الجمع في حق الزوجة، منها قوله تعالى في إحدى قصص موسى "إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا

١- الأحزاب ٣٣

٢- هود ٧١-٧٣

لَعَلِّي آَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ"[1]، ويدلل أكثر على أن المقصود زوجة موسى قوله تعالى "فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ"[2]. وفي الأغلب أن المقصود زوجته إذ لم يرد في القرآن أو الحديث الصحيح ما يشير إلى وجود رسل من بني إسرائيل تنتسب لموسى عدا ما أشارت إليه التوراة من وجود ولد لموسى، لكن المعلوم أن التوراة دونِّت بعد موسى بقرون أقلها خمسة قرون.

- التطهير لنساء النبي فضيلة، لكنها يمكن أن تسري على مؤمنين آخرين كما يقول تعالى "مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ"[3]، سياق الآية يتحدث عن طهارة حسية لكن عبارة "وليتم نعمته" إشارة إلى أن الأوامر ليست فقط للطهارة الحسية وكذا قوله تعالى "إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ"[4].

* **الكساء**: إدخال غير نساء النبي، وتحديداً علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم في آية التطهير يستند بالأساس لدليل خارجي من حديث يُعرف بحديث الكساء، وفيه أنه عندما نزلت آية التطهير دعا النبي عليا وفاطمة والحسن والحسين فمد عليهم كساءً وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وتلا الآية. والمشهور أن راوي الحديث السيدة أم سلمة زوج النبي، والرواية عنها

١- طه ١٠
٢ - القصص ٢٩
٣ - المائدة ٦
٤- الأنفال ١١

موجودة في كتب الشيعة كالكافي للكليني، والأمالي للطوسي. وبالخصوص يمكن إيراد الملاحظات التالية بشأن الحديث:

- الحديث ورد بروايات مختلفة وأكثر طرقه ضعيفة إلا ما جاء في صحيح مسلم عن السيدة عائشة.

- من سياق الحديث أن ما فعله النبي يأتي في إطار يقينه أن الآية نزلت في أزواجه، ورغبته في دخول الأربعة في مدلول الآية، ولو كانوا داخلين في الآية ابتداءً لما احتاج النبي لفعل ما فعل، وكأن الحادثة على سبيل دعاء النبي بأن يندرج الأربعة في مدلول الآية. وسنتجنب هنا نقاش اعتقادات الشيعة في الاستدلال على عصمة أئمتهم من هذه الآية، وكذا حصرها بناء على الحديث في من عرفوا بأهل الكساء، النبي، علي، فاطمة، الحسن، الحسين، وإخراج نساء النبي منها، باعتبار أن الآية ابتداء واضحة في من المقصود بها.

* **آية المودة لذوي القربى**: وهي قوله تعالى **"قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى"**[1]، وهذه أيضاً جزء من آية. ويعتبرها الشيعة دليلاً على وجوب المودة في قرابة النبي ويقيّمون مدى الالتزام الديني بمدى حب قرابة النبي، بمن فيهم الذرية الهاشمية. وبالخصوص يمكن إيراد بعض الملاحظات:

- السورة ومن بينها الآية مكية، كما في الروايات، وما تتضمنه من خصائص العهد القرآني المكي، وبالتالي فالمحاورة بائنة في كونها موجهة على لسان النبي لغير مسلمين، ولذلك فمن غير المعقول أن يطلب منهم وهو في الأصل محل لأذيتهم أن يودوا قرابته، يؤيد ذلك ما أورده مفسرون من أن المعنى: لا أسألكم مقابلاً غير أن تراعوا قرابتي منكم وتخلوا بيني

---

١ - الشورى ٢٣

وبين الدعوة، وهذا المعنى هو ما تؤيده الأحاديث الصحيحة، ولا يعقل كذلك أن يسأل النبي قريشا مودة قرابته فيما أكثر هذه القرابة على الكفر في العهد المكي.

- مودة المشركين لقرابة النبي قائمة بالأساس، ومعيارهم في ذلك كون قريب النبي متبعاً له أم لا فيكون المقصود قرابته هو منهم.

- ما تطرق له القرآن من توصيات بقرابات عضوية استخدم لفظ "ذي" وليس "في" يقول تعالى "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى"[1]، ويقول "وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى"[2]، ويقول "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى"[3]، ويقول "وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ"[4].

- الأصل في الرسالات السماوية والنبوات أنها لا تبحث عن أجر دنيوي، يقول تعالى على لسان أنبياء بمن فيهم نبينا "وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"[5]، ويقول "قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا"[6]، ويقول "لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي"[7]. ويحث القرآن النبي على الاقتداء بسلوكيات الأنبياء السابقين بما في ذلك عدم طلب الأجر والمكافأة الدنيوية، يقول تعالى "أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ"[8].

١- النساء ٣٦

٢ - الأنفال ٤١

٣ - النحل ٩٠

٤- الإسراء ٢٦

٥- الشعراء ١٠٩

٦- الفرقان ٥٧

٧- هود ٥١

٨- الأنعام ٩٠

- المودة في الأصل سلوك إيجابي بين إنسان وآخر، ولو افترضنا أن الآية تنحو جهة التفسير الشيعي، فهي لا تمنح ميزة ذات طابع استثنائي، كون تعاليم الإسلام جملة تؤكد على السلوك الإيجابي الودي سواء داخل الإطار الإسلامي أو بينه وبين الإطارات الأخرى ما التزمت عدم العداء، يقول تعالى "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً"[1]، ويقول "وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى"[2]. ويقول بمعنى أكثر شمولا لناحية طبيعة العلاقة "عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"[3].

- على أي أساس يتم تحديد قرابة النبي المشمولين بالآية -إذا سلمنا بالمعتقد الشيعي- فالكثير من بيوت قريش ومن غيرها له قرابة عضوية بالنبي سواء أكانوا من جهة أبيه أو من جهة أمه، أو من جهة المصاهرة. أم تتحدد من خلال من قيل إن الصدقة حرمت عليهم، وهؤلاء فيهم عديد أقوال أقلها يحصرهم ببني هاشم فقط، وأوسعها لناحية القرابة العضوية يصلون إلى غالب، فيدخل بينهم بنو أمية. أم هم من أعطوا من الخمس فوردت روايات أنهم بنو هاشم وبنو المطلب إضافة لزوجات النبي، وتخصيص بني المطلب دون بني نوفل وبني عبد شمس ومنهم بنو أمية مع أنهم بنفس درجة القرابة يشير إلى أن القرابة ليست العامل الحاسم في الأمر، وبالرجوع للتاريخ النبوي نجد أن مزية إدخال بني المطلب في الخمس

١- الروم ٢١

٢- المائدة ٨٢

٣- الممتحنة ٧، ٨

كان نتيجة مشاركتهم النضالية في العهد المكي رغم أن كثيرا منهم ومن بني هاشم لم يكونوا مسلمين.

وفي كل الأحوال يقع الشيعة في تناقضات المودة في موقفهم من السيدة عائشة رضي الله عنها زوجة النبي وأحب نسائه إليه.

* **آية المباهلة:** وهي قوله تعالى **"فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ"**[1]. وورد حديث صحيح يوجه المقصود بالآية مفاده محاورة نصارى نجران للنبي وإصرارهم على المسحة الإلهية للمسيح، فأتى النبي بعلي وفاطمة والحسن والحسين، وفسر الشيعة النساء بفاطمة والأبناء بالحسن والحسين، والنفس بعلي بن أبي طالب ليدللوا بذلك على ما يوحي بالمساواة المطلقة بين النبي وعلي. وفي الصدد يمكن إيراد عدد من الملاحظات:

- الحادثة حسب ما تؤكد الروايات وقعت في السنة العاشرة للهجرة وحينها كانت كل بنات النبي عدا فاطمة قد توفين، وبعض الروايات تشير إلى أنها وقعت في السنة الثانية للهجرة، أي قبل مولد الحسن والحسين.

- المباهلة عادة تكون بالأقرباء.

- علي كان بمثابة ابن للنبي، والقول بأنه نفس النبي هو اجتهاد غريب من بعض المفسرين.

- لفظة أنفسكم لا تقتضي المساواة وفقاً لما ورد في القرآن الكريم يقول تعالى **"لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ"**[2]، ويقول **"لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى**

١- آل عمران ٦١

٢- التوبة ١٢٨

الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ"[1]، ويقول "خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا"[2]. في الآيتين الأوليين، لا يقتضي كون الرسول من نفس (أنفُس) المؤمنين المساواة في الفضل والاصطفاء بينه وبينهم، وفي الآية الأخيرة افتراق في الجنس رغم أن المرأة من نفس الرجل، هذا إذا سلمنا بتفسير مفسرين بأن نفس النبي الواردة في آية المباهلة المقصود بها علي.

* **حديث الثقلين**: قوله عليه الصلاة والسلام "وإني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به...، وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي". والحديث بهذا اللفظ هو الصحيح مما ورد في هذا الباب، ويأخذ الشيعة بألفاظ أخرى غير صحيحة عند أهل الحديث ويفسرونها بالحث على أن هدى الأمة وتجنب ضلالها مرتبط بالتمسك بكتاب الله عبر اتباع أهل بيت النبي الذين يحصرونهم بذرية علي من فاطمة. ويمكن إيراد الملاحظات الآتية:

- الحديث تضمن التمسك بكتاب الله وفي هذا السياق البديهي الكثير من الآيات القرآنية المؤيدة، أما أهل البيت فلفظ الحديث واضح في التوصية بهم، على سبيل الأمثلة، من باب اعتبار أزواجه أمهات لهم، وعدم الإساءة كما حصل في حادثة الإفك، وليس في سياق الحديث ما له صلة بالتدين عبر اتباع تفسيراتهم، كأن يقول "ما إن تمسكتم بهما"، كما في روايات محرفة.

- أهل البيت حسب اللفظ القرآني المقصود بهم أزواج النبي.

١- آل عمران ١٦٤

٢- الروم ٢١

أدلة مخصوصة بعلي بن أبي طالب

سنكتفي بما يصب في هدف هذه المادة، لما فيها من اشتباه حوّله الفكر الشيعي إلى مسلمات مقدسة تنسحب على الولاية السياسية، وتتضمن المسألة موضوعي المنزلة، والولاية:

* المنزلة: المقصود بها ما عرف بحديث المنزلة وهو قوله عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب عندما أمره بالبقاء في المدينة، والتخلف عن غزوة تبوك ولفظه الصحيح والكامل حسب البخاري "أن رسول الله خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء، قال ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى"، وزيادة عند مسلم "إلا أنه لا نبي بعدي". يستدل الشيعة بالحديث على ولاية الإمام علي واستحقاقه ما ورد في القرآن في حق هارون. وننوه إلى أن الشيعة يعتقدون بورود الحديث في عدة مناسبات مستندين إلى روايات خاصة بهم. ويمكن مناقشة الحديث في النقاط التالية:

- الشركة في تبليغ الرسالة: التبليغ واجب كل مؤمن ومسلم وقد شارك في العملية الدعوية كثير من الصحابة، يقول تعالى "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي"[1]، ويقول "وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ"[2]. ويقول: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا"[3]، ولا يكون ذلك إلا بمسؤولية الدعوة وإلا فكل نفس رهينة بما اكتسبت من عمل، ومن جملة الاقتداء بالرسول الدعوة وتبليغ الدين، كما يدخل في ذلك الآيات الحاثة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما

١- يوسف ١٠٨

٢- آل عمران ١٠٤

٣- التحريم ٦

شراكة هارون فكانت بالنبوة وكذلك فالحديث حسم الأمر بالإشارة إلى "لا نبي بعدي" وبالتالي فلا يشارك علي النبي بأي جزء من فضيلة النبوة إلا مسؤولية البلاغ عبر الدعوة مثله في ذلك مثل غيره من المسلمين.

- الخلافة: الخلافة في قصة هارون أو علي هي خلافة مؤقتة، وتكون دليلاً على من يقول إن الخلافة والولاية بتوجيه إلهي، ففي استخلاف موسى لهارون ما يؤكد على أنها مؤقتة وليست دائمة، ولو كانت دائمة لكان ذلك طعن في علم الله -تعالى الله عن ذلك- بمعنى أنه لو كان استخلاف موسى لهارون بأمر إلهي -كما يقول الشيعة في حق علي- وأن المقصود به الخلافة الدائمة لما مات هارون قبل موسى.

- الوزارة: كانت غزوة تبوك بداية النصف الثاني من العام التاسع الهجري، أي قبل وفاة النبي بأقل من عامين وبعد قيادته المجتمع الإسلامي في المدينة لأكثر من ثمانية أعوام، ولو كان المقصود النبوي الوزارة بمعناها السياسي أو الديني لما ترك النبي هذا الموقع شاغراً وهو القائد الفذ طيلة أزيد من ثمانية أعوام. كما لم تفد الروايات سواء قبل تبوك أو بعدها أن الإمام علي كان من كبار مستشاري النبي، ولم تسجل السيرة النبوية إشارة علي للنبي أو طرحه رأياً ما عدا ما يفهم من اعتراضه فيما يخص كتابة وثيقة صلح الحديبية، وأيضاً لم يشتهر تكليف النبي للإمام علي بمهام استثنائية خلاف غيره من الصحابة. قد يرد هنا الاحتجاج بإرسال سورة التوبة مع علي إلى أبي بكر في حجة السنة التاسعة للهجرة. وهذا أمر طبيعي لأن كبار الصحابة كانوا في بعثة الحج، وفي مناسبات أخرى أرسل النبي عددا من الصحابة بالقرآن لدعوة القبائل وتعليمها، كمصعب بن عمير، ومعاذ بن جبل.

- استخلاف النبي لعلي كان استخلافاً على الأهل كما يفيد سياق الحديث "أتخلفني في الصبيان والنساء". وكان الاستخلاف على المدينة ككل لمحمد بن مسلمة، فكان الاستخلاف خاصاً. إضافة إلى أن النبي كان دائماً ما يستخلف أحداً عندما يخرج من المدينة.

* **الولاية**: وتعد هذه عماد استدلالات الفكر الشيعي، ويجدر التنويه في البداية إلى أن الشيعة وليس المقصود هنا المتطرفين الذين يقولون بتحريف القرآن وإنقاصه بإسقاط الآيات الصريحة بولاية علي بن أبي طالب، وإنما الشيعة المعتدلون، فالأخيرون مقرّون بعدم وجود آية تصرح بذاتها بالولاية للإمام علي وأن ذلك لا يؤثر في المسألة قياساً على أن أهم الواجبات الدينية من صلاة وصيام وزكاة وحج أتت في القرآن مجملة وفصلتها السنة النبوية، وكذلك الأمر في ولاية الإمام علي من وجهة نظرهم، أشار القرآن إليها عموماً وأفصحت عنها السنة النبوية.

رداً على ذلك، فإن القياس هنا لا يستقيم بسبب أن تحديد الولاية بعلي لا يحتاج لتفاصيل ولن يستغرق الموضوع أكثر من كلمتين قرآنيتين، على خلاف الشعائر الدينية التي تتخللها كثير من التفاصيل بطبيعتها، وما المانع من التصريح باسم علي وقد أورد القرآن أسماء وكُنى أشخاص كالصحابي الجليل زيد بن حارثة.

كذلك الخلافة والولاية موضوع اجتماعي وسياسي غاية في الأهمية، وتحديدها يعني أنها ثابت حياتي للجماعة المسلمة لا متغير، والملاحظ أن القرآن الكريم عالج الموضوعات التي تتسم بالثبات معالجة تفصيلية في أغلب مكوناتها، كالتفصيلات الخاصة بالإرث، وبالمحرمات من النساء. ومن

غير المعقول أن يتحدث القرآن عن تفاصيل ثابتة تتعلق بالحياة الاجتماعية كآداب الاستئذان ويترك قضية اجتماعية بحجم الخلافة والولاية السياسية.

الحاصل أن القرآن عالج شأن الحكم السياسي كمتغير خاضع لظروف الزمان والمكان في إطار وضع أسسه المبدئية من حق الحاكم، وحق المحكوم، وطبيعة العلاقة، كما تمت الإشارة من قبل.

وننتقل الآن إلى أدلة الموروث الشيعي الرئيسية بشأن ولاية علي، وهي أدلة تدور حول ما عُرف بحادثة غدير خم.

حديث الولاية: وهو محور الاستدلالات والمقصود قوله عليه الصلاة والسلام "من كنت مولاه فعلي مولاه"، وفيه زيادات "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" وزيادة أخرى "وأنصر من نصره وأخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار".

وبالخصوص يمكن إيراد الملاحظات التالية:

- الحديث الوارد في صحيح مسلم بغدير خم هو حديث الثقلين، وزيادة "من كنت مولاه فعلي مولاه" عند مجموعة من المحدثين أهمهم أحمد والترمذي والنسائي، وعدم ورود الحديث في البخاري أو مسلم رغم أهميتهما وتحريهما أكثر من غيرهما في نقل الحديث لا يعني بالضرورة عدم صحته وفي ذات الحين يؤثر في مدى قوته، وعبارة "من كنت مولاه فعلي مولاه" صححها أحمد والترمذي، وزيادة "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه"، اختلف في صحتها فمن المحدثين من صححها، ومنهم من ضعفها مع عبارة "من كنت مولاه فعلي مولاه" أما زيادة "انصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار" فقد صنفوها من بين المختلق والمكذوب على النبي. هذا من حيث درجة صحة الحديث.

- يكتنف التناول الشيعي للحديث بعد يقينهم بصحته بل وتواتره عدة نقاط:

أحدها أنه قيل في غدير خم بين مكة والمدينة، في الثامن عشر من ذي الحجة، بعد حجة الوداع، وأن غدير خم هو مكان افتراق الحجاج.

وثانيها أن الحديث قيل بحضور مئة ألف من الصحابة.

ثالثها أن توقف النبي وتكليفه مناداة حجاج كانوا قد شرعوا بالمغادرة يوحي بعظم الأمر وما سيقوله.

بالنسبة لموقع غدير خم يظهر مما ورد من مختلف الروايات واضطراب تحديده بالضبط أنه لم يكن موقعاً مشهوراً، ولو كان مفترق طرق الحجاج لكان معروفاً، ويبدو من حساب الفترة الزمنية أنه أقرب للمدينة منه إلى مكة، حيث لم يُسجل بقاء النبي بعد إتمامه مناسك الحج في مكة، وتتراوح المسافة بين مكة والمدينة وفق عديد روايات بين خمسة أيام وثمانية. وبافتراض أن النبي غادر مكة في اليوم الرابع عشر، وبالتالي يكون قد قطع المسافة إلى غدير خم في أربعة أيام على الأقل، وهي إذا ما أخذنا بمدة الثمانية أيام تكون في المنتصف، وإذا أخذنا بأقل من الثمانية أيام تكون غدير خم أقرب للمدينة.

الغرض من محاولة تحديد الموقع الانتقال إلى النقطة الثانية المتصلة بأن الحاضرين غدير خم مئة ألف، لأن ليس من المعقول أن كل المشاركين في حجة الوداع البالغين مئة ألف حسب أعلى رقم ذُكر عنهم، كلهم من شمال مكة، إذ المعروف أن العام التاسع للهجرة وصف بأنه عام الوفود من مختلف القبائل العربية إلى النبي لإعلان إسلامها، ومن المنطقي أن المشاركة في حجة الوداع تكون من مختلف أرجاء الجزيرة العربية ومختلف قبائلها.

وبالنظر إلى مواقع القبائل العربية وكثافتها السكانية لوجدنا أنها إلى جنوب مكة وشرقها أكثر من شمالها وغربها، وهذا ما يضع العدد في غدير خم محل شك كبير جداً ولعل أهمية العدد تكمن في مساحة شرعية الولاية بحسب الاستدلال الشيعي.

أما بالنسبة لتوقف النبي فليس فيه شيء غريب إذ كانت العادة الاستراحة في السفر، وتداول الحديث بين النبي وصحابته.

- لعل الأكثر ملاءمة أن يطرح النبي أمرا بحجم الولاية والخلافة في حجة الوداع وليس قبلها أو بعدها لأسباب متصلة بقدسية المكان والشعيرة، وحضور أكبر عدد من المسلمين من مختلف القبائل والأماكن في الجزيرة العربية، ولأنه كان آخر لقاء للنبي بهذا القدر من أتباعه. قد يقال إن أمر الولاية والخلافة لا يشترط فيه العدد بقدر ما يُكتفى بالإفادة والأمر لكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار كأهل حل وعقد. قد يكون ذلك صحيحاً ووفقه لم يكن النبي يحتاج لمناداة من هموا بالرحيل بل كان بإمكانه الانتظار حتى الوصول إلى المدينة، فجل كبار صحابته يقطنون معه في المدينة.

- يعتري الحديث وفقاً للروايات التاريخية -التي هي أصل مستند الشيعة في المسألة- ملابسات من بينها أن النبي قال ما قال بعد شكوى وتقوّل في الإمام علي بشأن غنائم كلفه النبي بجلبها من اليمن، فكان قول النبي من باب المواساة لعلي ووقف التقولات عليه.

- إذا كان الحديث يشير إلى الخلافة فكان الأحرى بالنبي أخذ البيعة لعلي بما لا يدع مجالاً للالتباس لاسيما وقد قال الله عن نبيه "لَقَدْ جَاءَكُمْ

رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ"[1]. وهل بعد حسم هذا الأمر المحوري من حرص.

- التراث الشيعي لا ينكر أن النبي في أواخر مرض وفاته طلب من صحابته الذين كانوا حوله أن يأتوه بقرطاس يكتب كتاباً لن يضلوا بعده، فإذا كان المقصود ولاية علي فما الحاجة لكتاب وقد حسم الأمر في غدير خم.

* **آية إكمال الدين**: المقصود قوله تعالى "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"[2]. يعتقد الشيعة أنها نزلت في غدير خم بعد حديث الولاية. ليؤكدوا معتقدهم أن الدين وتمامه ولاية علي. وبالخصوص يمكن إيراد الملاحظات التالية:

-الاستناد في سبب النزول لدى الشيعة على كتب تاريخ.

- الأحاديث الواردة في تعيين وقت نزولها تشير إلى نزولها في حجة الوداع، لكنها لا ترتقي لدرجة الصحة عند أهل الحديث.

- طالما من الصعب تحديد سبب النزول أو تعيين وقته بناء على أحاديث صحيحة فالمناسب الرجوع لسياق الآية نفسها وما قبلها وبعدها، حيث أن عبارة "اليوم أكملت...." هي جزء من سياق آية تتحدث عن شعائر دينية، كما هو حال الآيات قبلها وبعدها، بل إن سياق الآية التي قبلها يوحي بما ورد في أن نزولها كان في حجة الوداع أو قبلها، وفي كل الأحوال ليس بعدها، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ

١- التوبة ١٢٨
٢- المائدة ٣

الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ"[1]. وليس في الآية وما قبلها وبعدها ما يشير بأي قدر للولاية.

* **آية التبليغ**: المقصود قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ"[2]، يقول الشيعة إنها نزلت كذلك في حادثة الغدير، كون الآية مع آية إكمال الدين في نفس سورة المائدة وبينهن ٦٤ آية، ما يوحي أن الآيتين وما بينهما كلها نزلت دفعة واحدة. وبالخصوص يمكن إيراد الملاحظات الآتية:

إذا كانت الآيات نزلت دفعة واحدة فكان الأولى حسب استدلالات التراث الشيعي أن تكون آية إكمال الدين لاحقة لآية التبليغ وليس قبلها، فالمنطقي أن الله سبحانه وجه النبي أولاً بتبليغ المسلمين ولاية علي، وبعد تبليغه في حديث الولاية، تأتي آية إكمال الدين لكن الواضح من سياق الآيات وموضوعاتها أنها لم تنزل دفعة واحدة.

الروايات الحديثية عن سبب نزول آية التبليغ مختلفة يجمعها أنها في مجال رفع الحراسة عن النبي، وتختلف في الإشارة لوقت النزول، فروايات توحي بنزولها في المرحلة المكية بإفادتها أن أبا طالب كلف من يحرس النبي حتى نزلت هذه الآية، وأخرى تفيد أنها نزلت أثناء المرحلة المدنية وهذا ما تؤيده خصائص السورة، والأحاديث الأقرب للصحة في سبب النزول، وما يمكن استنتاجه من الأحاديث عن سبب النزول إن الآية نزلت قبل حجة الوداع، كما أن هذا قابل للاستنتاج من عبارة "والله يعصمك من الناس"

١- المائدة ٢

٢- المائدة ٦٧

فأثناء وبعد حجة الوداع كان محيط النبي الاجتماعي محيطاً تابعاً لا معادياً، ومستوى الأمن لشخصه مرتفع، قد يقال لكن في محيطه هذا منافقون، نعم بيد أن المنافقين كانوا موجودين في كل الأوقات، ولم تسجل السيرة محاولات اغتيال مؤكدة من المنافقين.

* **آية الولاية**: المقصود قوله تعالى "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ"[1]. يقول التراث الشيعي إنها نزلت في علي، وبالخصوص يمكن طرح عديد ملاحظات:

يستند الشيعة إلى حديث مكذوب في عرف أهل الحديث وحسب معاييرهم، مفاده أن سائلاً دخل المسجد فأشار إليه علي بن أبي طالب وهو راكع في صلاة تطوع وأعطاه خاتمه فلقي النبي السائل عند دخوله المسجد وقال له هل أعطاك أحدهم شيئاً فقال له ذلك القائم.

الآية واضحة في أن ما أعطاه علي للسائل إذا سلمنا بالمقولة الشيعية هو زكاة، ومن المعلوم أن للزكاة كما للصلاة شروطاً في الأداء منها الحول، والنصاب، ولو أضفنا إلى الرواية مبالغات بعض الشيعة في القول أن ثمن الخاتم يساوي خراج الشام لعام، فلنا أن نتصور ثروة الإمام علي الذي اشتهر عنه الفقر والزهد.

وردت أحاديث بأسباب نزول أقربها للصحة أنها نزلت في مسلمين كانوا يهوداً شكوا للنبي مقاطعة يهود لهم وبعد منازل الصحابة في المدينة عن منازلهم.

يلجأ الشيعة لتأييد سبب النزول إلى الزاوية اللغوية ليعتبروا، الواو في "وهم راكعون" حالية، وليست ابتدائية أو استئنافية، مع أن الأقرب

١- المائدة ٥٥

أنها ابتدائية، يقول تعالى: "اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ"[1]، ويقول "الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ"[2].

المؤمن ولي المؤمن على العموم، فكل مؤمن ولي لكل مؤمن، يقول تعالى: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض"[3]، ويقول في المهاجرين والأنصار "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ"[4].

* * *

يبقى في موضوع الولاية ثلاث مسائل:

الأولى، أن الولاية الدينية في الأصل ولاية روحية، ولا مبرر نقلياً أو عقلياً لإسقاطها على الولاية السياسية، بل إن إسقاطها على المجال السياسي يتضمن اتهام النبي بأنه كان ساعياً للملك أو القيادة السياسية مما يشكك في الرسالة برمتها.

ولو سلمنا بكل ما أورده التراث الشيعي من تضافر الأدلة على امتداد ولاية النبي إلى علي، أو وراثة الأخير لها من الأول لكان المقصود بها الولاية الروحية، بدليل أن القرآن فصل بين الولايتين الروحية والسياسية في قصة اصطفاء طالوت ملكاً على بني إسرائيل مع وجود نبي

١- يس ٢١

٢- الأنعام ٨٢

٣- التوبة ٧١

٤- الأنفال ٧٢

لهم وقتها، إلى جانب إشارة القرآن للولاية الروحية في أصل مهام الأنبياء والرسل، يقول تعالى "وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ"[1]، ويقول "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"[2].

كذلك، فإن من بين أزيد من خمسة وعشرين نبياً أوردهم القرآن لم يكن بينهم أصحاب ولاية سياسية، أو ملوك إلا داوود وسليمان، ومن ثم فإثبات الولاية السياسية استثناء يقتضي دليلا قويا وواضحا وصريحا.

الثانية، لو سلمنا باستحقاق الإمام علي الولاية الدينية والسياسية بتضافر أدلة القرآن والسنة، فما المسوغ لتوريثها في نسله، وما تسويغ تضييق دائرة حق الوراثة في أولاد علي من فاطمة واستبعاد الآخرين، ثم ما المسوغ لاستبعاد أولاد الحسن لدى الإسماعيلية والشيعة الاثني عشرية أكبر طوائف الشيعة وأوفرها تراثاً، طبعاً تم اختلاق أحاديث لا تصمد للنقد.

الثالثة، إن سلمنا بورود إشارات بخلافة علي للنبي خلافة دينية وسياسية فقد وردت في غيره، أبرزهم أسامة بن زيد وأبو بكر بل لعلها في أبي بكر أوفر من غيره، كتأمير النبي إياه في حج السنة التاسعة للهجرة، وقوله "لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا"، وترك خوخة أبي بكر مفتوحة على المسجد دون غيرها، إضافة لاستخلاف النبي أبا بكر في الصلاة، أثناء مرض موته، وتجدر الإشارة إلى أن الخلة، والخوخة، والصلاة جاءت لدى مرض النبي وقبل وفاته مباشرة، وكأنها كانت بمثابة وصايا خفية باستخلاف أبي بكر.

---

١ – الأنعام ٤٨
٢ – سبأ ٢٨

ولا يخفى ما لإمامة الصلاة في عرف الإسلام من مدلول سياسي، حيث كان الخليفة والوالي هو في ذات الوقت الإمام في الصلاة، بل إن الشيعة تحديداً يشتقون للولاية السياسية وصفاً من مسمى إمامة الصلاة، فهي إمامة كبرى، والأكثر أن الشيعة الاثني عشرية خصوصاً في ظل عقيدة الانتظار للمهدي -المفترض- تركوا صلاة الجمعة لقرون طوال ومازال كثير منهم مضربين عنها حتى ظهور المهدي بولايته الدينية والسياسية.

وما نود في نهاية هذا القسم التأكيد عليه أن ما جاء فيه لا ينتقص من هذا أو ذاك من أعلام الإسلام، وإنما يهدف إلى تفكيك آلة الكهانة في بسط نفوذها على عقول الناس ومعتقداتهم، وتنصيب نفسها واسطة بين الله والإنسان، وتحوير الإسلام العالمي الطابع في دين عشائري وسلالي وشخصي ما يناقض طبيعته ومراميه.

الانتساب السلالي

أدت مقولات الاصطفاء السلالي وربطها دينياً على أساس الفكر الشيعي إلى خلق ظاهرة تدافع استمرت طيلة التاريخ الإسلامي نحو الانتساب للسلالة "المطهرة" لنيل امتيازات سياسية واقتصادية واجتماعية، وهذا ما يبدو جلياً في أمواج الادعاءات بالنسب الهاشمي وتحديدا العلوي الفاطمي، حتى تجاوزت التقديرات في أقل عدد مطروح الثلاثين مليون فاطمي حول العالم.

ولنا أن نناقش هذا الأساس من الخرافة في النقاط التالية:

أولاً: المنطقية الدينية للتكاثر اللامعقول:

باعتبار الاصطفاء السلالي حسب الفكر الشيعي هو أساس الدين فلابد من مستندات دينية توفر الغطاء الإيديولوجي للجزئيات المتصلة بالاصطفاء، ولما لم يكن في المرجعية الدينية الإسلامية ممثلة بالقرآن هذه المستندات فقد لجأ للبحث عن مداخل مؤيدة في السنة النبوية، سواء كانت صحيحة أو مختلقة، ولما لم يجد في السنة ما يكفي، تم نبش كتب التاريخ، ولما عجزت النزعة الشيعية عن هذه وتلك ولجت في محاولات تفسيرية وتأويلية للقرآن الكريم، كما في محاولة تبرير الكثرة غير الطبيعية لمنتسبي السلالة الهاشمية العلوية، الفاطمية، مستعينين بتأويل تعسفي لسورة الكوثر "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)"[١].

١- سورة الكوثر.

فأول الفكر الشيعي "الكوثر" بفاطمة الزهراء رضي الله عنها وذريتها، بدليل كلمة "الأبتر"، التي يدخل في معانيها من لا عقب أو نسل له، فاستدلوا بها على إمكانية التكاثر اللامعقول لذرية النبي من فاطمة. وبالخصوص بالإمكان مناقشة التالي:

- ورد في أسباب نزول السورة أحاديث بعضها متضارب، وجميعها دون درجة الصحة، ويتمحور سبب النزول في قولين أساسيين، أحدهما، يفيد أنه عندما قَدِمَ كعب الأشرف اليهودي إلى مكة سُئل من بعض كفار قريش: هذا المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا، فقال أنتم خير منه.

وثانيهما، أنها نزلت في العاص بن وائل السهمي عندما وصف النبي بعد وفاة ابنه القاسم، وقيل عبدالله، بأنه أبتر.

وبأخذ السبب الأول للنزول تنعدم دلالة لفظة الكوثر على فاطمة.

وبأخذ السبب الثاني تكون دلالة الكوثر على فاطمة شبه منعدمة لأنها لم تكن قد ولدت، والفعل أعطيناك، ماضٍ.

- لم يرد في السنة أية إشارات إلى أن الكوثر هي فاطمة، ولم تسجل كتب السيرة والتاريخ إطلاق لقب الكوثر عليها، وما ورد يفيد أن الكوثر المقصود هو نهر في الجنة.

- سياق السورة يميل بلفظة الكوثر إلى معناها اللغوي، الخير الكثير، ولو تم التسليم بسبب النزول في غمز العاص بن وائل بانقطاع ذرية النبي، رغم أن مضمون الرواية لا ينسجم كون القاسم أو حتى عبدالله من أوائل أولاد النبي الذي كان حينها ما يزال شاباً وبإمكانه إنجاب المزيد من الأبناء، فالغمز هنا لا يستقيم بوفاة واحد أو اثنين من أولاده، لكن لو تم التسليم على أساس أي تخريجات يمكن قبولها كوصف القرشيين من أبطأ

عليه الولد بالأبتر، فإن المعنى المجازي للفظة الأبتر هو الأقرب بقرينة عقلية مفادها أن العاص لم يكن منقطع النسل ولو كان كذلك لما غمز النبي ووصفه بالأبتر، فيكون المعنى أن مبغضك هو منقطع الذِكر والأثر، فيما النبي خالد الذكر بالخير الذي أعطاه الله، ووفقاً للسياق يحتمل بشكل كبير أن الكوثر المقصود هو الرسالة والدين، فبالدين خلد الله النبي عليه الصلاة والسلام، أما القرينة بكون الكوثر هو الدين بما يتضمنه من خيري الدنيا والآخرة، قوله تعالى "فصل لربك وأنحر"، والصلاة والنحر شعائر دينية لا علاقة لها بالإنجاب أو عدمه.

- تؤكد السورة ما سبق تناوله من أن النسل والذرية لا تمثل بحد ذاتها أية قيمة في السياق الديني.

- من أهم الشواهد الواقعية على عدم وجود فوارق في معدلات تكاثر النسل العلوي الفاطمي، الأخذ بمعدل التكاثر خلال ثلاثة قرون من بداية الهجرة إلى أواخر القرن الثالث، ولعل هذه الفترة من أنسب الفترات لقصر سلسلة النسب، وضعف فرص الادعاء وسهولة كشفه إذا حاول المدعي الترويج لانتسابه إلى البيت العلوي الفاطمي.

وبالنظر لمسار التكاثر خلال الفترة المحددة لا يجد المرء أية زيادات غير طبيعية سواء في نسل الحسن أو الحسين رضي الله عنهما، بل إنه عند المقارنة بمتوسط عام لولادات بعض البيوت حينها قد تقل الولادات في البيت العلوي الفاطمي عن المتوسط المأخوذ.

كأمثلة على ذلك يقال إن الإمام علي أنجب أربعة عشر ولداً ذكراً، من أعقب منهم خمسة فقط فيما تسعة درجوا، أي انقطع نسلهم، ويقال إن الحسن أنجب أحد عشر ذكراً أعقب منهم اثنان فقط.

ويقال إن الحسين أنجب أربعة ذكور، أعقب منهم واحد فقط هو زين العابدين علي بن الحسين، ومن بين تسعة ذكور للأخير أعقب منهم ستة، وهكذا تتكاثر تفرعات سلسلتي الحسن والحسين في هذا الشخص من السلسلة وتضيق عند ثانٍ وتنقطع لدى ثالث، ما يجعلها كبقية السلاسل البشرية لا غريب فيها ولا عجيب تنطبق عليهم فترات الحمل البشرية بين سبعة وتسعة شهور، وكذا نِسَب التكاثر والولادات.

– ظاهرة الاضطهاد والقتل التي طالت العلويين في كثير من فترات العهدين الأموي والعباسي تقلل من فرص الزيادات الطبيعية، فضلاً عن الزيادات غير الطبيعية، بزيادتها معدل الوفيات، وضياع فرص الإنجاب كما في حالة يحيى بن زيد على سبيل المثال.

– الحسابات الرياضية بأي نسب تكاثر مقبولة علمياً، حتى في معدلاتها الأعلى، مع استبعاد ظاهرة القتل والاضطهاد التي طالت المنتسبين، حقيقة أو ادعاء، إلى علي وفاطمة خلال الكثير من فترات الحكمين الأموي والعباسي، تكشف أن الأعداد الحقيقية الممكنة عشرات الآلاف فقط، وبالتجاوز والمبالغة، مئات الآلاف، لا ملايين، ناهيك عن عشرات الملايين المزعومة، كأمثلة على ذلك ما يقال عن أن عدد من حجوا مع النبي في حجة الوداع ١٠٠ ألف فلو بلغت ذرية كل واحد منهم إلى اليوم مئة ألف فقط لبلغ عدد ذرياتهم إلى اليوم ١٠ مليارات إنسان، وهو عدد يفوق عدد سكان العالم في الوقت الراهن، هذا إذا افترضنا أنه لم يكن على وجه الأرض حينها إلا هؤلاء الحجاج.

وبحسب سجلات التاريخ الصيني كان عدد سكان الصين في القرن الثالث قبل الميلاد ١٤ مليون نسمة ووصل عددهم راهنا إلى ما يفوق المليار إنسان، بمعنى تضاعفهم خلال ألفين ومئتي عام أقل من مئة مرة.

مثل أخير يتعلق بمن يعرفون ببني شيبة (بني الشيبي)، سدنة الكعبة المشرفة وهم الأسرة التي أعطى النبي جدهم مفتاح الكعبة ودعا على من يأخذه منهم فظلوا موثقين نسبهم للحفاظ على هذه الفضيلة النبوية. ويقول كبير السدنة في هذه الأسرة قبل نحو ١٢ سنوات من الآن عبدالعزيز الشيبي في مقابلة صحفية[١]، إن عدد أفراد الأسرة ٣٧٠ شخصا، بمعنى أن هذه الأسرة تضاعفت خلال ١٤٠٠ سنة أقل من ٤٠٠ مرة، وهو رقم تضاعف مقبول. ولو أسقطنا هذا التضاعف على المئة ألف المشاركين في حجة الوداع لكان عدد أحفادهم اليوم ٤٠ مليونا، أي بنسبة تعادل نحو نصف الواحد بالمئة من عدد سكان العالم وهي نسبة مقبولة، فيما قدر أحد المنتمين لهذه الأسرة ويدعى زياد الشيبي عدد أفرادها بثلاثة آلاف. ولو أسقطنا رقم التضاعف هذا مرة أخرى على المشاركين في حجة الوداع لكان أحفادهم اليوم حوالي ٣٠٠ مليون، بنسبة تقدر بأقل من خمسة بالمئة من عدد سكان العالم في الوقت الراهن، ورغم أن النسبة كبيرة إلا أنها تظل في حدود المقبول وفي الوقت ذاته أقرب إلى المستحيل وفي حافته لأننا لو أعدنا تنزيل النسبة إلى فترة حجة الوداع لكان عدد سكان العالم حينها مليوني إنسان فقط وهو عدد يتنافى مع الحقائق التاريخية والرياضية، وبإسقاط أي رقم تضاعف على النسل العلوي الفاطمي فالعدد سيقدر بالآلاف ومع التجاوز بعشرات الآلاف فقط، أما الملايين وعشرات الملايين فهي أرقام فلكية لا صلة لها بالواقع البشري.

- يُعد اليهود من أكثر شعوب العالم حرصاً على النقاء السلالي إلا أن الدراسات الجينية أثبتت اختلاف أصولهم. إلى جانب أن عدد اليهود

١- راجع صحيفة عكاظ تحت عنوان " آل الشيبي يحملون مفاتيحها .. وكبير السدنة: الداخلون إلى الكعبة يسجدون ويبكون من شدة الخشوع"، سبتمبر - ٢٠٠٨
https://www.okaz.com.sa/article/218064

بمن فيهم الكثير ممن تهودوا عبر التاريخ من غير بني إسرائيل لم يتجاوزوا بعد أربعة آلاف سنة العشرين مليوناً، وإن أخذنا بالرقم الوارد في العهد القديم الذي ذكر أن من خرج مع موسى في الفرار من فرعون ٦٠٠ ألف فتكون الأمة اليهودية تضاعفت خلال ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام بنحو ثلاثين مرة فقط، لكن هذا العدد مبالغ فيه وتعرض لانتقادات تناولته من مختلف الزوايا حتى أن البعض قدره بـ٦٠٠ وآخرين بستة آلاف، وهناك من قدر عدد من خرج مع موسى بـ٤٠ ألفا، وإذا أخذنا الرقم الأخير تكون الأمة اليهودية تضاعفت خلال الـ٣٣ قرنا حوالي ٥٠٠ مرة. ولو أسقطنا رقم التضاعف هذا على النسل العلوي متغافلين عن مدة التضاعف التي تقل في الأخيرين عن الخمسة عشر قرنا، واعتبرنا أن عدد أولاد الإمام علي وأحفاده حينها ٥٠ شخصا تظل الأرقام أقل من ٢٥ ألفا اليوم.

- وبعمليات حسابية أخرى، يمكن تناول الجدول التالي:

(٢) ٢ ٣	(١٤) ٢٦ ٣٣	(١١٤) ٢٨٨ ٣٦٠	(١٢٢٤) ٣١٩٤ ٣٩٩٣	(١٣٥٣٤) ٣٥٤٢٢ ٤٤٢٧٨	(١٥٠٠٥٤) ٣٩٢٨٣٦ ٤٩١٠٤٥
(٤) ٤ ٥	(٢٠) ٤٢ ٥٣	(١٨٢) ٤٦٦ ٥٨٣	(١٩٧٨) ٥١٦٨ ٦٤٦٠	(٢١٨٩٦) ٥٧٣١٤ ٧١٦٤٣	(٢٤٢٧٩٠) ٦٣٥٦٢٢ ٧٩٤٥٢٨
(٦) ٦ ٨	(٣٠) ٦٨ ٨٥	(٢٩٢) ٧٥٤ ٩٤٣	(٣١٩٨) ٨٣٦٢ ١٠٤٦٢	(٣٥٤٢٦) ٩٢٧٣٦ ١١٥٩٢٠	(٣٩٢٨٤٠) ١٠٢٨٤٥٨ ١٢٨٥٥٧٣
(٨) ١٠ ١٣	(٤٦) ١١٠ ١٣٨	(٤٧٠) ١٢٢٠ ١٥٢٥	(٥١٧٢) ١٣٥٣٠ ١٦٩١٣	(٥٧٣١٨) ١٥٠٠٥٠ ١٨٧٥٦٣	(٦٣٥٦٢١) ١٦٦٤٠٨٠ ٢٠٨٠١٠٠
(١٠) ١٦ ٢٠	(٧٢) ١٧٨ ٢٢٣	(٧٥٨) ١٩٧٤ ٢٤٦٨	(٨٣٦٦) ٢١٨٩٢ ٢٧٣٦٧	(٩٢٧٤٠) ٢٤٢٧٨٦ ٣٠٣٤٨٣	

مثلما تتهاوى مقولة الولاية أمام النقد الديني الموضوعي، تنهار بشكل أكبر مقولة "أحفاد النبي"، خصوصا وقد أصبح بيد العلم أدوات في مقدمتها وسائل الفحص الجيني "DNA"، الموصلة لنتائج شبه يقينية بشأن القرابات العضوية بين البشر، وصدقية اشتراكها في الأصل الواحد، من عدمه. رغما من ذلك وارد أن تصطدم هذه الوسيلة بفتاوى تحريم ديني، في مجتمعات محافظة، وبإمكانية الحصول على العينات المطلوبة للتحليل الجيني، إضافة إلى إشكالية تحديد أسرة معيارية مؤكدة الانتماء للأصل العلوي الفاطمي.

دراسة مشجرات الأنساب ومطابقاتها مع بعضها، ومع تراجم الرجال، طريقة تقليدية لكشف الزيف السلالي. هذه الطريقة بدورها من السهل اليوم التحايل عليها باصطناع مشجرات مضبوطة السلسلة، نظرا لانتشار كتب الأنساب الخاصة بالسلالة العلوية.

أسلوب حديث يتحاشى مشكلات الأداتين السابقتين (الفحص الجيني والمشجرات)، ويتمتع بدرجة يقين عالية، إذا اتبع إجراءات منصفة ومحايدة، يعتمد على نظريات رياضية، حسابية، ووقائع ذات صلة بالدراسات السكانية.

ووفقا للجدول، السابق، تتراوح أعداد "أحفاد النبي" المفترضين بين نحو ستمائة ألف ومليوني شخص على أكبر تقدير.

يتكون الجدول من ٢٩ خانة تمثل كل منها ٥٠ سنة، ابتداء من السنة الأولى للهجرة، وحتى العام ١٤٥٠، تحتوي كل خانة على ثلاثة أرقام يتزايد كل منها، عموديا، وفق متتالية هندسية، من خانة إلى التي تليها بمقدار

الضعف، حتى الوصول إلى الخانة ٢٩ الممثلة لعدد العلويين اليوم فيما الخانة الأولى بالرقم ٢ تمثل الحسن والحسين، لكن عملية التضاعف تراعي الواقعية السكانية، من حيث أن العدد المضاعف ابتداء من الخانة الثالثة ينقص منه الرقم في الخانة الأولى.

في الخانة الثالثة من المفترض حسب التضاعف أن يكون الرقم المقوس (٨) إلا أنه أصبح (٦) وهذا لأننا أنقصنا منه الرقم (٢) في الخانة الأولى، وهكذا حتى آخر الجدول، والمبرر متعلق بالمجال السكاني، حيث أن الحفيد الذي يولد، على سبيل المثال، في العام ٢٠٠٠ يكون جده المولود في العام ١٩٠٠ قد توفي.

ونفس الطريقة تسري على الرقمين الثاني والثالث في كل خانة، مع فارق المبالغة، زيادة في تأكيد استحالة الأرقام المتداولة لأعداد العلويين في الوقت الحاضر، وتأتي المبالغة بالنسبة للرقم الثاني في أن تنقيص حالة التضاعف تبدأ من الخانة الرابعة التي تفصلها عن الأولى خانتين وليس خانة واحدة كما في الأرقام المقوسة، على أساس عملية غير واقعية تعتبر أن الشخص المولود في العام ٢٠٠٠ يكون جده المتوفى هو المولود في العام ١٨٥٠ وليس في ١٩٠٠. وبالنسبة للرقم الثالث فهو أكثر مبالغة ومبني على الرقم الثاني بإضافة ٢٥ بالمئة للرقم المضاعف مع التجاوز عن الكسور بتقريبها للرقم الصحيح الأعلى.

أما لماذا تم اختيار ٥٠ سنة كفترة للتضاعف، بينما بعض الوقائع المشاهدة، على المستوى الأسري والسكاني، تشير إلى إمكانية التضاعف خلال فترة تقل أحيانا عن ٢٥ سنة؟

لابد من اختيار معدل متوسط لفترة التضاعف، تتباعد عن حد أعلى وحد أدنى، لأننا لو أخذنا بفترة ما بين ١٥- ٣٠ سنة فإن عدد سكان العالم

سيصل إلى تريليونات، ما يخالف الحقيقة السكانية اليوم حيث يقل سكان العالم عن الثمانية مليارات.

حدثت طفرات تكاثر سكاني، وبالمقابل وجدت فترات تباطؤ، وأحيانا تناقص، وبالخصوص يمكن طرح عدد من الأمثلة:

حصلت طفرة في تزايد سكان الجزائر بارتفاع العدد من نحو ١١ مليون نسمة عام ١٩٦٠ إلى حوالي ٣٣ مليونا سنة ٢٠٠٦، فتضاعف العدد ثلاث مرات في أقل من ٥٠ عاما، مع هذا كان التضاعف قبل الطفرة الطارئة كل ٥٠ سنة، العدد عام ١٨٥١ قرابة المليونين ونصف، وبعد ٦٠ سنة، ١٩١١، قارب الخمسة ملايين، وفي سنة ١٩٦٠ صار حوالي ١١ مليونا.

بينما في بلدان أخرى كان التكاثر أقل من الضعف، فالصين كانت تضم العام ١٧٠٠ نحو ٢١٠ ملايين نسمة ولم يتضاعفوا إلا بعد ١٥٠ سنة ليصل عام ١٨٥٠ إلى ٤٢٩ مليونا، كما لم يزد سكان فرنسا إلا بمقدار يقل عن النصف، ٤٣ مليونا عام ١٩٥٥ إلى ٦١ مليون نسمة العام ٢٠٠٥. وفي بريطانيا لم يتضاعف عدد السكان خلال ١٠٠ عام، من ٣٨ مليونا عام ١٩٠١ إلى ٦٠ مليونا فقط عام ٢٠٠١، بل قد يحصل تناقص سكاني في بعض الظروف، كانخفاض سكان سوريا من قرابة ١٨ مليونا العام ٢٠٠٤ إلى ١٧ مليون نسمة سنة ٢٠١٦، وفي الصين من ٤٢٩ مليونا سنة ١٨٥٠ إلى ٤٠٠ مليون العام ١٩٠٠، وفي مصر كان التضاعف كل ٥٠ سنة، إذ ارتفع من مليونين ونصف عام ١٨٠٠ إلى أقل من ١٠ ملايين العام ١٨٩٧ ثم إلى ١٩ مليونا سنة ١٩٤٧.

في حالات نادرة، من واقع البيانات السكانية في فترات تاريخية مختلفة وبلدان عدة، يحدث تضاعف سكاني بين ١٥- ٣٠ سنة، في حين حالات كثيرة يحصل التضاعف بين ١٠٠-١٥٠ سنة، وغالبا ما يحدث بين ٨٠-

١٢٠ سنة، فتم اختيار ٥٠ سنة كمعدل متوسط للتضاعف السكاني بني عليه الجدول، وتم تطبيق طريقة الجدول على حالات متنوعة، زمانيا ومكانيا، للتكاثر السكاني، فكانت الأرقام متقاربة في الجدول والتعدادات الواقعية.

هناك محاولات حسابية اعتمدت مداخل أخرى لمعرفة عدد العلويين، فأنصار المقولة السلالية اتبعوا طريقة المتوالية الهندسية، دون اعتبار للوفاة بين الأجيال، وعندما تعدت الأرقام المليارات، تمت تنزيلات اعتباطية لتبقي الأرقام في حدود ٣٠٠ مليون، بينما مناهضون احتسبوا على أساس تحريك نسبة ثابتة عبر الزمان، على اعتبار أن عدد العرب وقت الفتوحات الإسلامية عشرون مليونا، وعن طريق تحديد نسبة الهاشميين (أصل العلويين) وقتها، تم تحديد عددهم اليوم ب ٣٥ ألفا، كنسبة من العدد الإجمالي للعرب البالغ نحو ٣٥٠ مليونا.

طريقة أخرى اعتمدت الخطين القحطاني والعدناني -المفترضين- وفق دراسات جينية حديثة أخذت بالتقسيم الثنائي للعرب، وطبقا لها بلغت نسبة العدنانيين نحو ٢٠ بالمئة، وجزء منهم كانت نسبة الهاشميين ١ بالمئة من الخط العدناني، فوصل عدد الهاشميين إجمالا، وليس العلويين- الفاطميين فحسب، حوالي ٨٠٠ ألف، وهذا يقارب الرقم الذي وصل إليه الجدول.

إن عدد العلويين، مع المبالغة الكبيرة يقارب المليونين في كل العالم، فيما العدد الذي يعتقد أنه يقرب من الواقع، دون أن يخلو من بعض المبالغة كذلك، نحو ٦٣٥ ألفا (الرقم المقوس في الخانة الأخيرة من الجدول)، وبإسقاط الثلث الممثل للنساء منه، فإن عدد العلويين-الفاطميين لا يتجاوز ٤٠٠ ألف، كون أعمدة النسب تقوم على الذكورة، ولتلاشي النساء في كل جيل من تلك الأعمدة، وارتباط أبنائهن بأنساب أخرى، إذا

كان الزواج من غير علوي، وإذا كان من علوي فقد تم الاحتساب بطبيعة الحال.

وبناء على هذا الرقم يكون بين كل ٢٠ ألفا من سكان العالم علوي واحد، قد يبدو الرقم مقبولا، إلا أن مبالغته ستظهر عندما نرجع بنفس النسبة إلى أيام الحسن والحسين فيكون عدد سكان العالم حينها أربعين ألفا فقط، وهذا غير واقعي، وأيضا إذا تكاثر كل شخص في العالم بنفس النسبة، وعلى افتراض أن عدد سكان العالم ذلك الوقت ١٠ ملايين فقط، فسيصير عدد سكان العالم راهنا أربعة آلاف مليار (٤ تريليونات) نسمة.

عدا هذا لو افترضنا أن عدد الهاشميين وقت الحسن والحسين كان مئة شخص، وأعطيناهم نفس درجة التكاثر، فإن عدد الهاشميين وفق الحد الأدنى يصبح عشرين مليونا، بمعنى كل ٣٧٥ من البشر في العالم يقابلهم هاشمي، وبحسب الحد الأعلى سيصل عددهم ١٠٠ مليون هاشمي مقابل ٧٥ من سكان العالم.

الجدول راعى التزايد الأكثر من الواقعي في حساب العلويين-الفاطميين، مغفلا الاضطهادات والحروب التي حصدت أغلب العلويين في عهود إسلامية مختلفة، إذا أخذنا بمقولة المظلومية التي تشكل أساس خرافة الولاية-السلالة. إن العرب معنيون بمواجهة فكرية متعددة المسارات حازمة لمواجهة خرافات تحكمت بواقعهم لقرون، بينها خرافتا الولاية، والسلالة المترابطتين.

الجدول عام ولا يطعن في أنساب الأفراد، وإنما يحاول عقلنة جزئية ثقافية، تصدر ضحاياها أولئك المعتقدون بجذرهم النبوي.

في هذا العصر أدى كشف البصمة الوراثية واختبارات الحمض النووي إلى قلب مفاهيم خاصة بالسلالات والأعراق البشرية، وفي النسب الهاشمي العلوي الفاطمي جرت دراسات في بعض البلدان، بينها إنشاء خارطة وراثية لأصول الأردنيين وإفراد خط للسلالة النبوية لتنتهي النتائج إلى أسر تقل عن العشر تنتمي حقاً للسلالة الهاشمية. وبحث آخر أجري من خلال فحص الأحماض النووية لمجموعات من اثنتي عشرة أسرة في تونس والجزائر مشهورة بانتمائها الهاشمي وتحتفظ بمشجرات ووثائق تثبت صحة هذا النسب، في حين مقارنة نتائج الفحوصات أظهرت تباينات تنفي وحدة أصلها الجيني في العهد النبوي، بمعنى أنه في أفضل الحالات والافتراضات إذا صح انتسابها للسلالة النبوية فسيكون بحسب النتائج الجينية من نصيب أسرة واحدة منها فقط وكنسبة مئوية نحو ثمانية بالمئة.

ثانيا: ضياع وتجريد أعقاب النساء من الفضيلة المفترضة:

نظراً لقيام سلسلة النسب على الذكورة فإن الأولاد الذكور من الإناث الفاطميات المتزوجات بغير فاطميين يحرمون من الفضيلة المفترضة مع اشتراكهم في النطفة (الطاهرة) بسبب أن أعمدة أنسابهم هم وذرياتهم ستختفي منها بطبيعة الحال الأمهات الفاطميات، وهكذا تضيع الفضيلة السلالية المزعومة من ذرية الإناث المنتسبات لفاطمة الزهراء والإمام علي وتبقى في الذكور فقط، ما ينافي العدالة المنطقية والدينية رغم توافر النطفة في الجميع. ورغم استحقاق أولاد الإناث أكثر من أولاد الذكور للفضيلة السلالية بحكم أن أساس هذه الفضيلة أنثى هي السيدة فاطمة الزهراء ومنها إلى النبي الأكرم الذي يقول عنه تعالى: "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا

أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ"[1]، وإنما كان عضويا أبا الإناث "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ"[2].

ثالثا: التناسب الطردي بين النسب والفضيلة المفترضة

تتسلسل العملية الاصطفائية السلالية، المصطبغة بالدين، نزولاً حسب الفكر الشيعي، والعجيب أن تكاثر الذرية يسير بنفس السلسلة الاصطفائية المزعومة، فلدى الشيعة اصطفاء ضمني يمتد من هاشم إلى أبي طالب، وصريح من علي نزولاً حتى يبدأ بالافتراق وفقاً للفرق الشيعية الأساسية.

ولغرض عدم التشعب سنكتفي بالوصول إلى أولاد الإمام علي بن أبي طالب.

ضمن بني عبد مناف يحوز التفضيل هاشم توأم جد الأمويين عبد شمس، و أخا نوفل وطالب، على الثلاثة الأخيرين، ولولا حكم بني أمية لضاعت أنسابهم حتى في عصور الإسلام الأولى، ورغم أن لدى هاشم أربعة ذكور فقد قيل أن ثلاثة درجوا وانقطع نسلهم، وبقى النسل في عبد المطلب، أفضل إخوانه، وأنجب عبد المطلب أكثر من أحد عشر ولداً ذكراً.

ومع أن المنطق التاريخي والطبيعي يوحي أن فرص التكاثر متوافرة بشكل كبير لولد العباس بن عبد المطلب باعتبار السلطة والثراء الناجم عنها لأكثر من خمسمائة سنة، غير سلطتهم الاسمية في عهد المماليك، مع

١- الأحزاب ٤٠

٢- الأحزاب ٥٩

ذلك لا نجد ممن ينتسب من نسلهم إلا القليل اليوم مقارنة بملايين ينتسبون لولد أبي طالب، أما السبب، فليس في الانتساب للعباسيين ذات الإغراءات السياسية والاجتماعية المرتدية دثار الدين المتوافرة في الانتساب للطالبيين، أما ذرية أبي لهب فقد غابت بشكل شبه نهائي، ليس بسبب انقطاعها ولكن بسبب وصمة أبي لهب، وإلى جانبهم تختفي ذريات من أعقب من أولاد عبدالمطلب.

حتى أولاد أبي طالب تتضاءل ذرية جعفر وتضيع ذرية عقيل، مقابل طفرة وكثرة خارقة للعادة في نسل علي، والسبب مرة أخرى الفكر الشيعي وانعدام الامتيازات في الانتساب لجعفر وعقيل.

وبالمثل يبتر المؤرخون والنسابة نسل أغلب أولاد علي بن أبي طالب لينحصر في خمسة فقط، وتقل ذرية ثلاثة لصالح زيادة مهولة في ذرية اثنين هما الحسن والحسين، والسبب أن أولاد علي من فاطمة هم ورثة الولاية وما يتبعها من امتيازات، ولأن الحسين أفضل من الحسن في معظم الفكر الشيعي فإن الانتساب لذريته خصوصاً في المناطق الأكثر تشيعاً يتفوق على المنتسبين للحسن.

وبالجملة يزيد عدد المنتسبين لعلي بن أبي طالب طردياً مع تأثير الفكر الشيعي في بلد ما وزمن ما، وبدرجة أقل في مناطق انتشار التقاليد الصوفية لأن أغلب الأخيرين يفضلون الإمام علي على غيره من صحابة النبي.

رابعا: ادعاءات شهيرة بالنسب الفاطمي

يمتلئ التاريخ الإسلامي بنماذج لادعاءات الانتساب لأولاد علي من فاطمة، بعض هؤلاء الأدعياء طبقت شهرتهم الآفاق، من ذلك الشكوك التي دارت حول إدريس الثاني ابن مؤسس الدولة الإدريسية في المغرب، الذي أتى راشد مولى إدريس الأول وموطّئ دولته بجارية حامل بعد وفاة إدريس قال لوجهاء الدولة إنها تحمل في بطنها ولداً لإدريس، فوضع القوم التاج على بطنها بانتظار ولادته. حسبما روى المؤرخون.

ومن أشهر هؤلاء الأدعياء عبيد الله المهدي مؤسس الدولة العبيدية (الفاطمية)، الذي لم يتمكن من إثبات نسبه إلى جعفر الصادق رغم الفارق الزمني القصير بينهما، أقل من مئة وخمسين سنة، وورد في سجلات الدولة الفاطمية الرسمية ما يشير إلى ارتباك نسبهم، وكذلك اختلاف النسابة، ومخالفة مؤرخيهم الإسماعيليين لرأي النسابة المثبتين لنسب عبيد الله، إضافة لإصدار الطالبيين في بغداد ما يشبه البيان مرتين ابتداء من أربعمائة هجرية ينكرون فيه النسب العلوي لحكام الدولة الفاطمية، ورغم ما يمكن أن يقال إنه بيان إنكارٍ لا يخلو من البعد السياسي لصدوره من عاصمة الدولة العباسية المنافس للدولة الفاطمية على السيادة الإسلامية، إلا أن الملاحظ على فترة صدور البيانين أنهما كانا في عهد الدولة البويهية الشيعية المسيطرة فعلاً على الدولة والخليفة العباسيين، والمتوافقة مع الدولة الفاطمية أغلب الوقت.

الأمر ينطبق على قائد ثورة الزنج[1]، ومثله زعيم القرامطة، وفي العصور اللاحقة على صفي الدين الأردبيلي جد إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية في إيران، وأسرته حسب ذكر المؤرخين أسرة تركمانية.

وحديثاً يتبادل الكثير من المنتسبين لعلي بن أبي طالب الطعن في أنسابهم، كما حصل بشأن السيستاني، والخميني، والخوئي وغيرهم.

خامسا: مشجرات الأنساب .. اليمن نموذجا

ليست ظاهرة موجات الانتساب إلى عرق أو سلالة أو دين أو جماعة بظاهرة جديدة على المجتمعات، وليس المجتمع اليمني بدعاً بينها، فبين حكم سلالات انتسبت لعلي وفاطمة امتد أكثر من ألف سنة يتسع ليشمل اليمن بأغلبها ويضيق لينحصر في بعض المناطق، ووسط مذهب يضم أخيراً نحو ثلث سكان اليمن ويعتنق مبدأ الاصطفاء لكن باعتدال وعقلانية، توافر إغراء متعدد الأبعاد للانتماء للسلالة الهاشمية العلوية الفاطمية، تجدد هذا الإغراء مع ظهور الحركة الحوثية وأخذها الحيز الجارودي المتشدد في المذهب الزيدي، والمطعّم بلمحات اثني عشرية جعفرية، ثم انتشارها بفعل نكهتها السلالية والمذهبية وسيطرتها على مقاليد الحكم في اليمن.

١- يُدعى علي بن محمد، و"ثورة الزنج" كانت على الخلافة العباسية في منتصف القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، تمركزت حول مدينة البصرة، جنوب العراق اليوم، وامتدت لأكثر من ١٤ عاما قبل أن تنجح الدولة العباسية في هزيمتها"، راجع ويكبيديا،
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%86%D8%AC

نتيجة لذلك اتسع نطاق الأسر المنتسبة للهاشمية العلوية الفاطمية لدرجة قدر عدد أفرادها بين مليونين وأربعة ملايين وستة ملايين يمني، بمعنى أن من بين كل أربعة يمنيين أو ستة واحد هاشمي علوي. الفوارق الكبيرة في التقديرات، وحدها، تلقي بظلال كثيفة من الشكوك على المسألة الهاشمية في اليمن، برمتها.

ومن الواضح المبالغة في العدد سواء بحده الأدنى أو الأعلى لا سيما وأنها لم تجر أية محاولات لدراسات جينية تحسم المسألة علمياً، مع ذلك بالإمكان إخضاع الانتساب للبيت الهاشمي العلوي بهدف معرفة درجات صحة الانتساب، لنقد يعتمد بصورة رئيسية على كتب الأنساب المرجعية الخاصة بالنسب العلوي على مر التاريخ، وبالاستعانة بعض الشيء بترجمات شملت إيراد سلسلة النسب.

بيد أنه قبل ذلك تجدر الإشارة إلى أن علماء الأنساب بينهم من الخلافات الكثير، وأن بعضهم نقل عن بعض - وهذا طبيعي - ومنهم المتحري والمتساهل، لكن يبقى المعاصرون لجيل في السلسلة أقرب للثقة فيما يخص هذا الجيل أو نسابة متأخر ذكر مصدرا قديما استند إليه، لاحتمالية اختفاء مخطوطات ذلك المصدر، وسيتم هنا نقد موضوع الانتساب في ضوء كتب أنساب في قرون هجرية متلاحقة تبدأ من القرن الثالث الهجري، عصر التدوين العربي وانتهاء بالقرن التاسع الهجري، وتختص بالنسب العلوي ومقارنة ما جاء فيها من مشجرات بما ورد عن مشجرات الأسر اليمنية، مع تجاهل أسماء الأسر والاكتفاء بأسماء أشخاص في السلاسل.

أهم هذه الكتب التي تم الاعتماد عليها:

أ. في النسب الهاشمي العلوي عموماً:

- المعقبون من ولد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لمؤلفه يحيى بن الحسن بن جعفر الحجة الحسيني المدني العبيدلي (٢١٤-٢٧٧هـ).

- سر السلسلة العلوية، لأبي نصر البخاري (كان حياً سنة ٣٤١هـ).

- المجدي في أنساب الطالبيين، لمؤلفه بي الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد العلوي العمري النسابة (توفي ٤٥٩هـ).

- الفخري في أنساب الطالبيين، لمؤلفه العلامة النسابة عزيز الدين أبي طالب إسماعيل بن الحسين بن محمد بن الحسين بن أحمد المروزي الأزورقاني (٥٧٢ - بعد ٦١٤هـ).

- تهذيب الأنساب ونهاية الأعقاب، لمؤلفه أبي الحسن محمد بن أبي جعفر شيخ الشرف العبيدلي النسابة (توفي ٤٣٥هـ).

- الشجرة المباركة في أنساب الطالبية، للإمام فخر الرازي (توفي ٦٠٦هـ).

- عمدة الطالب الصغرى في نسب آل أبي طالب، لمؤلفه العلامة النسابة جمال الدين أحمد بن علي الحسني الداوودي المعروف بابن عنبة (٧٣٨ - ٨٢٨هـ).

ب.   في النسب الهاشمي العلوي في اليمن خصوصاً:

-    نيل الحسنيين بأنساب مَن باليمن من بيوت عترة الحسنين وغيرها من بيوت العلم والزهد والصلاح والرياسة اليمنية إلى سنة ١٣٧٦هـ من مجاميع (مؤلفه) محمد بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن أحمد بن إسماعيل بن الحسين بن أحمد زبارة.

واعتمد فيه على كتاب - مخطوط - روضة الألباب وتحفة الأحباب وبغية الطلاب ونخبة الأحساب بمعرفة الأنساب، المشهور بمشجر أبي علامة لمؤلفه محمد أبي علامة (متوفى ١٠٤٤هـ)، وهو أشهر الكتب اليمنية الجامعة لأنساب عترة الحسنين باليمن وغيره، والذي تبرأ فيه ممن ألحق فيه أحدا بغير حقيقة قطعية، بما يفيد حصره لكل الأسر اليمنية المنتسبة لعلي بن أبي طالب. وتعقب الكتاب حفيده محمد بن عبدالله بن محمد أبو علامة.

الملاحظات

-    كثرة كاثرة من الأسر المنتسبة اليوم في اليمن إلى البيت العلوي الفاطمي، لم ترد باسمها أو مشجراتها، لا في مشجرات أبي علامة، ولا تعقيبات حفيده، ولا في كتاب نيل الحسنيين لزبارة. مع ما يفيده أبو علامة ويوحي به زبارة من حصرهما لجميع الأسر المنتسبة للهاشمية العلوية في اليمن، ما يجعلها جميعاً محل شك ابتداءً مقارنة بما ورد لديهما.

-    تختلف مستويات درجات صحة الانتساب بناء على قدر اتفاق واختلاف علماء الأنساب، مثال، بالنسبة لأولاد موسى الكاظم: اتفقوا على أنه أعقب من: علي، إبراهيم، العباس، إسماعيل، محمد، عبد الله، عبيد

الله، الحسن، جعفر، إسحاق، حمزة، واختلفوا في عقبه من: إبراهيم الأكبر، الحسين، زيد، هارون، واتفقوا أنه لم يعقب من: أحمد، جعفر الأكبر، داوود، محمد، سليمان، يحيى، الفضل، علي، عبدالرحمن، القاسم.

وعليه يكون من البديهي صحة نسبة من اتفقوا على أنه أعقب، والشك في من انتسب إلى من اختلفوا في عقبه، واليقين في ادعاء من انتسب إلى من اتفقوا على أنه لم يعقب، ويزيد اليقين بادعاء من انتسب إلى من لم يُذكر في من اتفقوا على أنه أعقب أو اختلفوا في عقبه أو اتفقوا على أنه لم يعقب، أي من انتسب لشخصية مختلقة بالأساس.

- الكثير من الأسر المنتسبة للإمام علي تأخذ ألقابها من المناطق التي سكنتها، وبالتالي فمجرد اللقب يمكن أن يحدث بلبلة وخلطا.

- بعض الأسر لها أكثر من مشجر مختلف إلا في نهاياته إلى الإمام علي ما يضعها جميعاً في دائرة الشك والإيحاء بانعدام أدنى محاولات التحري والتثبت.

- ذكر عدد من النسابة تناسل أحد أشخاص البيت العلوي في اليمن، في حين لا نجد في المشجرات اليمنية من ينتسب لهذا الشخص أمثلة على ذلك: يحيى بن عبدالله بن موسى الجون. وكذا الحسن بن أحمد الناصر بن يحيى الهادي، ومثلهما الحسين بن احمد الناصر بن يحيى الهادي.

الأشخاص المذكورون وغيرهم جاء في كتب أنساب وجود نسل لهم في اليمن بينما لا نرى من ينتسب إليهم في المشجرات اليمنية.

- معظم الأسر المنتسبة للهاشمية العلوية وفقاً للمشجرات اليمنية تنقسم قسمين رئيسيين:

أحدهما القسم الحسني، معظمها عن طريقين:

الأول، القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

الثاني، داوود بن سليمان بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وثانيها، القسم الحسيني، معظمها عن طريق:

جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومنه عن طريقين:

الأول، علي العريضي بن جعفر الصادق.

الثاني، موسى الكاظم بن جعفر الصادق.

وحولها يمكن إيراد الملاحظات التالية بناء على مطابقة المشجرات اليمنية على المشجرات العامة:

القسم الحسني أكثر ضبطاً من القسم الحسيني، وداخل هذا القسم، المنتسبون عن طريق الحسين بن القاسم الرسي أكثر ضبطاً، والمنتسبون إلى موسى الجون عن طريق عبدالرحمن بن عبدالله بن داوود بن سليمان بن عبدالله بن موسى الجون، أكثر ضبطاً.

القسم الحسيني يكاد يكون أغلبه مختلا وغير منضبط.

القاسم الرسي:

اختلفوا في عدد أبنائه وعدد المعقبيين منهم، ويلاحظ الآتي:

- عاصره من النسابة العبيدلي، ولم يذكر للقاسم الرسي عقبا.

- أبو نصر البخاري ذكر له من الأعقاب ستة فقط، هم الحسن، إسماعيل، إبراهيم، يحيى، سليمان، والحسين.

- لم يذكر البخاري أن للقاسم الرسي ولدين، محمد الذي تنتسب له بعض الأسر في اليمن، كما لم يذكر موسى، فيما ذكرهما نسابة متأخرون في النصف الأول من القرن الخامس الهجري بفارق زمني قدره مئة وخمسون عاماً.

- نُسب إلى أبي نصر البخاري القريب زمنياً من عصر القاسم الرسي وأولاده وأحفاده أنه قال: كل من انتسب إلى القاسم الرسي من غير ولد الحسين بن القاسم ففيه نظر، بمعنى أن البخاري يشير إلى أن عقب القاسم الرسي من ولده الحسين فقط.

- نسابة متأخرون قالوا إن القاسم الرسي أعقب من ستة وبعضهم قال إنه أعقب من سبعة من أولاده.

- نسابة لم يذكروا إبراهيم، الذي تنتسب إليه بعض الأسر، من بين أولاد القاسم، بينهم العبيدلي مؤلف تهذيب الأنساب، فيما العمري قال إن عقب إبراهيم الرسي انقرض.

- من أشهر من انتسب إلى القاسم الرسي من جهة ولده محمد – لم يذكره البخاري – أئمة من طريق علي العياني، أبرزهم الإمام القاسم – ونسبه حسب ما ذكره نسابة: الإمام القاسم بن علي العياني بن عبدالله بن محمد بن القاسم الرسي، فيما تراجم أوردت نسبه على النحو التالي:

القاسم بن علي العياني بن عبدالله بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأنه توفي في ٣٩٣هـ وبحساب عمر الجيل ما بين ٣٠-٤٠ سنة يتبين أن النسب الأخير إما أنه لا يصح أو أن هناك سقطاً في اسمين على الأقل من السلسلة إضافة إلى أن النسابة لم يذكروا عبدالله من بين أولاد محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن.

الحسين بن القاسم الرسي:

- ذكر البخاري من أولاده يحيى الهادي فقط، بينما ذكر نسابة متأخرون بفارق يفوق المئة عام ثلاثة أولاد للحسين هم الهادي، عبدالله، علي.

- فيما يذكر نسابة ليحيى بن عبدالله بن الحسين بن القاسم الرسي غير ولده عبدالله الذي قالوا إنه أعقب في الري (مدينة في إيران)، ذكر نسابة بعضهم متأخرون إلى مطلع القرن التاسع الهجري أن يحيى أعقب إلى جانب عبدالله، عبدالرحمن الذي تنتسب إليه كثير من الأسر في اليمن.

موسى الجون:

نسابة لم يذكروا نعمة - الذي تنتسب إليه أسر يمنية - من بين أولاد علي بن داوود بن سليمان بن عبدالله بن موسى الجون، وقلة متأخرون ذكروا اسم رحمة من بين أولاد علي بن داوود ولم يذكروا اسم نعمة، ونذكر هذا من باب احتمال اللبس بين نعمة ورحمة في المخطوطات، كما هي واردة بين عبد الله وعبيد الله، والحسن والحسين، وربما أحمد ومحمد.

علي العريضي:

ينتسب إليه كثير من الأسر في اليمن عن طريق أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق. والملاحظ:

-) اختلف النسابة في عقب أحمد بن عيسى إلا أنهم جميعاً لم يذكروا من بين أولاده لا عبدالله ولا عبيد الله الذي تنتسب إليه كثير من الأسر في اليمن.

-) على افتراض الخلط بين عبدالله بن أحمد بن عيسى وبين عبدالله أو عبدالله الأحنف، أو عبيد الله الأكبر أو عبيد الله الأحول أو عبيد الله الأصغر أولاد عيسى، فإن النسابة اتفقوا على أن جميعهم لم يعقبوا إلا عبدالله الأحنف والأخير عقبه من ولده إسماعيل فقط وليس من غيره.

-) نسابة متأخر في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري يُدعى محمد المدني مؤلف كتاب تحفة الطالب، أي بفارق زمني يتراوح بين ستمائة وسبعمائة سنة نقل عن يمنيين أن لأحمد بن عيسى ولد اسمه عبد الله.

موسى الكاظم:

وهو من أكثر الأسماء التي تنتسب إليه أسر في اليمن في القسم الحسيني، ويمكن إيراد الملاحظات التالية:

- كثير من الأسر في اليمن تنتمي إلى موسى الكاظم عن طريق إدريس بن جعفر الزاكي أو الكذاب -كما تسميه الإمامية- بن علي بن محمد بن علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق عن طريق محمد بن إدريس، وقد ذكر معظم النسابة المتقدمون والمتأخرون إلى نهاية القرن العاشر الهجري أن عقب إدريس من ولده القاسم فقط، ولم يذكروا له

ولداً غيره إلا قلة قليلة ذكروا أن لإدريس ولدا آخر اسمه عبد الله اختلف في عقبه بمصر.

- نسابة اعتبروا كل من ينتسب إلى إدريس من غير ولده القاسم، دعياً.

- من أشهر من انتسب إلى إدريس بن جعفر الزاكي عن طريق محمد - غير موجود باتفاق النسابة - الإمام يحيى بن حمزة الذي تنتسب إليه أسر عديدة بمقدمتها هاشميو حوث، وقد ورد نسبه وفيه سقط أو زيادة اسم كالتالي: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم بن يوسف بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إدريس بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى الكاظم. بزيادة أحمد وسقطه بين محمد وإدريس. مع أن النسابة لا يذكرون لا محمد ولا أحمد من ولد إدريس بن جعفر.

- أسر أخرى في اليمن انتمت لموسى الكاظم عن طريق درويش بن جعفر الزاكي، فيما لم يورد النسابة هذا الاسم بين من اتفقوا على أنهم أعقبوا أو من اختلفوا في أنهم أعقبوا، أو اتفقوا على أنهم لم يعقبوا من أولاد جعفر الزاكي.

- كثير من الأسر في اليمن تنتمي لموسى الكاظم عن طريق عون بن موسى الكاظم، فيما لم يذكره النسابة بين أولاد موسى لا الذين اتفقوا على أنهم أعقبوا، ولا الذين اختلفوا في أنهم أعقبوا، ولا الذين اتفقوا على أنهم لم يعقبوا.

تلك كانت نماذج فقط لاختلالات في مشجرات الكثير من الأسر اليمنية المنتسبة للهاشمية العلوية الفاطمية، ونستخلص من عملية الاستقصاء

والمطابقة بين المشجرات أن بينها الصحيح كسلاسل نسب، وبينها المشكوك فيه، وبينها المقطوع بادعاء أصحابها.

نختتم مسألة الانتساب السلالي بما يشبه الطرفة إذ أن أسرا مصرية تنتهي في مشجراتها إلى محمد المهدي بن الحسن العسكري الإمام الأخير الغائب لدى الشيعة الاثني عشرية، رغم إجماع النسابة على أنه غير موجود وأن الحسن العسكري لم يعقب، ورغم إجماع الشيعة الاثني عشرية -المصرين على وجوده- على أنه لم يعقب وليس له ولد.

المصادر غير الإسلامية للتشيع

كثيراً ما نجد نقاطاً مشتركة بين مختلف الأديان سواء على مستوياتها الغيبية أو النظامية التشريعية، مما يوحي بأحد احتمالين أو كليهما معاً.

الأول أن الأديان كمحاور مركزية في الثقافات تخضع لما تخضع له الثقافات من تلاقح وتأثر وتأثير، أما الثاني وهو الأسبق في احتمالية حدوثه يشير إلى وحدة مصدر الأديان لاسيما بالنظر إلى قواسم مشتركة في ديانات شعوب بدائية مشتتة في أنحاء العالم. وما يجري على سائر الأديان يجري على الدين الإسلامي الذي أثر في ديانات أخرى وتأثر بها، ولعل المشكلة -إن كانت هناك مشكلة - لا تكمن في حتمية عملية التأثر والتأثير وإنما في انضباط العملية خصوصاً ما يتصل بالتأثر وعمقه ومداه، وما إذا كان التأثر قد تغلغل لحد المساس بهوية وخصائص الدين المعين المميزة له عن غيره.

يمكن القول إن معظم الأديان تتشكل من دائرتين رئيسيتين، إحداهما تنظم العلاقة بين الإله والإنسان على المستوى الفكري والعملي وتشمل المضامين الغيبية، كماهية الخالق وبدء التكوين، والمضامين الطقوسية والشعائرية. وتتسم هذه الدائرة عموماً بقدر كبير من الرمزية، ومسألة الترميز أمر طبيعي في هذا النوع من العلاقة لاختلاف الكينونتين الإلهية والبشرية وحاكمية وعلو الأولى على الثانية، ما يجعل تفسير رموز العلاقة شأناً إلهياً صرفاً يصعب على الكينونة البشرية تأويلها ومعرفة غاياتها دون الوقوع في اختلافات لا طائل منها ولا نهاية واضحة لها وبهذا المعنى يقول تعالى "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ

الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"[1]، وبحسب المصطلحات الفقهية الإسلامية فهذه الدائرة الرمزية في أغلبها توقيفية لا اختصاص بشري فيها ولا فائدة دنيوية مباشرة تترتب عليها. فنحن كمسلمين نجهل كنه الحقيقة الإلهية خارجاً عما ذكره القرآن الكريم، ولا نعرف مقاصد وغايات أداء شعائر وطقوس بالكيفيات التي أمرنا بها، فلا اختصاص للإنسان في إدارة هذه العلاقة خارج عملية الامتثال. أما الدائرة الثانية فهي حياتية تنظم علاقة الإنسان بالإنسان، وتشمل المضامين الأخلاقية القائمة على الضمير، والمضامين التشريعية والقانونية، وهذه الدائرة من العلاقة تتسم بالوضوح أكثر من الترميز، ولأنها علاقة بشرية بشرية فهي تتسع لمساحة من الفعل الإنساني في ضوء المؤشرات الإلهية.

لكن الحاصل أن اليد البشرية تدخلت كثيراً في الدائرتين، تجلت إحدى صور هذا التدخل في الاستقاء المتبادل بين الأديان، ما أسهم في صناعة تشققات وانشقاقات داخل الدين الواحد ناجمة عن تغليب مصدر دون مصدر، ومدى السماح للتأثير الوارد في تكوين مساحاته الخاصة.

بتنزيل ما سبق على الدين الإسلامي، يمكن التأكيد مجدداً على وجود قواسم مشتركة بينه وبين أديان أخرى على مستوى الدائرتين، في جوانبها الغيبية والطقوسية، والأخلاقية والتشريعية، ولعل هذا المشترك يمثل النسبة الأكبر -إن جاز إعطاء نسب في هذا الشأن- لاسيما مع الأديان السماوية المعروفة اليوم. ففي الجوانب الغيبية، الله، الملائكة، الشياطين، الجنة، النار، الآخرة (بعض الفرق اليهودية لا تؤمن بالآخرة)، والقصص المتعلقة بالسابقين، أو دعونا نقول الأساطير دون أن نعني باللفظ أنها لم

١- آل عمران ٧.

تقع، وفي النواحي الطقوسية، الصلاة والصيام والحج، والتلاوة، والقرابين، ومن النواحي التشريعية أو القانونية القصاص وبعض الحدود والعقوبات.

أما ما يعطي النقاط المشتركة خصوصيتها الإسلامية فهو مجيئها عبر النبي محمد عليه الصلاة والسلام من خلال القرآن والسنة.

وبذلك لا يمكن القول إن تحديد عدد الصلوات يومياً بخمس مرات وبوضوء أو طهارة تسبقها مستقاة من الديانة الزرادشتية الفارسية أو الصابئية المندائية، أو أن قصاص النفس بالنفس، والسن بالسن أتى من تشريعات العهد القديم أو من الديانة اليهودية، أو أن الطواف حول الكعبة بقايا طقوسية وثنية. وغيرها من الأمثلة التي لا يمكن القول بها وتجريدها من سمتها الإسلامية. أما السبب فيكمن في أنها اكتسبت خصوصياتها وهويتها الإسلامية ومن ثم مشروعيتها بوصولها إلينا من خلال نبينا. فيكون هو الضابط والمرجعية البشرية الوحيدة بالنسبة لنا كمسلمين في إكساب المواقف الفكرية والعملية مشروعيتها الإسلامية. وبانقطاع النبوة بوفاته عليه الصلاة والسلام تبقى أي مواقف تالية بما فيها الاستقاء من الأديان الأخرى حالات اجتهادية لا ترتقي لأي مستوى من القداسة، وتظل خاضعة للنقد في ضوء التعليمات الإلهية الواردة إلينا عبر نبينا والمدونة بشكل يقيني في القرآن الكريم، وبقدر أقل يقينية في كتب السنة.

على خلاف أديان أخرى بدأ الشقاق في المجتمع الإسلامي على أساس سياسي تمخض عن نشوء ثلاث فرق أساسية هي السنة، والشيعة، والخوارج. مع الإشارة إلى أن اكتمال بنياناتها الفكرية أخذ بالمجمل ثلاثة قرون من الهجرة إلا في ما يخص إلى حد ما الفرقة الخارجية. وكان منشأ

افتراقها الموقف من استحقاق خلافة النبي. وفي سعي كل منها لبناء هوية خاصة لجأت كل فرقة إلى الاستعانة -بوعي أو بدون وعي- بأدوات فكرية تقع خارج المربع الإسلامي، ومن ثم القيام بأسلمة هذه الأدوات لتحظى بالقدسية والمشروعية. بيد أن درجات الاستقاء من المصادر الخارجية تفاوتت بين هذه الفرق، بل وبين المذاهب المتفرعة من كل فرقة.

النسخة الفارسية للإسلام

وعلى العموم يمكن القول إن جميعها تأثرت في النواحي الغيبية العقائدية، والطقوسية، والنظامية التشريعية، إلا أن الفكر الشيعي تميز باختزال قضيته الدينية في المسألة السياسية التي أعاد تدويرها في نطاق مقدس من خلال فتح الباب على مصراعيه لتأثير الأديان الأخرى وتحديداً الديانات الفارسية في مساحات مهمة في الدائرة الغيبية الرمزية في مجالاتها العقائدية والطقوسية الشعائرية، والأسطورية. لكن لماذا الديانات الفارسية الأكثر تأثيراً في الفكر الشيعي؟ ويرتبط بهذا سؤال آخر، لماذا الفرس من أكثر الشعوب تفاعلاً وتقبلاً للفكر الشيعي؟

في صدد الإجابة عن السؤال الأول ينبغي الإشارة إلى مفهوم الديانات الفارسية الذي لا نقصد به هنا دينا بعينه، كما لا نقصد بفارس بقعة الأراضي الجغرافية الواقعة داخل حدود الدولة الإيرانية اليوم، ولا بالفرس ذلك العرق المنتمي في أصوله إلى الشعوب الآرية، فعندما نتحدث عن الفرس وفارس فإن المقصود هو نطاق ثقافي لا ينحصر داخل حدود الدولة الإيرانية، وإن كانت تمثل مركزه راهناً، ويتعدى العرق الفارسي الآري -غير النقي- وبطريقة مشابهة فالمقصود بالأديان أو الدين الفارسي هنا مجموعة التفاعلات الثقافية والدينية التي أنتجت ثقافة

فارسية مركزها الدين، وأسفرت عن ديانة فارسية شديدة التمازج بديانات أخرى أملتها الخلفية الحضارية والموقع الجغرافي لفارس. أما الخلفية الحضارية فكون فارس كمجال حضاري تترابط عضوياً بحضارات العراق القديمة من سومرية وبابلية وأشورية قبل أن تكون وريثتها منذ القرن السادس قبل الميلاد، إضافة إلى أن الإمبراطورية الفارسية التي أسسها كورش تحددت في نطاق حضاري واسع يشمل الشام بمكوناتها الدينية والثقافية من آرامية، وكنعانية بوليديها الفينيقي والعبري، وحتى مصر. ثم الاحتكاك اليوناني فالروماني بمكونهما الديني بما فيه المسيحية.

أما موقعها الجغرافي فقد أتاح لها مجال احتكاك آخر مع الديانات الهندية. ما جعل الدين الفارسي بمدييه الغيبي الرمزي والحياتي خليطاً متأثراً - ومؤثراً بطبيعة الحال - بالديانات الهندية من هندوسية وبوذية وجانتية، والعراقية القديمة، والشامية من يهودية ومسيحية، والفارسية المنشأ وبمقدمتها الزرادشتية وتفرعاتها المانوية، والمزدكية كخليط من الزرادشتية والمسيحية.

وفي الإجابة عن السؤال الثاني الخاص بعوامل الانخراط الفارسي في الحالة التشيعية من الملائم التنويه إلى أن التشيع ظهر في العراق، وتحديداً الكوفة حاضرة الشرق الإسلامي الذي كان بصورة أو بأخرى مرادفاً لفارس. حتى في صيغة المكون العربي للكوفة في أوائل عهدها الملاحظ أنه كان من القبائل اليمنية - بعكس البصرة التي قطنتها قبائل مضرية - ومن المعروف أن اليمن كانت موطن ديانات مختلفة بينها اليهودية والمسيحية، وكانت موطن احتكاك أساسي بالمجال الفارسي عبر خضوعها للسيادة الفارسية لعدة عقود، وبالتالي توافرت في بعض قبائل الكوفة اليمنية قابلية الامتزاج بالثقافة الفارسية.

بعد أن أصبحت الكوفة (وعاد العراق عموماً) مركزاً للثقافة الفارسية -كما كان لقرون طويلة- بدأت مكونات الفكر الشيعي تنبت وتتطور هناك بفعل عدة عوامل.

قد يقال إن منبت التشيع لعلي كان في المدينة ومنذ عهد النبي وبشكل أبرز عقب وفاة النبي بتشكل مجموعة من الصحابة حوله وتأييدهم لاستحقاقه الخلافة. وهذا الأمر صحيح إذا كنا نتحدث عن صداقات ومواقف من الطبيعي أن تظهر مع هذا أو ذاك إلا أن التشيع المقصود هو المنظومة الفكرية والإيديولوجية.

من أهم التفسيرات للتشيع الفارسي الذي يصر عليه السنة -كمبرر- وينكره الشيعة رواية تتحدث عن زواج إحدى بنات يزدجر آخر أكاسرة فارس بالحسين بن علي وبقاء عقب الأخير منها فقط تمثلاً في زين العابدين علي بن الحسين.

الشيعة عموماً لا تنكر حادثة الزواج بل تضيف عليها قصصاً أسطورية، ما تنكره هو أنها أساس تشيع الفرس باعتبار أن الأمر لو كان كذلك لانقسموا في تشيعهم بين علي، وعبدالله بن عمر، ومحمد بن أبي بكر - جد جعفر الصادق - كونهم جميعاً تزوجوا من ثلاث بنات ليزدجر أسرن عند فتح المدائن أوائل السنة السادسة عشرة للهجرة.

وتكمن أهمية القصة في مكونها السلالي حيث تفترض أن النطفة الرفيعة الساسانية تمازجت مع النطفة الرفيعة العربية، وبالتالي استمرارهما معاً في زين العابدين وذريته.

قصة التزاوج هذه أنكرها المفكر الإيراني الشهير علي شريعتي الحاصل على شهادتي دكتوراه في التاريخ والاجتماع، على أساس أن شهربانو بنت يزدجر أنجبت زين العابدين بعد أكثر من ٢٠ سنة من زواجهما المفترض.

وبمقارنة التواريخ أسوة بطريقة شريعتي يورد المؤرخون أن يزدجر قتل عام ٣١ هجرية عن عمر ٢٨ سنة، وعليه تكون ولادته في السنة الثالثة أو الرابعة للهجرة، وإذا كانت المدائن فتحت أوائل السنة السادسة عشرة فإن سن يزدجر حينها يكون ١٣ أو ١٢ سنة وهو سن دون البلوغ الجنسي الذي يمكنه من الإنجاب، فكيف أنجب عدة أبناء بينهم الثلاث الأسيرات. إلى جانب ذلك لم يكن الإمام الحسين وقتها قد بلغ سن الزواج. للخروج من إشكالية سن الحسين قيل إنه تزوجها في السنة الثامنة عشرة وعمره ١٥ سنة، وهذا يناقض الروايات التاريخية التي توحي بأن الزواج كان حلا اقترحه الإمام علي بن أبي طالب للخليفة عمر بن الخطاب بأن لا تعامل بنات الملوك كغيرهن من السبايا -الواصلة من الخمس- ببيعهن لصالح بيت المال. رغم أن أحد مؤشرات اختلاق الرواية ما عرف عن الإمام علي من إيمانه وانتهاجه مبدأ المساواة.

قصة الزواج، مع ما أعطي لها من أهمية عند الشيعة والسنة تتلاشى أمام النقد العلمي والتاريخي.

ربما قد يكون تشيع الفرس ناجماً -كأحد العوامل- عن العلاقة الخاصة المفترضة بين سلمان الفارسي والإمام علي واعتبار سلمان من أوائل المتشيعين لعلي، ما أدى لاختلاق أحاديث تمجد سلمان بينها "سلمان منا آل البيت"، والموقع المهم لسلمان في الفكر الشيعي لدرجة أن بعض فرق الشيعة المتطرفة اعتبرته أحد أضلاع الصبغة الإلهية إلى جانب النبي والإمام علي.

وقد يكون أحد أسباب التشيع الفارسي ما نسب للإمام علي من عدم التفريق بين العرب والموالي مقارنة بمن سبقه من الخلفاء، وهذا الأمر طبعاً غير صائب على إطلاقه.

وقد يكون من عوامل التشيع الفارسي نقل الإمام علي عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة حاضرة الشرق الفارسي في العهد الإسلامي.

غير أن من أهم الأسباب وراء التشيع الفارسي هو تفاعلات المقاومة الفارسية للإسلام سواء في عملية الفتح التي استغرقت سنوات أو في انتفاض الكثير من المدن الفارسية على الإسلام مراراً خصوصاً بعد استشهاد عمر بن الخطاب. ثم انتهاء الخلافة إلى الأمويين الذين اعتمدوا على العرب في الحكم وإدارة الدولة الإسلامية على حساب الموالي وبينهم الفرس الذين مالت نفوسهم لمعارضة الحكم الأموي لاسيما بعد أن كان الإمام علي وأبناؤه رمزاً لمواجهة البيت الأموي، إلى جانب الخوارج، وبعد أن أخذ الصراع بُعدا إقليمياً، بين الشاميين والعراقيين فكان الأولون قاعدة الحكم الأموية وكان الآخرون قاعدة معارضة هذا الحكم.

اللافت في ميول الفرس للمعارضة أنهم مالوا للتشيع أكثر من ميلانهم للخوارج. مع أن المنطق السياسي يفترض انخراطهم في الحركة الخارجية لا التشيعية، كون الفكر السياسي الخارجي يساوي في استحقاق الخلافة بين القرشيين وغير القرشيين، والعرب وغير العرب. خلافاً لبذور الفكر الشيعي التي تختزل قرشية الفكر السني إلى حصر استحقاق الخلافة في البيت العلوي الفاطمي خصوصاً. وهو بواقع الحال بيت قرشي عربي، ومن ثم إذا كان الصراع مع الأمويين بالنسبة للموالي قد أخذ بُعداً قومياً -إذا جاز إسقاط التعبير على ذلك الوقت- فكان الفكر الأقرب للتمكين من نزع السيادة العربية هو الفكر الخارجي لا الشيعي.

وهنا يأتي السبب الجوهري في الميل الفارسي للتشيع ألا وهو تأثير المخزون الديني الثقافي الفارسي، الذي يمكن معه وصف الفكر الشيعي عموماً بأنه النسخة الفارسية للإسلام.

يتميز الفكر الشيعي عموماً بخصائص تنبثق عن مقولتين رئيسيتين تتلخصان في الاصطفاء الإلهي وتوارث الاصطفاء. وفي سبيل تثبيت وترسيخ المعتقدين استعار أدوات فكرية ذات منبت غير إسلامي لتشكل مميزات وقاعدة ناظمة للاستشهادات الشيعية وتفسير، واختلاق، نصوص دينية إسلامية تؤمّن استمرار المقولات الشيعية في نفوس المتشيعين، يمكن التطرق لبعضها في الآتي من النقاط المترابطة في مفاهيمها:

١. **مركزية الإمامة:** لعل هذه الأداة الفكرية مستقاة بصورة غير مباشرة عن الديانة المسيحية، والبوذية بدرجة أقل، فكلا الديانتين حورت نفسيهما في شخصيتي المسيح وبوذا، فأصبحت الأطروحات اللاهوتية - رغم أن البوذية بالأساس ديانة سلوكية لا غيبية - تدور حولهما.

وبصورة أكثر وضوحا استُعيرت فكرة الإمامة -قبل أسلمتها- من الديانتين الزرادشتية واليهودية المتمحورتين في زرادشت ويعقوب وذريتهما. وبشكل مقارب حور الفكر الشيعي الإسلام في مقولة الإمامة وحول أشخاص الأئمة ففسروا عديد آيات قرآنية بمتعلقات الإمامة، واختلقوا الكثير من الأحاديث والأساطير الدائرة حول الإمامة حتى ظهرت مقولة الدين هو الولاية، أي ولاية الإمام علي وذريته.

٢. **مسحة القداسة على الأئمة:** مما كان سائداً في الديانات القديمة اصطباغ الملك بالمسحة الدينية والإلهية، فكان هو الإله ذاته، أو ابن الإله،

أو وكيل الإله في الأرض والكاهن الأعظم الذي يعبر عن إرادة الإله، أو الإنسان النصف إلهي. وفي بعض الحالات كان الإنسان المميز مخلوقاً من أجزاء إلهية. ومن تجليات ذلك في الفكر والوجدان الشيعي مادة الخلق النورانية للأئمة والعصمة منذ الولادة حتى الوفاة، غير ما نسب لهم من خوارق وخصائص فوق بشرية.

٣. **استمرارية الوحي الإلهي:** بشكل أو بآخر، ويتكشف من خلال تصريحات مرتبطة بتواصل الأئمة مع الله عن طريق وسائل إيحائية إلهية كالإلهام، أو العلم اللدني.

٤. **النزعة الكهنوتية:** وهي نزعة سادت كل الأديان، وانتقدها الدين الإسلامي، يقول تعالى "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ"[١]، فصار التلمود مساوياً بل ومتقدماً على العهد القديم بما فيه التوراة في تشكيل الموقف العقلي والوجداني والسلوكي لليهود.

وتتجلى النزعة الكهنوتية في الأدبيات الشيعية من خلال الاعتقاد بالإلهام الإلهي للأئمة أولاً، وإفاضة هؤلاء لبعض أسرار العلم على خواصهم دون غيرهم من الناس ثانياً، وعبر هذا التخصيص بالإفاضة العلمية احتكر الخواص العلم واحتكروا معه حق التفسير للمراد الإلهي، وبالتالي انقسم العلم الديني إلى ظاهر وباطن، الباطن منه هو الجوهر والأئمة هم الأقدر على معرفته وعنهم احتكره الخواص، ما فتح الباب على مصراعيه لإمكانية الإضافات الدينية حتى على الدائرة الرمزية – الغيبة والطقوسية– وإعطائها نفس درجة القداسة والإلزامية للنص الديني الوارد عبر النبي، أكان قرآناً أو سنة. ونتيجة لهذا الاحتكار التفسيري للمراد الإلهي عبر الإمام أو وكلائه عززت المؤسسة الكهنوتية،

---

١ ـ التوبة ٣١

تأسياً بكهنوتية ديانات مختلفة هندوسية ويهودية ومسيحية، دورها وسطوتها في حياة الناس باستقطاعها جزءاً من مدخولاتهم المالية للقيام بدور الوساطة بينهم وبين الله، ما يؤمن لهذه المؤسسة سلطة روحية وسياسية بصرف النظر عن موقف السلطات السياسية الزمنية منها.

٥. **التضحية والاستشهاد:** كان الموقع المعارض أغلب فترات التاريخ الإسلامي للجماعات الشيعية ضد السلطات الرسمية وانكساراتها المتكررة عاملاً في البحث عن أدوات إيديولوجية تحول الشهادة إلى منظومة تعبوية للوجدان الشيعي، فكانت الأديان القديمة هي المخزن الذي يمكن اللجوء إليه، وتولت المسيحية توفير تلك الأدوات، فظهرت نتيجة لذلك كثير من الشعائر والطقوس غير الواردة في المرجعيات الإسلامية. وبخاصة في العهد الصفوي وما تلاه من سيطرة قائمة اليوم على معظم المجال الشيعي. فكان الحسين هو المسيح الذي أريق دمه لخلاص الأمة.

٦. **النزعة الطبقية التمايزية:** وهي نزعة تتعدد أصولها، غير أن أبرزها جاء من الديانة الهندوسية الهندية، والزرادشتية، واليهودية التي تجعل الكهانة اختصاصا حصريا في أولاد ليفي ثم في نسل هارون. وتتمظهر النزعة التمايزية داخليا لدى الشيعة في الألقاب المضافة إلى كل إمام على حده وذرياتهم إلى جانب اللقب العام كالسيد والشريف، وكذا في اللباس وغيرهما من المظاهر. لكن النزعة التمايزية لناحية صلتها بالهوية تتحدر بصورة رئيسية من الديانة اليهودية حيث تسكن هذه النزعة الحركة التاريخية والفكرية للأمة اليهودية.

٧. **المظلومية:** قمع السلطات عبر التاريخ الإسلامي لحركات التمرد المنسوبة للعلويين والشيعة ولد ميلا عارما لاستعارة تنظيرات الفكر اليهودي وامتداده المسيحي -إلى حد ما- لتأطير إحساس المظلومية في

أنساق فكرية، اعتقادية، وشعائرية، ليشكل مفهوم المظلومية والنزعة التمايزية عاملين أساسيين في تكون الهوية الشيعية الخاصة.

٨. النزعة الانتقامية الثأرية: وتتمظهر هذه النزعة لدى الشيعة في ترانيم وقصائد ومسرحيات وخطابات المناسبات المختلفة. وتنبع هذه النزعة الانتقامية من معتقدات المخلّص ومعركته الفاصلة بين الخير والشر، المؤمنين وغير المؤمنين، كما هي الحال في العديد من الديانات بمقدمتها الديانة الزرادشتية، واليهودية، والمسيحية. فمعركة هرمجدون -المتسربة إلى التراث السني الإسلامي كذلك - لدى اليهودية والمسيحية تتجلى كوضع انتقامي في آخر الزمان. وكل طائفة ودين يحمل معتقد المعركة الفاصلة والمخلص يجير الخير لصالح منتسبيه. ويتولى الفكر الشيعي هذه الوجهة بقوة في مقولة المهدي المنتظر الذي ستكون من أبرز مهامه الثأر من غير الشيعة ابتداء بأبي بكر الصديق.

٩. **النزعة الأسطورية**: يمتلئ التراث الشيعي في تأثر واضح بالديانات الهندية وإلى حد ما الزرادشتية بالكثير من الأساطير، من بينها على سبيل المثال لا الحصر خوارق الأئمة، والولادة غير المألوفة بشريا للرموز الدينية، كولادة المهدي في الحالة الشيعية.

أوجه الشبه بين الأديان الأخرى والتشيع

في ناحية الاستعارات من الأديان الأخرى للفكر الشيعي على الدائرة الرمزية العقائدية والطقوسية -التوقيفية على الله- نورد بعض أوجه الشبه بين الأديان غير الإسلامية والتشيع:

- **المهدي**: يأتي آخر الزمان من نسل زرادشت من يحيي الدين ويقضي على الظلم وينشر العدل، هذا في الديانة الزرادشتية. وفي بعض فرق البوذية لا يزال "دلاي لاما" الذي اختفى في دير بوتالا العظيم يطل على مدينة لاهاما، موقع عقيدة عند أهل التبت "بوذا المنتظر". وهذه عقائد شديدة الشبه بعقيدة المهدي المنتظر من نسل النبي، مختفٍ في سامراء ويعيش في هذا العالم، ويظهر في آخر الزمان للثأر من الظلمة ونشر العدل.

- **الوحي**: في الدين البابلي لا شيء يمكن أن يعرف إلا بالوحي الإلهي، وفي الزرادشتية قرارات الملك وأحكامه يوحيها إليه الإله. وهذه تشبه إضفاء القداسة لدى الفكر الشيعي على الأئمة واستمرار اتصالهم بالسماء.

- **الكهانة**: في الدين اليهودي لم يكن أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرابين بالطريقة الصحيحة أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية تفسيراً آمناً من الخطأ. وفي الدين الهندي (الهندوسي) الخلاص الكامل لأعلى الأرواح وأكملها، ومن هؤلاء تتكون طائفة "الأرهات" أي السادة المعظمون، كما أن من حق البرهمي السيادة على سائر الكائنات. وهي صور متشابهة لدور الإمام ورجل الدين الشيعي المتدرج مثل البرهمي إلى منصة الوكالة عن الإمام، في التوسط بين الله والناس وما يستتبعه من هيمنة وسيادة عليهم.

- **المال الكهنوتي**: في الدين المصري لم تكن الحياة الصالحة سبيل السعادة الأبدية بل السحر والطقوس وإكرام الكهنة، وفي الدين البابلي كان الأغنياء والفقراء يخصصون للهياكل من مكاسبهم الدنيوية، وفي الدين الهندي كان رأس التقوى السخاء في رسوم تقديم القرابين للكهنة. وهي معتقدات مشابهة لمركزية مسألة دفع الشيعة جزءاً من مدخولاتهم المالية على المرجعيات.

- **العلم الخاص**: في الدين الهندي الحقيقة المطلقة لا تتكشف إلا لهؤلاء المخلّصين للبشر الذين يظهرون على فترات منتظمة "الجنا"، وفيه أن أسرار المعلم يمنحها لخيرة تلاميذه وأحبهم إليه. وفيها تشابه في معتقدات التشيع عن العلوم الخاصة واحتكار الحقيقة وإيداعها من الأئمة لتلاميذهم المقربين.

- **العلم الباطني**: في الزرادشتية نزعة باطنية في تفسير المراد الإلهي، والنصوص المقدسة ذات ظاهر حرفي وباطن جوهري، وفي الدين الهندي لا ندرك أتمان (روح العالم) بالتحصيل، بل بالبصيرة، البصر الباطني للعقل. وهذا المعتقد والأسلوب يشابه ما يعتقده الشيعة ويفسرون على أساسه الكثير من النصوص القرآنية.

- **عقدة الذنب**: الشعور بالذنب تفيض به ترانيم البابليين، والخطيئة هي الفكرة الأساسية في الدين اليهودي[1]، والمسيحي. وهي تشابه عقدة الشيعة بالأخص فيما يتعلق بخذلان الأئمة.

١- وقد حذر القرآن أتباع المسيحية واليهودية من التأثر بسابقيهم من الديانات الأرضية "قل يا أهل الكتاب لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل".

- **النحيب**: الدين البابلي والفارسي القديم، والكنعاني، احتفالات بذكرى وقائع مأساوية لموت كائن مقدس في يوم يحزن فيه المحتفلون وينتحبون ويبكون، ولا يخفى ما فيها من تشابه مع مجالس عزاء الشيعة في أئمتهم لاسيما في الحسين.

- **المواكب**: في الدين البابلي كان أهم ما يجب أن يعمله البابلي التقي الاشتراك في المواكب الطويلة التي كان الكهنة ينقلون فيها صورة "مردك" من هيكل إلى هيكل ويمثلون فيه مسرحية موته وبعثه المقدسة، وكذلك في الديانات الفارسية القديمة مواكب حزن ونحيب وضرب على الصدور، وفي الأعياد الدينية الكثيرة لدى البوذية كان الناس يسيرون في مواكب عظيمة أو أفواج من الحجاج قاصدين إلى الأضرحة القديمة. وهي تشابه مواكب الشيعة ومراسمهم التمثيلية في مناسباتهم وزياراتهم أضرحة أئمتهم.

- **الترانيم**: لدى المصريين القدامى ترانيم نصوص الأهرام، وفي ترانيم البابليين أو أناشيد التوبة ينشدها الكهنة والمصلون وهم يتمايلون. وفي الدين اليهودي والمسيحي كانت تقام في الهياكل الأغاني والمراسيم. وهذه تشابه ما يعمله الشيعة في المساجد والحسينيات، التي تمثل الترانيم وأداؤها بأساليب غنائية مع حركات تمايل المظهر الطقوسي الأبرز.

- **الحجارة المقدسة**: ظلت أقلية كبيرة من اليهود تسجد للحجارة المقدسة، ويغسل البوذيون حجر "اللنجا" في معبد "رامشفارام" كل يوم بماء الكنج، ثم يباع فيما بعد للمتدينين. وهي تشابه صنع أحجار خاصة من تربة النجف تباع للشيعة الاثني عشرية للسجود عليها.

- **مادة الخلق**: في الزرادشتية قصة الحمل الإلهي المقدس بزرادشت، إذ أن ملاكاً تسرب إلى نبات، وانتقل في عصارته إلى جسم كاهن، في الوقت ذاته دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب،

وتزوج الكاهن بالفتاة، فامتزج الملاك والشعاع، فنشأ زرادشت من هذا المزيج. وفي ديانات أخرى قصص مشابهة. وهي تماثل اعتقادات الشيعة بمادة الخلق النورانية للأئمة، وتمازج النطفتين الساسانية والفاطمية في زواج الحسين من ابنة يزدجر وإنجابهما زين العابدين علي بن الحسين.

***

كانت تلك أمثلة من استقاء التشيع لمعتقدات غيبية وأساليب طقوسية -خاصة بالعلاقة بين الإله والبشر أو بالدائرة الرمزية- من ديانات أخرى خارج الدين الإسلامي. ويوجد غيرها الكثير خصوصاً إذا قارنا أوجه الشبه بين أساطير شيعية وأساطير ديانات ثانية، لكن تم الاكتفاء بالأزيد بروزا وظهوراً وارتباطاً بأساسيات الفكر الشيعي.

ونختتم هذا القسم بنقل بعض من أقوال المفكر الشيعي الإيراني علي شريعتي من كتابه "التشيع العلوي والتشيع الصفوي". يشير إلى أن النظام الصفوي استحدث منصباً وزارياً جديداً باسم وزير الشعائر الحسينية (القرنين السادس عشر والسابع عشر). وذهب وزير الشعائر الحسينية إلى أوروبا الشرقية وأجرى هناك تحقيقاً حول المراسيم الدينية والطقوس المذهبية والمحافل الاجتماعية المسيحية وأساليب إحياء ذكرى شهداء المسيحية والوسائل المتبعة في ذلك واقتبس تلك المراسيم والطقوس وجاء بها إلى إيران، ومن تلك المراسيم النعش الرمزي والضرب بالزنجيل والأقفال والتطبير واستخدام الآلات الموسيقية وأطوار جديدة في قراءة المجالس الحسينية جماعة وفرادى.

كما تضمنت مراسيم العزاء المسيحي تمثيل حياة شهداء الحركة المسيحية الأوائل وإظهار مظلوميتهم وطريقة قتلهم بواسطة حكام الجور والشرك وقياصرة الروم، وكذلك التطرق لسيرة الحواريين ومأساة مريم وبيان فضائلها وكراماتها ومعاناتها، والأهم من ذلك تجسيد مأساة عيسى المسيح أي المصائب passions، وهو مصطلح يطلق على مجموع هذه المراسيم التي اقتبسها الصفويون وأدخلوها إلى التاريخ الشيعي لتصبح جزءاً من الهوية الشيعية وتستخدم في تجسيد المصائب التي تعرض لها أهل البيت والزهراء والإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه.

الدور الفارسي..
قديما وحديثا

برز في العقود الأخيرة ما يمكن وصفه بالظاهرة الإيرانية كعامل سلبي، وأكثر من ذلك عدائي، ينال من استقرار المنطقة العربية القريبة من مركز الظاهرة، الدولة الإيرانية.

ولعل من القصور تفسير السلوكيات الإيرانية تجاه الجيران العرب تحت العنوان السياسي، الذي لا يستحق الكثير من العناء لإيجاد مقاربات تخدم العرب والإيرانيين في ذات الحين.

ولا نتجاوز الحقيقة إذا أرجعنا الظاهرة الإيرانية -الفارسية- إلى خلفية ثقافية حاكمة ومؤثرة في المظهر السياسي، وإن كان ما يتبدى في سياق التتبع التاريخي من خفوت تأثير الخلفية الثقافية فليس إلا بسبب توافر الظروف أو تضاؤلها.

الواقع أن الثقافة المخزونة في الذهنية والنفسية الفارسية لقيت تحديا حقيقيا من الإسلام كدين وحامل بذور ثقافية تغاير أساساتها، أساسات ثقافة الفرس، وتتميز بقوتها التأثيرية الجارفة النابعة من الحافز الديني، خلافا لتحديات سابقة كاليونانية أمكن التحكم في مسارات تدفقها، فكان أن طور الفرس، بوعي أو بدون وعي يتحرك بحافز اللا شعور الجمعي، وسائل مقاومة سعت لتصدر المشهد الإسلامي بهدف رعاية البذور الثقافية الإسلامية الناشئة وتدويرها داخل الخلفية الثقافية الفارسية لإنتاج نسخة فارسية للإسلام ككل، إلى جانب ما يمكن بثه في محاولات تطوير مستقل للثقافة الجديدة وفق الموجهات الدينية الإسلامية الأصيلة وبواسطة الجهد العربي، الناقل الأول للرسالة الإسلامية.

وفي الجدارية الثقافية تقف عقدة التفوق الفارسي حيال العرب وإلباسها مبالغات استعلائية للهوية الفارسية خلقت وعياً زائفاً ليس لدى الفرس فقط، وإنما عند بعض العرب، بكون مناطق عربية بسكانها تشكل مجالات نفوذ فارسي تقليدي منذ فترات الصراع الروماني الفارسي، ولهذا يجب أن تعمل الدول الإيرانية أياً كان توجهها أو إيديولوجياتها الحاكمة على إبقاء الشرق العربي تحديداً في نطاق التبعية الفارسية.

نحاول في هذا القسم التناول العاجل لقضايا ثقافية كامنة وراء طبيعة العلاقات العربية الفارسية، ونتوخى مسارها بشكل رئيسي في الإطار الإسلامي، وما تركته من ملامح ثقافية، ومن تداعيات سياسية على المنطقة منذ بداياتها إلى الوقت الحاضر، سواء عبر المركز الفارسي الإيراني أو بواسطة الأذرع وردود الفعل، متطرقين إلى مسائل سياسية ذات جدل، من أهمها العلاقات الإيرانية الأمريكية الإسرائيلية، ودور حزب الله، وقصة القاعدة وداعش -أما الحوثيون فربما نفرد لحركتهم ملفا خاصا- وما لذلك من إسهامات في رسم اللوحة العربية في الفترة الراهنة. لا نستهدف هنا كشفا جديدا، وإنما إعادة لفت نظر ذاكرة بعض المستمتعين العرب بالصلاة نحو القبلة الإيرانية.

في البدء، من المناسب الإشارة إلى أن التطرق لتصنيف الهويات لا يعني بأي حال التقسيم العرقي لأن هذا النوع لا يصمد أمام الحقائق العلمية ولا حتى الواقع التاريخي، ولذلك فالحديث عن فرس أو إيرانيين لا علاقة له بالأبعاد العرقية، رغم ما توحيه اللفظتان من انحدارات سلالية من

القبائل الفارسية أو الآرية، والأمر ذاته بالنسبة للعرب، كما لا تقتصر هذه المفاهيم على البعد الثقافي المحض، مع ما يمثله من عامل حاسم في تشكيل الهوية باعتبارها في جوهرها سلوكيات للتعاطي مع الذات والآخر نابعة من رؤى أساسية للعالم تراكمت عبر الأجيال، وأسهمت في تأليفها عوامل دينية وتاريخية ولغوية وجغرافية، ولتكتمل الهوية لابد أن يرافقها الوعي بها، وكثيراً ما يكون هذا الوعي زائفاً وواهماً، مثل ما هو في الحالة الفارسية أو الإيرانية، متضخم الأنا مع أن الوقائع التاريخية تدحضه.

فمن حيث العمر الزمني تتضاءل الحضارة الفارسية أمام حضارات العراق ومصر، ومن حيث الناتج الحضاري، فعدا بعض تقاليد دبلوماسية، وآداب البلاط، وقليل من الآثار المادية، تتصاغر حضارة الفرس مرة أخرى في وجه ما خلفه سكان الرافدين والمصريون من آثار وتأثير وما قدمه اليونانيون من علوم، أو الهنود من حكمة، أو اليمنيون والفينيقيون من بذور الكتابة الأبجدية وتزويج اللفظ المنطوق بالحرف المكتوب وانتشاره وتأثيره في ازدهار العلوم والمكونات الحضارية وتناقلها بين شعوب العالم وأجياله.

إذن، طالما والعطاء الحضاري للفرس كان متواضعاً لدرجة أنه حتى الديانة الزرادشتية ظلت ديانة غير تبشيرية خارج المجال الفارسي، فما الذي ساعد الفرس على تضخيم هويتهم سواء من قبلهم أو من نظرة البعض إليهم؟

الدور اليوناني

يمكن تلمس الجواب في ثلاثة مواقع رئيسية، اليهود، اليونان، والعرب.

من المصادفات التي خدمت الفرس ظهور كورش مؤسس الإمبراطورية الفارسية أثناء الأسر البابلي لليهود، فحدث لدى توسعه أن قضى على الدولة البابلية الثانية في القرن السادس قبل الميلاد، وأطلق سراح اليهود وأعاد لهم وضعهم في فلسطين، ما جعله بطلاً في نظر اليهود، استحق أن يفردوا له عبارات في آيات من أسفار أخبار الأيام الثاني، وعزرا، وإشعيا، ودانيال، إضافة لروايات تاريخية تشير إلى ان نبي الفرس زرادشت تلقى تعليماً من أحبار اليهود في فلسطين، إلى جانب تعليمه الهندوسي.

ومنذ المراحل الأولى للإمبراطورية دخل الفرس في تفاعل مع اليونانيين عبر المرتزقة اليونان الذين ضمتهم الجيوش الفارسية، ومن خلال حروبهم في القرن الخامس قبل الميلاد مع اليونانيين، ثم اكتساح فارس من قبل الإسكندر المقدوني الذي كان معجباً بتقاليد البلاط الفارسي، ولأن اليونان كانوا وقتها أهم الشعوب المنتعشة حضارياً فقد أعطوا الفرس حيزاً من كتاباتهم، لدى تأريخهم لبلدهم وحروبها مع الفرس، الإمبراطورية الأهم وقتها.

ولعلنا لا نجهل ما للتراث اليهودي واليوناني من تأثيرات لاحقة على ثقافات البحر المتوسط وما جاورها حتى العصر الراهن، بما يفرده هذا التراث من مكانة للفرس.

وكان للعرب دور في تضخيم الفرس، نظراً لبروز القوة الفارسية في طور التشتت والتراجع في الممالك اليمنية جنوب الجزيرة العربية، وفي مراحل ضعف المنظومة الحضارية السامية، التي يؤلف العرب أحد مظاهرها، ثم ما تلا ذلك من خضوع القبائل العربية في العراق وعلى ضفتي الخليج العربي للنفوذ الفارسي، ما أدى -وهذا أمر طبيعي- إلى تكون وعي استعلائي لدى الفرس تجاه العرب، تعزز بحقد أوجده الانهزام السياسي والعسكري أمام جحافل العرب الإسلامية في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، ولأن العرب انطلقوا وقتها نحو فارس بالإسلام كدين فقط، لما يتشكل بعد كثقافة فقد أعاد الفرس ترتيب أوراقهم للرد على هزيمتهم من العرب المسلمين، من خلال الدخول بقوة في غزو الثقافة العربية الإسلامية الناشئة، الأمر الذي نلحظه في صورة الأكاسرة في الكتابات الإسلامية التاريخية والأدبية.

هذه العوامل أسهمت في نفخ النظرة الاستعلائية للفرس حيال العرب، أما لماذا العرب تحديداً، فبسبب ندية اليونان والرومان بمقابل تبعية عربية، فنشأة وتطور الحضارة أو الثقافة الفارسية كان في ظل ذروة العطاء الحضاري اليوناني إضافة إلى أن الهزائم التي تلقاها الفرس من اليونان والرومان خصوصاً على يد الإسكندر الكبير، وتراجان الروم ثم تجاوزها وإعادة لملمة الدولة الفارسية، جعلهما في الذهنية الفارسية ندّين، أما حضارات الشرق الهندية خاصة، والصينية فلم تكن مجالات احتكاك سياسي وعسكري مهم بالنسبة للفرس.

بالموازاة صادف النشوء والتقدم الفارسي ضعفاً إجمالياً في الفعل الحضاري العربي، والسامي عموماً، وارتباط الشخصية العربية بالبداوة

إبان تلك الحقبة، ومن ثم فإن قضاء العرب المسلمين على الدولة الفارسية وسقوط الكسروية نهائياً، وعدم التمكن من استعادة المجد الآفل مجددا قد ترك جملة من آثار سلبية عميقة على الشخصية الجمعية الفارسية، قوامها البغض ورغبة الثأر من العرب، ومن كل ما له صلة بهم.

مقاومة الإسلام

رغم حرص الإسلام على تأكيد البعد العالمي لرسالته - وهي حقيقة - إلا أن المجتمعات غير العربية، ربطت الإسلام بالعرب إلى درجة التماهي، فاعتُبر الإسلام ديناً عربياً، وهذا وجه آخر لحقيقة الإسلام تشير إليه عروبة القرآن، وخطابه بما يتلاءم مع النطاق المفاهيمي للعقلية العربية بصورة رئيسية، إضافة إلى أن حملته الأوائل هم العرب.

لهذا لم يكن التعاطي الفارسي مع الإسلام مفصولاً تماماً عن بُعده العربي، وبوعي أو بدون وعي انسحبت النظرة الاستعلائية الفارسية للعرب على الإسلام نفسه، تجلت في مقاومة متعددة الأشكال للمد الإسلامي، ما بين انتفاضات مستمرة لمدن فارسية على حكم المسلمين في عصر الخلفاء الأربعة الأوائل، وما بين مقاومة ثقافية رفضت اللغة العربية، لغة حياة بعكس ما حصل من انتشار العربية مع الإسلام في العراق والشام وشمال أفريقيا.

بيد أن المقاومة الأهم، بعد العجز عن المقاومة العسكرية، وإلى حد ما السياسية، عبرت عن نفسها باختراقات في جدار الثقافة الإسلامية الناشئة، لإيجاد مساحة تأثير في تشكيل هذه الثقافة، حققت بعض النجاح، لكنه

ليس بذات قدر نجاح اليونان عقب وقوعهم تحت السيطرة الرومانية سياسياً، بإعادة تموضعهم داخل الثقافة الرومانية وهيمنتهم التقريبية عليها، وربما استفادت النخب الفارسية من التجربة اليونانية مع الرومان.

كانت خطة التأثير الفارسي في اختراق الثقافة الإسلامية تهدف إلى إرضاء النزعة الاستعلائية لدى الفرس، وضرب البُعد العربي للإسلام من الداخل، ولهذا نلحظ أن معظم حركات التمرد الفكري والثقافي بل والعسكري والسياسي انطلقت من مناطق واقعة تاريخياً وجغرافياً في نطاق الثقافة الفارسية فكانت حركات الخوارج، والقرامطة، والزندقة، والشعوبية، والباطنية، وغيرها، إلى جانب العودة الثقافية والسياسية القوية في العصر العباسي، الذي يشكل في قرونه الثلاثة الأولى نهضة التدوين الإسلامي، وتشكيل الفكر والثقافة الإسلاميين، ولأن العراق -وبشكل مباشر أو غير مباشر- كان الفاعل الثقافي الأول تلك الفترة، ولأنه كان حضارياً واقعاً في مركز الهيمنة الساسانية لما يزيد على أربعة قرون، فقد تمكنت الثقافة الفارسية من وضع بصمات مهمة في المنتوجات الكتابية لقرون التدوين الإسلامية الأولى، وإذا شئنا ضرب أمثلة فلن نعدم الكثير جداً من تلك التسللات الفارسية، نكتفي منها بما نراه في كتابات تاريخية وأدبية رغم أنها محسوبة مذهبياً على التيار "السني" تتضمن إشارات تنتقص من أفراد صحبوا النبي وأسهموا في حركة الفتوحات الإسلامية، وكذلك نظرات تظهر أهل الشام بصورة نمطية يكسوها الغباء، فقط لأنهم كانوا يشكلون القاعدة السياسية والشعبية للدولة الأموية المندثرة التي تبنت حركة تعريب، واعتمدت على العرب حراساً رئيسيين للدولة الإسلامية الناشئة وقتهم.

لكن المهمة الأخطر للفعل الفارسي، تمثلت في العمل على خلق نسخة فارسية للإسلام تتمكن من استمرار مرتكزات الثقافة الفارسية، وتشبع عقدة التفوق وغريزتها المنتقصة للعرب، وتعيد توجيه الصراع - الحاكم لسياسات العصور الماضية - من مستواه الخارجي إلى المستوى الداخلي الذي ينعكس بالضرورة في إضعاف المجتمع المسلم.

وجدت الشخصية الفارسية ضالتها المنشودة في حالة التعاطف مع قرابة النبي عموماً، والإمام علي وأبنائه من فاطمة خصوصاً أو ما عرف بالتشيع، واستخدمت مخزونها الثقافي في خطوط أساسية له لصياغة ما يمكن وصفه بأنه "إسلام فارسي" يتمتع بجاذبية تمكنها من المشاركة في رسم الثقافة الإسلامية الوليدة، وفي ذات الوقت يتيح استمرارية من نوع ما للشخصية والهوية الفارسية، توفر لها مقدرة الرد على الهزيمة الدينية والسياسية والعسكرية من العرب المسلمين بزرع إيديولوجية تزعزع وضعهم من الداخل.

تضمن الخط الإيديولوجي الفارسي بناء فكر ديني - سياسي يزاوج بين الإسلام ودعامات الثقافة الفارسية القائمة على مفاهيم الوراثة القرابية للمكانة الروحية والسياسية، وما يمكن تسميته "الأسرة المقدسة"، وما لهذه المفاهيم من طابع استعلائي يضع تأكيدات فصل صارمة وثابتة داخل المجتمع المسلم، والقائمة كذلك على عقيدة المخلص الجيني المنتظر الذي يتزعم معارك الثأر، وهي مفاهيم يبدو فيها الخليط اليهودي والمسيحي والزرادتشي واضحاً.

تعمل هذه الإيديولوجية على مسارين تفكيكيين، الأول، ديني يخلق قاعدة هوياتية، تطورت في مكونها الرئيسي إلى ممارسات طقوسية، تكفل الحفاظ على التمايز داخل الصف الإسلامي، وبين مكوناته، والآخر

سياسي يعتمد على الأول في تحويل مسار الصراع من متغير اجتماعي إلى ثابت ديني.

ربما يُعطي استعمال لفظة "إيديولوجية" أولوية للمجال السياسي في ردة الفعل الفارسي، وهو مهم على أية حال لا سيما والسقوط الأول على يد العرب المسلمين كان سقوطاً سياسياً، غير أن ردة الفعل كانت أبعد من وجهها السياسي وتتوغل في عمق التشكيل الثقافي والفكري للمسلمين لضمان امتداد تأثير البصمات الفارسية الأولى عبر الزمن، ومما يمكن الإتيان به كشاهد على هذا هو أنه لو كانت المسألة متصلة بإعادة التموضع السياسي الفارسي فقط داخل المنظومة الإسلامية فإن الأحرى، كما أشرنا في موضع سابق، الانخراط في الفكر الخارجي لسببين رئيسيين، أحدهما، أنه لا يشترط القرشية ولا العروبة في من يحق له تولي خلافة المسلمين، وفكر كهذا يتيح - نظرياً على الأقل - فرصة أن يكون الخليفة فارسياً، أما السبب الثاني، فمرتبط بأسلوب التمرد الخوارجي وأكثر من ذلك قتال السلطة القائمة، العربية حينها، إلا أن ما حصل هو التقاط الفرس لفكرة التشيع لأنها تتوافق مع ما نستطيع أن نطلق عليه الشخصية الفارسية "الثيوستقراطية"، بخلاف الطابع "الديمقراطي" لمفهوم الخليفة في النظرية الخوارجية.

إضافة إلى أن فكرة الخوارج كانت ممثلة - غالباً - بمجاميع محددة، ومحدودة لا تحظى بأسباب تعاطف كبيرة من بقية المسلمين ما جعلها بالتالي هدفاً عسكرياً وفكرياً سهلاً ليس متغلغلاً في زوايا غير مرئية داخل المجتمع الإسلامي، بعكس الوجود المتشعب والمشتت للتشيع والتعاطف الذي يحظى به، عبر قدر من الشرعية القبلية المتمكنة ذلك العصر.

القبيلة أولا

جاء الإسلام لينطلق من النطاق المفاهيمي العربي نحو أفق عالمي "وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين"، ويحمل في طياته إعادة بناء نظرة الإنسان، العربي وغير العربي، وترميم ما فسد منها، للكون بشقيه الغيبي واللاغيبي. ومما تتضمنه هذه الرؤية تكوين أساس للعلاقات البشرية يهمش الأساسات السابقة بما فيها قواعد التراتبيات الاجتماعية التقليدية والقبلية "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[1]، "ولقد كرمنا بني أدم"[2].

صحيح أنه أشار إلى علاقات قرابية عضوية "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ"[3]، لكن ذلك لا يخرج عن كونه فعلاً تنظيمياً مؤقتاً بشاهد قوله تعالى في سياق النقد: "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ..."[4]. ومعلوم أن معظم المهاجرين من قبيلة قريش، ومعظم الانصار من الأوس والخزرج، إلا أن اللفظ القرآني ابتعد عن التوصيف القبلي إيحاء باعتماد بنية غير قبلية للمجتمع الجديد.

إذن فقد كانت الثقافة القبلية التي شكلت الذهنية العربية، وبخاصة وسط الجزيرة العربية، هدفاً لأحد أهم معالم التغيير التي سعى إليها الإسلام، لكن بفعل الجهل، وغالباً التشجيع، تسربت مقولات اكتسبت طابعاً دينياً إسلامياً تعزز الشخصية القبلية داخل الإسلام.

---

١ - الحجرات ١٣
٢ - الإسراء: ٧٠
٣ - الشعراء: ٢١٥
٤ - التوبة: ٢٤

الشكل الصارم لتثبيت النزعة القبلية العشائرية ومنحها مكانة محورية في الفكر والثقافة الإسلاميين جاء مع البناء الإيديولوجي الفارسي لفكرة التشيع.

وهذا ينقلنا إلى منعطف آخر يبرئ في ظاهره الساحة الفارسية من وضع اللبنات الأولى للتشيع كونه ظهر في تعاطف صحابة مع الإمام علي بن أبي طالب، ربما يعود إلى اللحظات الأولى بعد وفاة النبي، إذا سلمنا بصحة الروايات التاريخية في الموضوع، ومن ثم يكون التشيع قد نشأ نشأة عربية لا فارسية، ما يقودنا إلى التساؤل: لماذا ظهر التشيع؟ ولماذا الإشارة بأصابع الاتهام إلى الثقافة الفارسية بشأنه؟

يكاد الاتفاق، صراحة أو ضمناً، يرجع أسباب تشظي الفكر والمجتمع الإسلاميين إلى العامل السياسي، والأمر صحيح في جملته ومظهره الأساسي باعتبار أن الحُزم الإسلامية الثلاث السنية، والشيعية، والخوارجية حاولت وضع بذور نظريات سياسية إسلامية على أساس الموقف من خلفاء النبي الأربعة الأوائل، وما تلا ذلك من مساعي مد الاختلافات، وتأصيلها، إلى النطاقات العقائدية والطقوسية والتشريعية والأخلاقية.

بيد أننا في العمق وتحت السطح السياسي للمسألة نجد فعل الثقافة القبلية، التي وسمت الحياة العربية، سيما وسط الجزيرة العربية.

نجد جلياً في الحزم الثلاث تأثير الثقافة القبلية في شروط تولي الخلافة، أعلى منصب في الدولة الإسلامية، حيث أشارت المذاهب السنية في مظاهرها الفقهية، أو القانونية بمفهوم معاصر، إلى شرط "القرشية"، وتأكيد المذاهب الشيعية على شرط "الفاطمية" بل وتضييقه أكثر في شرط "الحسينية" لدى أكبر مذهبين شيعيين، أما المذاهب الخوارجية فمع ما بدا عليها من طبيعة ديمقراطية لناحية شروط الخلافة فإنها في جزئية

محورية فيها كانت ردة فعل ترغب في هدم المعبد على رؤوس الجميع طالما وقد حُرمت من شرعية الوصول إلى قمة الهرم السياسي للدولة، إذ أن التيار الخوارجي نشأ وترعرع في أوساط قبلية خارج الإطار القرشي وحليفه الأساسي الأوسي والخزرجي، والتحالفات التي أمكن تشكيلها لاحقاً، وتحديداً ظهور ونمو الحركات الخوارجية بين قبائل ربيعة الشق الرئيسي المقابل لمضر التي تعد قريش أحد فروعها، في عرف النسابين العرب.

الحقيقة أن الأمثلة كثيرة على استمرار فعل الثقافة القبلية، في الثقافة الإسلامية الناشئة -وهذا ليس شيئاً معيباً في البدايات- أبرزها استمرار الموقع الأول في الدولة الإسلامية في المكون القبلي القرشي لنحو مئتين وأربعين سنة بصورة فعلية، بل إننا نرى ذلك التأثير في ملاحظة نسبة الولاة القرشيين على رأس التقسيمات الإقليمية الرئيسية للدولة الإسلامية في العصر الراشدي، غير اعتماد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب معيار درجة القرابة العشائرية من النبي كأحد معايير العطاء من الديوان المنشأ لغرض التوزيع من بيت المال، إضافة لانتفاضات الردة التي عمت قبليا معظم الجزيرة العربية، وما تناولته كتب التراث الإسلامي من حضور النزاعات ذات القاعدة القبلية في المسار الداخلي الإسلامي.

على ذلك فقد كانت الانقسامات السياسية الأولى للمجتمع الإسلامي في مظاهره الأساسية، السنية والشيعية، والخوارجية تعبيرات سياسية بدايةَ، أخذت أبعاداً عقائدية وفقهية تالياً، وإيديولوجية عموماً تقوم في جرثومتها الجوهرية على البعد القبلي لثقافة ذلك الوقت.

لعل من التعسف تفسير الانشقاقات الإسلامية المبكرة بالقبيلة كعامل وحيد، هذا صحيح إذا أبقينا الأساس القبلي وحيداً في مرحلة التطور والانتهاء إلى التبلور الإيديولوجي.

نعود فنقول إن التشيع غُرِست بذوره منذ يوم السقيفة، وبعامل الثقافة القبلية، إذ سرعان ما سلم الأنصار بأحقية قريش بزعامة المجتمع الإسلامي بعد النبي، ولهذا السبب ذاته، أي الانتماء القبلي والعشائري، امتعض بنو عبد مناف، وخصوصاً بني هاشم من اختيار أبي بكر مع وجود من هو أقرب عشائريا للنبي، ويتمتع في الوقت نفسه بمزايا دينية، ألا وهو علي بن أبي طالب، وبهذا وضعت بوادر الصراع الداخلي بذورها، وتطور إلى مرحلة من الصدام العنيف الواسع، أو الحرب الأهلية مع انشقاق قرشي بدأ في النصف الثاني من عهد الخليفة عثمان وتعمق عقب مقتله بين علي ومعاوية، وما استتبعه من عملية استقطاب بين الطرفين أخذت بعداً إقليمياً بين العراقية والشامية، ربما كنسخة إسلامية لصراعات القبائل العربية العراقية الموالية للفرس، والقبائل العربية الشامية الموالية للروم في ما يعرف في الأدبيات الإسلامية بالعصر الجاهلي، ورغم حسم الصراع لصالح البيت الأموي استمر الاستقطاب ليأخذ بُعداً عاطفياً مع العشيرة الأقرب للنبي، أو العلويين بعد مقتل الحسين بن علي في كربلاء، ثم حوادث الانكسار التي تعرض لها البيت العلوي حتى على يد العباسيين بني عمومتهم الأقرب من الأمويين.

العشيرة المقدسة

هنا تسلل الفعل الفارسي إلى منظومة الفكر والثقافة الإسلاميين والبناء على التشيع القبلي الساذج في عهد الإمام علي، ثم المصلحي في عهد المختار الثقفي، وعلى التبريرات والمظاهر الدينية المشتتة والمحدودة والضعيفة التي رافقت حالات التشيع الأولى، لإعطاء التشيع صبغة إيديولوجية تزاوج بين الثقافة الفارسية، والثقافة القبلية، والتعاطف مع البيت العلوي.

ونجح الفعل الفارسي في خلق ما نستطيع تسميته "العشيرة المقدسة"، داخل الفكر الإسلامي، ما عزز الثقافة القبلية العربية، وألبسها جلباباً دينياً وراثيا، له تداعياته العميقة في الثقافة الإسلامية.

فبينما كانت المكونات القبلية والعشائرية، متغيرات اجتماعية قابلة للتطور والتعديل، والتهميش لصالح روابط هوياتية جديدة وأكثر قدرة تجميعية، وبينما كانت زعامة القبيلة في الأعم الأغلب تقوم على مبدأ الاختيار لا الوراثة، صارت مع مفهوم "العشيرة المقدسة" ثابتاً دينياً ذا طابع وراثي.

ذكرنا سابقاً، أن التيار السني أكد على مبدأ "القرشية" كشرط من الشروط الواجب توفرها في الخليفة، غير أن هذا كان موقفاً قابلاً للتأويل والتعديل، كون النصوص الدينية المنسوبة للنبي بهذا الخصوص أخبار آحاد في عرف المحدثين السنة، تعارضها أخبار آحاد أخرى مثل "اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة" وهذا النوع من الأخبار يبقى في دائرة الظن لا اليقين.

الأهم، أن القضية السياسية لدى الفكرين السني والخوارجي تظل شأناً اجتهادياً، بمعنى أن الأمة وفق صيغ عملية هي من تختار الخليفة، وإن حاولت في مساعيها لبناء نظريات سياسية أن تضع شروطاً للخليفة، هي في حد ذاتها شروط اجتهادية.

وبالعكس، اعتبر الفكر الشيعي الإمامة (المسمى الشيعي للخلافة) شأناً نصياً، بمعنى أنه اختيار إلهي لا دخل للأمة فيه، وانتهاكه يمثل مخالفة جسيمة لأصل ديني محوري، إضافة إلى أن الموقف من الإمامة أو الولاية يعد القاعدة الأساسية لبنية الفكر الشيعي، ويشكل إيديولوجية متماسكة نظرياً استلزمت تجيير كثير من النصوص القرآنية والحديثية لتدعيمها.

ما قام به الفعل الفارسي هو باختصار أدلجة التشيع العربي الساذج، وبلورة ملامحه الرئيسية خلال ثلاثة قرون، نضجت في عملية تكثيفية على أيدي الطوسي، والكليني، والصدوق، وهم فرس وأصحاب المراجع الشيعية الأساسية، عدا التسللات الفارسية عبر أشخاص ينتمون للمجال الثقافي الفارسي ضمن ما صنف في خانة التراث الإسلامي السني.

مخاطر قولبة الدين عشائريا

تكمن خطورة الأدلجة القائمة على مزج الديني والقبلي "العشيرة المقدسة" في عدة مستويات تؤثر سلباً في الثقافة والفكر الإسلاميين.

الجمود عند العشيرة يعيق الفكر الإسلامي في بناء نظرية سياسية إسلامية مرنة وقادرة على تفاعل إيجابي يتيح لها الإفادة من أية نظريات أخرى أو استيعاب المفاهيم السياسية في الأمكنة والأزمنة المختلفة.

بمستوى أوسع، إن قولبة الإسلام بمدى عشائري قبلي ضيق يسهم في إعاقة حركته عبر الثقافات، لهذا نكاد نرى الفكر الشيعي منحصراً في المجال الثقافي للدولة الفارسية الساسانية، وربما لولا "الحامل الصوفي" للتشيع لوجدنا الفكر الشيعي محصوراً في نطاقات جغرافية وسكانية أضيق في مقابل التواجد الإسلامي السني.

قد يتم اللجوء في هذا المقام إلى مبرر دور السلطة السياسية في النشر المذهبي، وتأثير السلطة السنية أكثر فترات التاريخ الإسلامي بمواجهة الوضع المعارض للتيار الشيعي في تشكل الخريطة المذهبية، رغم الصحة النظرية، وإلى حد ما العملية في الدفع السياسي للدين والمذهب، إلا أن الحالة ليست دقيقة، فما تم تصنيفه كسلطات سنية لم تكن ذات حساسية مذهبية وبخاصة إذا لم يرتبط الفعل المذهبي بالفعل السياسي، لعلنا نلمس ذلك في تولي شيعة لمواقع مهمة في العهد العباسي، بل والسيطرة الفعلية على منظومة السلطة لأكثر من قرن كما حصل في الهيمنة البويهية على الخلافة العباسية، إلى جانب أن مجموعة من مراكز النشاط الشيعي كانت قريبة من مركز السلطة في العراق، وبغداد عاصمة الخلافة العباسية، كما

أن ما عُرف بالسلطات السنية، كانت في فترات القوة منشغلة في صراعات خارجية.

وإن اعتبرنا الدور الحاسم للسلطة في النشر المذهبي لاحتجنا إلى إجابات عن حالات انعدام، أو شبه انعدام للتشيع في جغرافيات حكمتها سلطات شيعية عملت جهدها في نشر المذهب كمصر وشمال إفريقيا والشام وغرب الجزيرة العربية إلى اليمن، في العهد الفاطمي الذي استمر ما يزيد على قرنين ونصف.

ولو قلبنا صفحات التاريخ لرأينا بوضوح أن أغلب الدول الشيعية ظهرت في النطاقات الجغرافية الساسانية الفارسية، ما يوحي بمدى الاستعداد الثقافي أو النفسي الجماعي لشعوب تلك النطاقات (أو للنخب الفارسية المستوطنة والفاعلة في تلك النطاقات) في التفاعل الإيجابي مع فكرة العشيرة المقدسة وبنودها الإيديولوجية.

فكرة العشيرة أو القبيلة المقدسة، ربما يكون لها دور كبير في محدودية الانتشار المذهبي الشيعي، وهو انتشار في أغلب الأحوال داخلي أكثر منه خارجي، حيث كان الأداء الشيعي ضعيفاً في جذب إضافات سكانية، وجغرافية غير إسلامية إلى الإسلام، وبدلاً من ذلك تركّز حرص التوسع الشيعي على القضم من الثقل السني بوسائل عديدة ليس محلها النقاش هنا.

كان طبيعياً أن تخفض "العشيرة المقدسة" القدرات الشيعية في عملية الاسهامات بانتشار الإسلام، لأنها بطبيعتها تطرح الإسلام في إطار مختزل ينافي الأفق الإنساني الكامن في الرسالة الإسلامية، وبصورة أعمق يعمل على إحياء تقاليد فكريه دينية وثنية في أصولها منبثقة من قداسة الملوك، وتحديداً في هذا الموضع معتقد الأسرة الملكية الساسانية المقدسة.

إعادة تدوير نظام الكهانة

فوق ما سبق تكمن خطورة إيديولوجية العشيرة المقدسة في مستويين مؤثرين بشكل كبير على مسار الفكر الإسلامي، وتداعياته على حياة المسلمين في إبقائهم مشدودين إلى حالة جمود ماضوي تعود جذوره إلى ما قبل الإسلام.

أحدها، إعادة تدوير نظام الكهانة في الثقافة الإسلامية، وما تعنيه من إقامة قنوات بشرية خاصة تتوسط العلاقة بين الله والبشر، وتحتكر تفسير النص الديني، تناقضاً مع الموقف الصريح للإسلام من المسألة، "اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء"[1].

"اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ"[2]، "ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله"[3]، كما جاء في القرآن الكريم، وتأكيده قرب النص الديني من الفهم العام"وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ"[4]. وتكرار هذه الآية تحديداً وبلفظها أربع مرات ما لا يتوافر إلا لآيات قليلة في القرآن يؤكد إلحاح رفض المبدأ الكهنوتي في فهم النص الديني القرآني، وإن كان في الحقيقة لا يتعارض مع إمكانيات التخصص في دراسة المقولات الدينية للانتقال إلى مستويات معرفية أعمق، كمميزاته النظمية على المسار البلاغي اللغوي.

إن عملية احتكار التفسير بحد ذاتها تجمد الإسلام في قوالب غير قابلة للنقاش والتطوير، وتعطي التفسيرات المحتكرة صبغة إلهية ترتقي إلى القوة الإلزامية للنص نفسه، بسبب صفة القداسة التي وسمت بها العشيرة في

١ ـ الأعراف: ٣
٢ ـ التوبة: ٣١
٣ ـ آل عمران: ٨٠
٤ ـ القمر: ٢٢

أساس بناء الإيديولوجية وما تستدعيه القداسة -بالضرورة- من عصمة وعدم قابلية للخطأ.

ولا تقتصر بشاعة الفكرة الكهنوتية على قداسة التفسير، لأن التفسير يظل بشكل أو بآخر دائراً حول النص، إنما تتجاوزها إلى الإضافات الكهنوتية اللازمة للتعاطي مع حالات غير نصية من مستجدات الظروف، ما يؤدي إلى تضاؤل حضور النص الأصلي الإلهي عبر الزمن أمام النصوص الكهنوتية المضافة، وبالنتيجة مسخ هوية الدين الإسلامي المفترض بناؤها على النص الأصلي لصالح هويات تعكسها خلفيات الكهنة تضعف فاعليته في التعامل من موقع قوة في ساحات تنافس الأديان والفلسفات، وتقلص طاقة الحصانة والإبداع لدى حملته نتيجة التوسع في قولبة المتغير الواقعي في الثابت الديني والمحصلة زيادة عدد التعارضات والتناقضات في النصوص الكهنوتية مع نفسها ، ومع الواقع، والتي أصبحت بحكم القداسة والعصمة نصوصاً دينية أصلية، وما يجلبه من أسباب الشك في الدين برمته، ووضعه في غربة زمانية، أو انفصال عن الزمن يحبسه في دائرة الإرشادات ذات الطابع الرجعي.

الأدهى، قدر الارتداد في الماضي باستجلاب نظام سيطرة ليس روحياً فقط، لكن سياسياً أيضاً، ليعود مفهوم الملك الإله، أو المقدس بكل قوة، وإضفاء العصمة على السلوكيات السياسية وما يخلفه من نواة تدمير ذاتي للأثر الديني – المباشر – في حياة الناس، مثلما حصل مع الدين المسيحي جراء النظام البابوي الكنسي.

غير أنه من الإنصاف الإشارة إلى أن النظام الكهنوتي تخلل معظم الأديان، حتى تلك التي حرصت بداياتها على الانفكاك من الكهنوتية لدرجة نبذ الطقوس في تعاليمها، كالبوذية، أكثر من ذلك ان النظام

الكهنوتي حاول التسلل إلى المنظومة السنية، وتمكن فعلاً في بعض اتجاهات صوفية سنية، لكن في كل الأحوال ليس بصرامة الاعتقاد الشيعي المطبوع بالسمات الثقافية الفارسية، وليس نظاماً مغلقاً على أساس جيني عشائري، إلا إذا استثنينا النظام الكهنوتي في ديانات غير إسلامية كاليهودية، والأهم أنه يقتصر على الجانب الروحي ومنفصل -في الأغلب- عن الحياة الزمنية للبشر.

غزو داخلي

في الواقع، لعل الخطر الأعمق في إيديولوجية العشيرة المقدسة يتموضع في الحضور المكثف لمقولات فارسية زرادشتية أهمها معركة الخير والشر، وما يتصل بعقيدة الخالدين المقدسين، والتقسيم الثابت للمجتمع الذي تتسم به ديانات منحدرة من أصول آرية بالخصوص الزرادشتية والهندوسية، المتآثرتين بحكم التجاور الجغرافي والأصل الواحد.

قد يبدو للوهلة الأولى أن المقولات الثلاث منفصلة عن بعضها، لكن الحقيقة أنها مترابطة ومنضوية في عقيدة الصراع بين الخير والشر، وهي مدار النقاش المقتضب التالي.

فكرة صراع الخير والشر، معقولة ومنطقية، وواقعية ليس في الحياة البشرية فحسب، وإنما تكاد تتخلل كل مظاهر الكون، والثنائية التي يبدو عليها، بروتونات وإلكترونات، موجب وسالب، نهار وليل... إلخ.

وفكرة الصراع بين الخير والشر، أو ما يجب وما لا يجب، تجد لها حضوراً، ربما في سائر الفلسفات والديانات، كل هذا صحيح وإن كان هناك من فوارق فتتركز في أن هذا الصراع يمثل لب الديانة الفارسية

الزرادشتية وعمودها الفقري، بجوار الطبيعة الحدية التي أضفتها على المفهوم، فالخير محض أو مطلق، والشر محض أو مطلق، إذا كان ذلك كذلك فأين الخطورة في الفكرة على المجتمع الإسلامي، وما علاقتها بالعشيرة المقدسة، وما التداعيات السلبية في الأمر؟

الجواب يقع في بلورة بند إيديولوجي يضع العشيرة المقدسة (الخالدين المقدسين) في قلب الخير المطلق، ومن يقف في رفض التبعية للعشيرة ينحدر إلى قلب الشر المطلق، ولأن غير المسلم لا يعنيه صراع العشيرة المقدسة من أجل الاحتفاظ بامتيازاتها في مواجهة غيرها، فإن الصراع بالضرورة، ستكون ساحته الداخل الإسلامي، وفي هذه النقطة تحديداً مارست الفارسية فعلها الانتقامي والثأري على ثنائية عروبة - إسلام، وحولت وجهة الصراع من خارجي (إسلامي - غير إسلامي) إلى داخلي (إسلامي - إسلامي)، وتدعيماً لهذا الاتجاه تسلسل البناء الإيديولوجي الفارسي للفكرة الشيعية - التعاطفية في أصلها العربي - بإدراج فكرة الاغتصاب، الاسترجاع ، الثأر، أي اغتصاب الخلفاء الأوائل حق الولاية السياسية المقدس للإمام علي، الأصل الجيني للعشيرة المقدسة، ثم على يد الأمويين، والعباسيين، والسعي لاسترجاع هذا الحق والانتقام من المغتصبين، وكون المغتصبين للحق المقدس هم قرشيون عرب إبان البلورة الإيديولوجية للتشيع، ولأن القرشية بامتداد الزمن صارت غير واضحة بيولوجيا، فمن الطبيعي أن يكون العرب خصوصاً، والمسلمون عموماً هم المحور الطبيعي للعملية الثأرية، لا سيما وقد تم إلباس الاتجاه الإسلامي غير الشيعي أو السني تحديداً عباءة إيديولوجية معادية لحق العشيرة المقدسة، وهذا ما تنفيه الأدبيات السنية منذ النشأة الأولى، ولا نحتاج للتفصيل في هذه العجالة.

نماذج من التاريخ

وحتى لا يكون ما سبق مجرد افتراءات غير موضوعية، فليس أقل من الدعوة إلى المرور بالذاكرة التاريخية على دور الموالي، من مجال الثقافة الفارسية، في تنظيم إسقاط الدولة الأموية تحت مقولة "الدعوة إلى الرضا من آل محمد" - وعلى الطريق نتساءل: من هم آل علي؟ - وانطلاق عملية الإسقاط من خراسان، ودور أبي مسلم الخرساني الذي تذكر بعض المصادر أنه من نسل الأكاسرة، وبعد فترة التسلل إلى مفاصل الدولة العباسية، ومعاملة الخلفاء العباسيين - بني عمومة العلويين - على يد البويهيين الشيعة الوافدين من النطاق الفارسي، وأخيراً دور ابن العلقمي الشيعي في التواطؤ مع المغول والإسقاط المأساوي للخلافة العباسية.

وعندما قامت دول شيعية كان اتجاه عملياتها العنفية في الوسط الإسلامي، كدولة القرامطة شرق الجزيرة العربية وأخذهم الحجر الأسود من الكعبة لأكثر من عشرين سنة، وحرق إبراهيم بن موسى الكاظم لمدينة صعدة.

ربما كان صغر النطاقات الجغرافية للدول الشيعية - ونعيد التأكيد على أن غالبيتها في المجال الثقافي الفارسي - ووقوعها في وسط محيط إسلامي غير شيعي جعل مسألة الصراع في الداخل حتمية، بدليل تاريخي يشير إلى صراع الدولة الحمدانية والدولة الفاطمية مع الصليبيين بسبب وضع التماس الحدودي بين الدولتين والصليبيين، ما أتاح لهما الإسهام في الحركة الجهادية الإسلامية ضد غير المسلمين، الوجه الثاني، والأهم للواقعة التاريخية الحمدانية والفاطمية يؤكد أن حالات الصراع مع

الصليبيين كانت أقرب للمناوشات منها إلى معارك كبيرة، فرضتها الحدود المشتركة.

دعونا نأخذ الدولة الفاطمية كأهم وأكبر الدول الشيعية في التاريخ الإسلامي، فبالرغم من مساحتها التي شملت ما يقارب نصف مساحة العالم الإسلامي وقتها فإنها لم تفعل الكثير لأجل طرد الصليبيين من الشام، وإن حدثت عملية استرجاع لمدن فلسطينية مهمة فكانت في عهد ضعف أو صورية الخلفاء الفاطميين في الحكم لصالح الوزراء الأقوياء، وبالتحديد أن أهم حملات الاستعادة كانت في عصر الوزير المفضل بن بدر الجمالي، الذي كانت ميوله غير شيعية، إضافة إلى أن الدولة الفاطمية تكاد تكون حصرت نزاعاتها مع الدولة العباسية، فيما على المستوى الخارجي لم تساعد مسلمي الأندلس، ولم تقم بالدور الذي قامت به دولة الأغالبة – التابعة اسمياً للخلافة العباسية – سابقاً في جزر البحر المتوسط، أو القيام بمجهودات نشر الإسلام في إفريقيا السوداء، كما فعل المرابطون أو المماليك بعدهم.

وفي المقام تجدر الإشارة إلى أن مؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله المهدي شرع في بدايات حكمه في شمال إفريقيا على خلع لقب الخليفة على نفسه، مدشنا بذلك الشَق النظري والعملي للرمزية الوحدوية الإسلامية لمفهوم الخلافة، بعد أن سبق اعتماد مفهوم الإمامة كبديل للخلافة في العرف النظري الشيعي، وعقب ذلك أعلن الأمير الأموي بالأندلس نفسه خليفة ثالثا في النطاق الإسلامي، مع التنويه إلى أن الأمويين منذ استقلوا بالأندلس عن الدولة العباسية ظلوا حريصين على إبقاء منصب الخلافة كرمز لوحدة المسلمين فلم يعلنوا أنفسهم خلفاء في ظل وجود الخلافة العباسية إلا بعد تجرؤ الفاطميين على ذلك، رغم قيام

الدولة العباسية وخلافتها على أنقاض دولة الأمويين وخلافتهم، وتنكيلها ببني أمية، قتلا وتشريدا، بل ونبشا لقبورهم.

وفي عصور أقرب ركزت الدولة الصفوية في القرن السادس عشر الميلادي صراعاتها مع العثمانيين غربا، والأوزبك المسلمين شرقاً، رغم تمدد المستعمرات البرتغالية في مراكز ساحلية بعضها في مناطق إسلامية متاخمة، غير وجود تماس جغرافي من ناحية الشمال مع مجالات غير إسلامية، وهذا هو حال دولة الملالي اليوم في إيران التي توجه عداءاتها الشعاراتية إلى الخارج غير المسلم، الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، بينما عملياً تتركز سياساتها العدائية في المنطقة العربية.

قد تواجه الإشارات الآنفة بتنفيذها على حالات صراعات أو دعونا نقول نشوء دول غير شيعية، أو سنية، وتمددها على حساب دول مصنفة سنياً وما رافقه من نزاعات عسكرية وحروب في الداخل الإسلامي، وهذا واقع يحمل قدراً من الصحة سيما والتاريخ يسجل قيام دول سنية على أنقاض دول سنية أخرى، إلا أننا لو عدنا مجدداً إلى التاريخ بتناول دول سنية مهمة نجد قدراً من الفعل الخارجي بجانب الداخلي، وإذا صرفنا النظر عن دور الدولة الأموية - رغم عدم تبلور العقائد والمذاهب الإسلامية خلال عهدها - في تأسيس إمبراطورية إسلامية تمتد حدودها من غرب الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا والمحيط الأطلسي (بحر الظلمات) غربا وما وفرته من إزالة عوائق السلطات غير الإسلامية أمام انتشار الإسلام في هذه الأرجاء الواسعة، إذا صرفنا النظر عن ذلك فنلاحظ أن الدول الشيعية لم تضف - إجمالاً - مساحات جديدة للعالم الإسلامي.

توجه السلاجقة (السُّنة) للسيطرة على أراضي الخلافة العباسية في الشرق، لكنهم أضافوا ما يعرف اليوم بتركيا إلى الإسلام، وكانت تابعة

للدولة البيزنطية، في حين أن البويهيين الشيعة اقتصرت أعمالهم في السيطرة على الخلافة العباسية.

وركزت جرائم تيمورلنك -الشيعي- على الأراضي والمجتمع الإسلاميين حتى كاد أن يسقط الدولة العثمانية في بدايات عهدها، والتي كان لها دور لاحق في مد النفوذ الإسلامي -للأسف سياسياً فقط- في أوروبا.

ويمكن أن يقال الكثير عن استعادة الدولة الأيوبية - التي قامت على أنقاض الفاطميين - لأراض إسلامية من الصليبيين، وطردهم نهائياً على يد الدولة المملوكية وإيقافها الزحف المغولي غرباً عقب إسقاطه الخلافة العباسية وضمها السودان إلى الجغرافية الإسلامية، وكذلك دور المرابطين في نشر الإسلام جنوب الصحراء الإفريقية، ومساعدتهم مسلمي الأندلس.

وقفة لازمة

قد يقال إن التوسع الإسلامي، العنيف في كثير من الأحيان، في الجغرافيات غير الإسلامية، يعبر عن النزعة العدائية للإسلام السني، في مقابل رغبات السلام الشيعية، ما يشكل إدانة للأول وميزة للثاني، وهذا صحيح جداً وفق الثقافات الليبرالية والعلمانية السائدة في الوقت الحاضر -صحيح نظرياً فقط-، لكنه لم يكن كذلك حينها، وقبل مناقشة هذه النقطة ننوه إلى أن الإشكالية لا صلة لها بميول السلام أو العنف وإنما بوجهة النزعات العنفية، وبصورة أوسع، الصراعية، فهي تتمركز في الحالة الشيعية على الإنهاك الإسلامي الداخلي وتوجيه مسار الصراع إلى الداخل الإسلامي.

نعود إلى الصراع مع الخارج الذي طبع الإسلام السني، بالإشارة أولاً إلى أن الفتوحات الإسلامية هي سلوك نبوي تسجله معارك الإسلام الأولى مع المشركين واليهود في العهد النبوي، مع التأكيد على أنها كانت بدوافع سياسية دفاعية ووقائية ليس غرضها فرض الدين الإسلامي على الغير بالقوة، ويكفي أن نلفت كمثال إلى أن انتشار الإسلام في مجتمعات شمال إفريقيا، ليصير هو الدين الأول هناك استغرق أربعمائة سنة رغم استكمال فتحها السياسي والعسكري أواخر القرن الأول الهجري.

يقتضي الإنصاف لتفسير الفتوحات في قدر من الفصل بين الإسلام كدولة والإسلام كدعوة، كان من حق المسلمين -كغيرهم- أن يبنوا سياجاً سياسياً يحمي دعوتهم، وهو حق مشروع ولا غبار عليه في منطق كل الثقافات الماضية، بل ومازال فاعلاً بصور مختلفة في عالم اليوم، وفي المضمار لا نكاد نجد مثالاً لانتشار الثقافات، وبمعنى من المعاني الأديان، دون حامل سياسي، من التبني الرسمي لأديان معينة، للسومريين، والفراعنة وما تلاهم من حضارات شرقية، مروراً بإسهام فتوحات الإسكندر في نشر الثقافة

اليونانية، ودور الفتوحات الرومانية بعد تبني السلطات للمسيحية كدين رسمي في زيادة انتشار ذلك الدين ثم فتوحات شارلمان في تمكين المسيحية، وصولاً إلى تمهيد الاستعمار الحديث الطريق أمام المبشرين في آسيا وإفريقيا وأمريكا في جعل الدين المسيحي يحتل المرتبة الأولى من حيث عدد المعتنقين له في العالم، وتحت مبررات كان من بينها رسالة الرجل الأبيض أطل القرن العشرون ودول بريطانيا وفرنسا وروسيا تسيطر على نصف مساحة العالم وثلث عدد سكانه.

وكما تمت الإشارة سابقاً إلى صراع الخير والشر، نؤكد أن الحياة تسير وفق حقيقتي الصراع والتكامل، ويشتمل الجانب الصراعي على قلق الإحساس بالخطر سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، وهو يكون حاضراً في السياسة بصورة واضحة ومهيمنة، لأن بث وتدعيم القلق من خطر ما، أكان حقيقياً ام مزيفاً، يساعد على تماسك المجتمع السياسي والتفافه حول السلطة، وهو ما يحتاجه أي حاكم، وما نعايشه يظهر أن الصراع هو الوجه الأبرز في المسار السياسي بين الدول، إذن فالصراع ظاهرة طبيعية ولصيقة بالمجتمعات البشرية، وما يختلف هو وجهة الصراع، داخلي أم خارجي، وشكله، سياسي، عسكري، ثقافي وغيرها، وما محاولات الاستقرار داخل أي مجتمع، أو بين المجتمعات إلا مساعٍ -إيجابية بطبيعة الحال- لتقنين الصراعات والتخفيف من حدتها ونتائجها. ولا يخرج التوسع أو الفتوحات الإسلامية وغيرها عن القاعدة مع التأكيد مجدداً أن الفتوحات الإسلامية وتوسيع حدود الدولة كان عاملاً مساعداً في نشر الدعوة بمنع السلطات غير المسلمة في البلدان المفتوحة من الوقوف أمام العمل الدعوي، ولم تكن السياسة بالنسبة للإسلام أداة لفرضه مثلما حصل في ديانات أخرى كالمسيحية في أوروبا شارلمان، فكان الإسلام أكثر سلاماً وتسامحاً مع الغير إذا ما قارناه بديانات أخرى.

قبل الخوض في العصر الحاضر، وكجزء من عملية التفسير والفهم ينبغي التطرق إلى جدلية العروبة والإسلام، وأهمية العرب للإسلام، وفي المضمار لا نحتاج إلى تأكيد حقائق عربية القرآن والنبي وحملة الرسالة الأوائل، وإنما سنلمح إلى الدور العربي في الإسلام من خلال الدعوة إلى مقارنة الخريطة الإسلامية في سياق القيادة العربية للفعل الإسلامي، مع ذات الخريطة في ظل تسلم الراية الإسلامية من سلطات إسلامية غير عربية.

ننطلق من تفحص هذه الخريطة في العهد الأموي لنشاهد مساحة بلدان تقطنها غالبيات مسلمة تمتد من المحيط الأطلسي غرباً وصولاً إلى شمال غرب الصين والأجزاء الشمالية الغربية للهند شرقاً، ومن ديار بكر، في تركيا الحالية شمالاً، إلى البحر العربي والصحراء الإفريقية جنوباً.. فما التعديلات التي طالت هذه الخريطة المشيدة من قبل العرب المسلمين؟

خسران الأندلس في العهد العثماني، وإضافة بقية تركيا الحالية في الفترة السلجوقية تحت مظلة الخلافة العباسية، وضم المماليك أجزاء من السودان بقيادة اسمية لخلفاء عباسيين، وبعض زيادات في الهند وبعض الأجزاء في روسيا في العهود المغولية، كل ذلك في الواقع تمثل زيادات طفيفة لا تتجاوز كثيراً مساحة الأندلس الضائعة. أما جنوب الصحراء الإفريقية فكان، للخوارج ثم المرابطين، العرب والبربر المندمجين نهائياً في الثقافة العربية الإسلامية قصب السبق في زراعة الإسلام هناك، وبالنسبة لجنوب شرق أسيا فكان للتجار المسلمين من أبرزهم العرب الحضارمة الدور الأكبر.

الآن دعونا نفترض المساحة والعدد للإسلام تحت قيادات وسلطات غير عربية، حيث فتح الغزنويون وتبعهم الغوريون والمغول المسلمون الهند، ولم يثمر إلى تحول أغلبية السكان للإسلام، ومازال المسلمون أقلية، ورغم إقامة المغول - ربما لأكبر امبراطورية في التاريخ - وانخراطهم في الإسلام ظل معظم سكان الأراضي غير الإسلامية التي فتحها المغول المسلمون على ديانات غير الإسلام. وتوغل العثمانيون في شرق أوروبا ومازال المسلمون أقلية ضئيلة في البلدان الأوروبية العثمانية، إذن فالعرب هم مادة الإسلام وإضعافهم (كما تفعل إيران اليوم) هو إضعاف للإسلام وللفعل الإسلامي.

التقت الخاصية التداخلية بين العروبة والإسلام في تشكيل حيز جغرافي ثقافي ذي أساس لغوي ديني يعرف اليوم بالعالم العربي، ويشمل مراكز انطلاق أهم ثلاثة أديان مؤثرة، بينها اثنان تبعهما ما يقارب ثلثي سكان العالم، وفي هذا الحيز ظهرت أقدم حضارات الأرض، وامتص وهيمن على مسارات الحضارات المتاخمة، وفي العصور الحديثة أصبح مسرحاً لا غنى عنه للسياسات الدولية.

يمكن إرجاع بداية العصر الحديث إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، مع اختراع الطباعة، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، والقارة الأمريكية، وإلى حد ما سقوط الأندلس وضم القسطنطينية، وترجع أهمية هذه الوقائع إلى التحولات التي أحدثتها في موازين القوى الدولية في مختلف المجالات لصالح النطاق الأوروبي، قد يبدو ضم الأتراك للقسطنطينية دليلا مضاداً لا مؤيداً للقوة الأوروبية، بينما في الحقيقة حتى الدولة العثمانية انتقل مركز فعلها إلى القسطنطينية (اسطنبول) الواقعة في الحيز الأوروبي، بجعلها عاصمة الدولة، والقيمة الرمزية المحفزة للعالم

المسيحي الأوروبي كونها عاصمة الدولة الرومانية البيزنطية، ومركز الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، إلى جانب ما أسهمت فيه من نزوح التراث اليوناني إلى أوروبا - إيطاليا وفلورنسا خصوصاً - وأثره في النهضة الأوروبية.

على الصعيد الدولي، رغم الضعف والتشتت الحاكم للحالة العربية في العصور الحديثة، بقيت المنطقة عامل قلق على خارطة القوة العالمية، الأوروبية وسليلتها الأمريكية لأسباب جغرافية وتاريخية.

تبلغ مساحة العالم العربي أكثر من ١٣ مليون كيلو متر مربع، تفوق مساحة أوروبا مجتمعة، وتقارب ضعف كبريات الدول في العالم، عدا روسيا التي تزيد بثلاثة ملايين كيلو متر مربع، إلا أن المنطقة العربية تتميز، مقارنة بروسيا، بتوزع سكاني متوازن ولديها ثروات طبيعية تستطيع توفير قدر جيد من التكامل، أو ما كان يوصف بالاكتفاء الذاتي، وحديثاً زاد توفر النفط من رفع أنصبتها في بورصة السياسة الدولية، إضافة لوقوعها على قارتين، وبين ثلاثة فضاءات جيوسياسية، أوروبا وأسيا وإفريقيا، ما يميزها عن أية قوة دولية معاصرة، وتقطنها (أي المنطقة العربية) شعوب تشكل أمة واحدة في مجملها، حتى الأقليات فيها سواء الدينية، المسيحية بدرجة أولى، متشابكة مع السكان في العنصر اللغوي، ومثلها تتداخل الأقليات العرقية مع السكان عبر العنصر الديني، ما يخفف - بمعالجات سياسية حكيمة - من وطأة هذه الأشكال من الانقسامات الداخلية، لا سيما وهناك تطور تاريخي مشترك، ذو نزعة تسامحية مساندة.

ومن الناحية التاريخية، شهدت المنطقة قدراً فريداً من الاستمرار الحضاري، وكانت حالات الانكفاء والخفوت عابرة.

قبل عشرة آلاف سنة ظهرت الزراعة في منطقة الشام، وأثمرت نقل البشرية من مرحلة الصيد والترحال إلى مرحلة الاستقرار والاستيطان، وما أتاحه من إمكانية نشوء الحضارات قبل خمسة آلاف سنة تقريبا، واستمرارها في بلاد الرافدين ومصر والشام واليمن، ثم استيعابها وتبوؤها مراكز قيادية في الحضارتين اليونانية والرومانية عبر مدن أهمها الإسكندرية وإنطاكية والقدس، واستمرار هذه الفعالية عبر الأنشطة التجارية الفينيقية واليمنية، والأهم من خلال الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية، والإسلام، واستمرار الدور المهم للمنطقة في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر المملوكي أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

وخلال فترة الانطفاء في العصر الحديث جرت محاولات انبعاث بداية القرن التاسع عشر على يد محمد علي باشا، قبيل ضرب مشروعه ذي البعد العروبي الإسلامي بتواطؤ غربي عثماني، وما تبعه من رسم القوى الكبرى سياسات تفكيكية تعيق أية مساع لاستعادة الفعل الحضاري والسياسي للمنطقة العربية وطاقتها الثقافية الكامنة في إسلام قادر على حفظ الهوية دون الانعزال عن تطورات الزمان، وما زراعة إسرائيل وسط الجناحين الشرقي والغربي للمنطقة، وقمع أية مشروعات نهضوية ذات صبغة غير قُطرية إلا أساليب تعبر في جوهرها عن وعي القوى الكبرى بحركة الانبعاثات المتكررة للمنطقة خلال عشرة آلاف سنة مضت، وتأثير أي انبعاث جديد على المعادلات الحضارية والسياسية للعالم، بالضرورة على حساب القوى المهيمنة.

وعلى المضمار الإقليمي انتقل الفعل الإسلامي من النطاق العربي إلى خارجه، العثمانيين من تركيا الحالية، وبدرجة أقل إلى الصفويين الذين نجحوا إلى حد كبير في استرجاع الخارطة الفارسية الساسانية، بعد نحو

تسعمائة سنة من القضاء عليها، وهذه المرة من خلال الإيديولوجية الشيعية، وفي هذه الفترة اتسمت العلاقات العثمانية "السنية" والصفوية "الشيعية" بصراع سياسي وعسكري اتخذ بعداً طائفياً، خدم ومازال، سياسات الإنهاك الداخلي للإسلام.

الدولة الصفوية

لنا أن نتوقف قليلا عند الدولة الصفوية الأب الإيديولوجي الحديث للدولة الإيرانية الخمينية في الوقت الحاضر، والقناة التي على يديها تعمقت وتوسعت "الشعوبية" وتحولت إلى فعل سياسي إلى جانب النشاط الثقافي المنتقص للعرب الذي طبع "الشعوبية" التاريخية.

تنسب الأسرة الصفوية إلى صفي الدين الأردبيلي في القرن الثالث عشر الميلادي، واستطاع الأردبيلي أن يكوّن جماعة من المريدين الصوفيين مكنت له ولأحفاده من بعده نفوذاً وتكاثراً في الأتباع. وتحولت الحركة الصفوية، الصوفية السنية، في القرن الخامس عشر إلى التشيع، وفي عهد قيادة إسماعيل الصفوي تنظمت قبائل القزلباش التركية في تشكيل عسكري شيعي عقائدي، استخدمه إسماعيل الصفوي في احتلال كل فارس الساسانية بإضفاء صبغة مقدسة أساسها ادعائه بتكليفه من الإمام علي بن أبي طالب عبر رؤيا في المنام، وتأكيد التكليف من الإمام الغائب في لقاء تم بينهما، ليؤسس دولة شيعية نشرت التشيع في إيران عن طريق خط إيديولوجي زاد من عملية إدماج التشيع في التصوف، والنزعة الفارسية الشعوبية المنتقصة للعرب.

استعانت الدولة الصفوية بوسائل عدة في تحويل معظم سكان المنطقة الفارسية إلى التشيع الجديد، أهمها القمع المتطرف للناس على مدى يتجاوز الخمسين سنة، وتأثيره في نزوح بعض السكان إلى خارج أراضي الدولة، في مقابل استجلاب المزيد من المنتمين إلى قبائل القزلباش من أراضي الدولة العثمانية، وتحديداً من تركيا الحالية، هذه القبائل التي مثلت العمود الفقري للدولة الصفوية منذ نشأة الحركة، وظلت فاعلة في العقود الأولى من تاريخ الدولة خصوصاً في عهد مؤسسها إسماعيل.

نعود للتأكيد أن أرضية الثقافة الفارسية شكلت عبر التاريخ الإسلامي بيئة خصبة وكامنة لتقبل التشيع، تجلت من خلال أغلب الدول الشيعية التي ظهرت عبر القرون في النطاق الفارسي، ومن الروح الصوفية ذات الأصول الأدبية الزرادشتية والهندوسية، ثم البوذية، التي تميزت بها الثقافة الفارسية الشيعية، ولم تكن عمليات القمع إلا عمليات تسريع لانخراط الإيرانيين في تفاصيل السلوكيات الشيعية في إطار مشروع سياسي قدم نفسه منافساً للسلطنة، ثم الخلافة العثمانية السنية.

وكسابقاتها من الدول الشيعية تركزت فعاليتها العسكرية في محاربة الأوزبك السنة شرقاً، والعثمانيين غرباً، الذين كانوا في صراعات على جبهتهم الشمالية في أوروبا المسيحية.

ما يهمنا لناحية الارتباط بموضوعنا هو أن الدولة الصفوية كانت عامل إنهاك لأهم قوة إسلامية حينها، عن طريق صدام مباشر، أو خلخلة داخلية باستغلال امتداد قبائل القزلباش في مركز الدولة العثمانية، وتشجيع حركات التمرد الداخلية.

وبالتزامن مع العلاقات المتوترة بينها وبين العثمانيين، طورت الدولة الصفوية مفاهيم إيديولوجية عمقت الهوة بين التسنن والتشيع، بتدعيم

الأخير بممارسات طقوسية جديدة، فبينما كانت تقاليد دول شيعية سابقة إحياء مظاهر كرنفالية في مناسبات، كالمولد النبوي، وكربلاء، خصص الصفويون وزارة بمسمى "الشعائر الحسينية" التي ذهب وزيرها إلى أوروبا الشرقية "وأجرى هناك تحقيقات ودراسات واسعة حول المراسيم الدينية والمذهبية والمحافل الاجتماعية المسيحية، وأساليب إحياء ذكرى شهداء المسيحية والوسائل المتبعة في ذلك حتى أنماط الديكورات التي كانت تزين بها الكنائس في تلك المناسبات، واقتبس تلك المراسيم والطقوس وجاء بها إلى إيران حيث استعان ببعض الملالي لإجراء بعض التعديلات عليها لكي تصبح صالحة لاستخدامها في المناسبات الشيعية وبما ينسجم مع الأعراف والتقاليد الوطنية والمذهبية في إيران، ما أدى بالتالي إلى ظهور موجة جديدة من الطقوس والمراسيم المذهبية لم يعد لها سابقة في الفلكلور الشعبي الإيراني ولا في الشعائر الإسلامية" كما ذكر المفكر الإيراني المعاصر علي شريعتي.

وفيما كانت فكرة النيابة عن الإمام في غيبته الكبرى غامضة وغير مفعلة، ولا سيما في شقها السياسي، اعتبرت الدولة الصفوية الحاكم مفوضاً بالسلطة الزمنية من نائب الإمام الغائب، وطالما النائب يتلقى تعليماته من الإمام "المهدي المنتظر" فإن سلطته معصومة ومقدسة تعد مخالفة قراراتها مخالفة دينية.

مع هذا ظلت السلطتان الروحية والزمنية تتمتعان بقدر من الاستقلالية، فكانت نظرية نائب الإمام نصف ثيوقراطية، واتخذها الحكام الصفويون تبريراً دينياً لسلطتهم المطلقة، ثم اقترح -بناء على رأي سابق للعالم الشيعي محمد بن مكي الجزيني الملقب "الشهيد الأول" في كتابه اللمعة الدمشقية- أحمد النراقي تسلم الفقيه "الولي الفقيه" السلطة

الزمنية مباشرة إلى جانب سلطته الدينية، لكنه خفف النزعة الثيوقراطية بعدم اعتبار الولي الفقيه نائباً للإمام الغائب وبالنتيجة عدم عصمة سلوكياته السياسية، وبصورة أخرى كانت نظريته عكس ما كان سائدا لكنها أيضا النصف الثيوقراطي المقابل لنظرية نائب الإمام المعصوم، إلى أن جاء الخميني ليدمج النظريتين في دعوته إلى قيادة الولي الفقيه السلطتين الدينية والسياسية نيابة عن الإمام، ليشكل بذلك نظرية ثيوقراطية كاملة تحكم إيران اليوم.

إذن فقد وضعت الدولة الصفوية عملياً بذور نظرية ولاية الفقيه، ووضعت قواعد قوة المؤسسة الدينية الشيعية القائمة في الوقت الراهن، وأعادت إمكانية إحياء الإمبراطورية الفارسية الساسانية السابقة على الإسلام، وأسست لانقسام إيديولوجي طائفي حاد في الداخل الإسلامي.

منذ العهد الصفوي اكتسبت المؤسسة الدينية الشيعية تنظيماً وقوة جعلتها عاملا مهما وحاسما في كثير من الأحيان على مسار التاريخ السياسي الإيراني.

في الفترة الواقعة بين السيطرة الصفوية على إيران قبل خمسمائة سنة وإلى اللحظة طورت المؤسسة الدينية أفكاراً تساعد على استمرارية فعلها، من أهمها مبدأ التقليد الصارم الذي ألزم كل شيعي جعفري في العالم أن يتخذ له مرجعية من رجال الدين يلتزم فتاواها، بالإضافة إلى تطوير مبدأ النيابة عن الإمام الغائب في بعض المسائل كصلاة الجمعة والجماعة وصولاً إلى فكرة الولاية المطلقة للفقيه على المجالين الروحي والزمني، الديني والسياسي.

ومن الناحية التنظيمية عززت المؤسسة الدينية الشيعية سلطتها من خلال الأخذ بنظام هرمي لرجال الدين يحاكي إلى حد ما تنظيم الكنيسة

الكاثوليكية، وبسوابق في تنظيمات باطنية سرية كالجناح الشيعي الإسماعيلي، وتبلور أكثر في مفهوم المرشد الكامل في العهد الصفوي، وحديثاً في المرشد الأعلى أو الولي الفقيه.

لعل أهم أسباب قوة المؤسسة الشيعية يكمن في قدرتها على حفظ استقلاليتها المالية عن السلطة السياسية، فبينما يمثل الوقف الديني مصدر الدعم المالي الأهم للمؤسسات الدينية في كثير من الأديان والأنظمة المذهبية الدينية، بما فيها المؤسسات الدينية السنية، فإن المؤسسة الشيعية تخلصت من إمكانية سيطرة السلطات السياسية على الأوقاف وإدارتها، وبالتالي التحكم بالحنفية المالية، بالاعتماد على ما يُعرف في الأدبيات الفقهية بأموال الخُمُس، والإيجاب على أي شيعي تسليم الخمس إلى نائب الإمام ، ويعني في هذه الحالة المرجعية الدينية، وبذلك تكون المؤسسة الدينية قد خلقت مصدر تمويل عصي على السيطرة والرقابة من السلطات السياسية مقارنة بالأموال الوقفية، زاد من أهميته الاجتهادات - الملزمة - التي وسعت مفهوم الخمس، المقتصر في الأدبيات الإسلامية على غنائم الحرب والركاز، ليشمل تقريباً كل مصادر دخل الفرد الشيعي.

الملالي والشاه وأمريكا

يزخر تاريخ إيران المعاصر بأمثلة تؤكد دور المؤسسة الدينية الشيعية في الشأن العام - بصرف النظر عن التقييمات السلبية أو الإيجابية لهذا الدور - من ذلك إعلان رجال دين، الجهاد ضد السلطات القاجارية إبان مخاضات الثورة الدستورية في العقد الأول من القرن العشرين، وما أسفرت عنه من صياغة الدستور في العام ١٩٠٧م، ورغم تأثر معديه بالدستورين الفرنسي والبلجيكي، إلا أنه أشار إلى الطبيعة المذهبية الدينية للدولة الفارسية بنصه على أن الإسلام على المذهب الجعفري الاثني عشري ديانة الدولة الرسمية.

وبقيت الاتجاهات المذهبية وسلطات رجال الدين لا سيما في المجال التشريعي مقننة دستورياً، إلى أن تحول جوهر الدستور الإيراني إلى ترجمة قانونية لأفكار الخميني في محاضراته عن "الحكومة الإسلامية"، عقب انتصار الثورة في ١٩٧٩م.

حتى مع النزعات العلمانية لرضا بهلوي، وإعجابه بكمال أتاتورك، ظلت المؤسسة الدينية قوية وعادت للانتعاش أكثر في عهد ولده الشاه محمد رضا، وكان لها دور حاسم في نجاح انقلاب مصدق أوائل الخمسينيات من خلال دعم رجال الدين وعلى رأسهم آية الله كاشاني، ثم الإسهام في إفشال مصدق واتهامه بالميول الشيوعية.

لقد كانت الشيوعية أغلب القرن العشرين محوراً للسياسات الدولية.

فبعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا العام ١٩١٧م، والاعتماد على الدولة السوفيتية في نشر ودعم الأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى،

حققت الماركسية جاذبية لكثير من الأفراد في مختلف أنحاء العالم، شاملة دولاً غربية وكل دول العالم الثالث سيما وقد قدمت نفسها مناهضة للاستعمار والإمبريالية، وتعززت هذه الجاذبية بدور الشيوعيين في مقاومة الاحتلال الغازي للعديد من الدول الأوروبية، ونضالهم ضد الاستعمار في آسيا وإفريقيا، وانقسم العالم عقب الحرب العالمية الثانية إلى معسكرين، شرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي يدين بالماركسية الشيوعية، وغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية يعتمد الرأسمالية محركاً لسياساته، وبينهما حاولت دول ما عرف بالعالم الثالث تشكيل تكتل لا يدين بالولاء أو التبعية لأحد المعسكرين، دول عدم الانحياز، غير أنه من الناحية العملية وجدت الدول، المحايدة نظرياً، نفسها ميالة إلى أحد المعسكرين، وإن تفاوتت في درجة الانخراط بينهما، ويبدو الأمر طبيعياً بالنسبة لهذه الدول نظراً لتخلفها واحتياجها في دعم تنميتها إلى أحد المعسكرين أو كليهما.

نتيجة للانقسام الاشتراكي، الرأسمالي وقع العالم تحت طائلة الحرب الباردة.

إيران، أو فارس كما كانت تسمى قبل تغيير الشاه رضا بهلوي لاسم الدولة، عانت من تنافس روسي بريطاني، ارتأى سياسيوها بعد ثورة ١٩٠٦م استجلاب توازن مصالح داخل الأراضي الإيرانية فقرروا استقدام خبراء أمريكيين في العام ١٩١١م، ما فتح باب النفوذ التدريجي للولايات المتحدة في إيران.

وبعد نجاح انقلاب رضا بهلوي سنة ١٩٢١م، زاد التقارب مع الولايات المتحدة، رغم محاولته إيجاد قدر من توازن القوى الكبرى في بلاده وإدخال ألمانيا في لعبة النفوذ في إيران، لكن المسألة حسمت بعد خلع رضا بهلوي عام ١٩٤١م أثناء الحرب العالمية الثانية بإخراج ألمانيا، ثم السوفيت

وبريطانيا، إلى حد ما، لصالح الولايات المتحدة الأمريكية التي خرجت من الحرب كأقوى دولة في العالم مقابل حالة الإنهاك للدول المتحاربة الأخرى بما فيها المنتصرة، الاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا، وسعي الأمريكيين إلى مواجهة التمدد الشيوعي بالحلول كوريث سياسي للاستعمارين البريطاني والفرنسي في آسيا وإفريقيا.

كان لإيران أسباب موضوعية للميلان باتجاه الولايات المتحدة، بعضها يتصل بالتجارب السلبية مع الروس، والطموح الروسي القديم في الوصول إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط، والخليج العربي، وهو الطموح الذي يمر عبر البوابة التركية، التي كانت عصية إبان العهد العثماني، وكارثية بعد انضمامها لدول حلف الأطلسي، ما يعني التزاماً غربياً بالحماية ضد الروس، ومن ثم وعى الإيرانيون أن بلادهم خيار أقل كلفة للروس. أسباب أخرى داخلية ترجع إلى قوة المؤسسة الدينية في إيران، بالرغم من مساعي رضا بهلوي، وأقل منه ولده محمد رضا لإضعافها، فقد أضاف رجال الدين عاملاً ثقافياً لرفض الميل نحو الروس يتمثل بشيوعيتهم "الملحدة" وتصاعد نشاط الشيوعيين في إيران لاسيما حزب تودة.

في الضفة الموازية اعتبر الأمريكيون إيران تركة بريطانية هي أولى بوراثتها من الروس، إلى جانب كونها واقعة في تماس مباشر مع المصالح والأمن الروسيين، غير ما أضافه النفط من أهمية في السياسات الدولية على إيران كدولة نفطية كبيرة وبوابة على أضخم إنتاج واحتياطي عالمي في الخليج العربي، وبحر قزوين.

من غير الصائب، اعتبار العلاقات الإيرانية الأمريكية إيجابية على طول الخط في عهد الأسرة البهلوية ١٩٢١ - ١٩٧٩م، على العكس مرت

العلاقة بأزمات، بينها ما عُرف بأزمة البريد الأمريكي، ومشكلة البعثات التبشيرية، ومصادرة المؤسسات التعليمية الأمريكية في إيران، وتبادل إغلاق السفارات، في عهد رضا بهلوي إلى الانتهاء بخلعه بتوافق أمريكي، بريطاني، سوفيتي، وتعيين ابنه محمد شاها بداية الأربعينيات، وتصادف اشتعال الحرب الباردة إبان ما كان حاكماً لإيران.

في عهد الشاه محمد رضا، انفصلت أذربيجان الإيرانية أربع سنوات - قبل استعادتها عام ١٩٤٦- بقيادة الحركة الشيوعية الأذرية وبحماية قوات سوفيتية، ونتيجة لذلك استعان الشاه بالولايات المتحدة الأمريكية لإخراج السوفييت، ومن جانبها استجابت وتعهدت بحماية عرش الشاه مقابل استخدام إيران في صراعها مع الاتحاد السوفيتي، وبالفعل حصل تعاون عضوي بين الجانبين الأمريكي والإيراني، عبر عن نفسه إلى درجة ما في مساندة المخابرات الأمريكية في إعادة الشاه إلى العرش عقب فشل حركة محمد مصدق أوائل الخمسينيات، لكن في واقع الحال لم يكن تعهد الأمريكيين بحماية الشاه هو السبب الحقيقي لتدخلها لصالحه، فقد تخلت عنه نهاية السبعينيات، إنما ميول مصدق واعتماده إلى حد كبير على الشيوعيين، وتزايد دورهم، وخطواته في تأميم النفط دفع بالتدخل الأمريكي الاستخباراتي، وتحريك الجيش الإيراني لإنهاء حركة مصدق، الذي تخلت المؤسسة الدينية عنه بزعامة آية الله كاشاني.

ومرة أخرى تلتقي المصالح الأمريكية مع المؤسسة الدينية الإيرانية مع إعلان الشاه عن ثورته البيضاء في العام ١٩٦٣م، بما اشتملت عليه من تهديد كبار الملاك الزراعيين بنزع ملكياتهم، وإنذار رجال الدين بسحب الأراضي التي بحوزتهم، ومنح المرأة حق الانتخاب، ما جعل المؤسسة الدينية بثقلها الجماهيري - النابع من طبيعة البنية الفكرية والتنظيمية

والتاريخية للمذهب الشيعي الجعفري في إيران - تكثف معارضتها للشاه، واتهمت الشاه بمخالفة الشريعة الإسلامية، وبين ليلة وضحاها برز اسم الخميني في ١٩٦٤م بجرأة غير معهودة من المؤسسة الدينية في توجيه النقد مباشرة إلى الشاه، ومن وقتها أصبح الخميني شخصية شعبية، رغم أن المؤسسة الدينية كانت تضم شخصيات دينية أعلى منه حسب التراتب الهرمي الشيعي الجعفري، حيث كان حينها آية الله، فيما هناك ثلاثة يحملون لقب آية الله العظمى.

وتصاعدت معارضة الشاه بتشكيل تنظيمات مسلحة، كفدائيي خلق الماركسية، ومجاهدي خلق، من تلاميذ منظر الثورة الأول علي شريعتي.

بالنسبة للأمريكيين، كان لموقفهم من أحداث السبعينيات التي انتهت بنجاح الثورة ضد الشاه مكونان رئيسيان، أضيفت إليهما أحداث أفغانستان، المجاورة لإيران.

تضمنت الثورة البيضاء للشاه اتجاهاً قومياً يعيد الاعتبار لصالح الدولة الإيرانية بما يخرجها على المدى الطويل عن الهيمنة الأمريكية، والبقاء تحت وضعية التبعية، عبر عنه باحتفالية كبيرة حضرها كثير من زعماء العالم، إحياء لذكرى تأسيس الإمبراطورية الفارسية قبل ألفين وخمسمائة سنة.

حاول الشاه بناء نهضة إيرانية في مختلف الجوانب، تعليمية وصحية واقتصادية وعسكرية، ولم يكن مسعى إدخال إيران في النادي النووي بتأسيسه وشروعه في البرنامج النووي الإيراني، إلا أحد بنود المشروعات الطموحة للشاه، إضافة إلى برنامج صاروخي، وتنمية تعليمية وخدمية ثورية. واشتملت المحاولة النهضوية إعادة صياغة العلاقات الاقتصادية النفطية مع الغرب بقيادته سياسات رفع سعر النفط في السوق العالمية،

وتأكيده أنه لم يعد مقبولاً أن يأخذ الغرب برميل البترول بخمسة عشر دولاراً ليعيدوه إلى الدول المنتجة سلعاً صناعية تفوق قيمتها المئة دولار، وفي هذا الاتجاه خطط لبناء إحدى أهم المنشآت البيتروكيميائية في العالم للاستفادة القصوى من ميزة الثروة النفطية لبلاده، وفي خطوة اقتصادية وسياسية مهمة اتفق مع السوفييت على إنشاء أكبر مصنع للحديد الصلب في آسيا.

الاتجاه الجديد للشاه كان يعبر عن طموح غير مسموح به أمريكيا، ويمثل انحرافا عن الخط الأمريكي، ومحاولة لتجاوز السقوف الأمريكية المحددة لمختلف دول العالم، وبالذات الواقعة في دائرة مصالح السياسات الأمريكية الحيوية، وإيران واحدة من أهمها في ظل الحرب الباردة لوقوعها جغرافياً بين أعلى مخزوني نفط في العالم، الخليج العربي وقزوين، وملامستها لحدود حيوية مع الاتحاد السوفيتي، ووقوعها تقليدياً ضمن مجموعة من الدول المحسوبة على النفوذ الغربي في الشرق الأوسط.

المكون الثاني في تغيير السياسات الأمريكية حيال نظام شاه إيران مرتبط بالحرب الباردة. فقد تميزت الشيوعية الماركسية ببنية نظرية متماسكة استندت في التطبيق على أحزاب شيوعية عالية التنظيم حكمت أو لعبت دوراً مؤثراً في أغلب دول العالم، بالخصوص دول العالم الثالث، التي تشكل بمجموعها دول الموارد والثروات غير المستخدمة، وبالتالي الحساسة في الصراع الغربي الشرقي، واستطاعت أجهزة الدعاية الشيوعية أن تقدم صورة عن الاتحاد السوفيتي والشيوعية كمناهض فعال لـ"الإمبريالية" والاستعمار، الغربي بطبيعته وبوعي الشعوب، رغم أن الدولة الروسية ووريثتها السوفيتية تشكلت جراء حلقات استعمارية شملت نصف أوروبا وكثيراً من مساحة آسيا.

على العكس بدت الرأسمالية غير متماسكة إيديولوجيا، ونظاماً لدول نهبت واستعمرت شعوباً ضعيفة.

أسهمت نقاط الضعف الغربية في تقليص قدراتها على اختراق شعوب الدول الثالثية، ولجأت كبديل متوفر إلى سياسة المساعدات للأنظمة السياسية الموالية، ومحاولة تطويق الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية عموماً، بأحلاف اقتصادية وسياسية وعسكرية، ونجحت في ذلك عبر حلف الناتو بشكل رئيسي، لكنها فشلت في استكمال حائط الأحلاف، بإخفاق الحليف البريطاني في تكوين ما عرف بحلف بغداد الذي ضم دولاً بينها إيران وباكستان الواقعتان في الجنوب الغربي للاتحاد السوفيتي.

بالإضافة إلى ذلك أخفقت المنظومة الغربية في تكوين أذرع شعبية فاعلة في كثير من الدول كما فعل الاتحاد السوفيتي من خلال الأحزاب الشيوعية، ما جعل الاعتماد الغربي على الحكام الموالين غير كافٍ.

انتعاش التيارات الدينية

لأسباب مازالت بحاجة لدراسة جادة، وإن كنا نستطيع تلمسها في غير بقعة، طفت على السطح السياسي تيارات دينية فاعلة ونشيطة وشعبية، خلال سبعينيات القرن الماضي، ليس في العالمين العربي والإسلامي فحسب، بل حتى في الولايات المتحدة الأمريكية وانتعاش التيار الصهيوني المسيحي، ربما في الوطن العربي كان لانتكاسة المشروع القومي في الستينيات، بهزيمة ١٩٦٧م، وانقسام حزب البعث، أثر كبير في توجه الشارع نحو الحركات الدينية، زاد فيه دور المال النفطي في تمويل الحركات الدينية لتوظيفها سياسياً.

هذه الموجة السياسية الدينية قوت في إيران من شوكة المؤسسة الدينية في مواجهة الشاه، ساعدها في ذلك انخفاض الدعم الشعبي للشاه جراء التضخم الناجم عن التوسع في الإنفاق لتمويل الخطط التنموية الطموحة، مع أن المواطن الإيراني كان وقتها الأفضل من الناحية المعيشية بين مواطني بقية دول الشرق الأوسط، ماعدا مواطني الكيان الإسرائيلي.

التقطت الولايات المتحدة الأمريكية النزعات الشعبية السياسية الدينية كفرصة بديلة للتطويق السياسي والعسكري للاتحاد السوفيتي، تقوم على الاستفادة مما يمكن أن تشكله الحركات الدينية من جدار عقائدي أمام العقيدة الماركسية الشيوعية ذات الميول اللادينية المتطرفة، وبخاصة في منطقة الشرق الأوسط الحساسة بموقعها الجغرافي، وطاقتها النفطية الهائلة على حلبة الحرب الباردة.

وتصاعدت أهمية الموجة الدينية في إيران للمصالح الأمريكية، نتيجة الاحتراق الشعبي للشاه، وتدني جدوى إعادته إلى دائرة التبعية، مثلما حصل -إلى حد ما- بداية العقد الثاني في القرن الحادي والعشرين، للرئيسين المصري والتونسي، مبارك وبن علي.

الأهم، الخشية الأمريكية من سيطرة الأحزاب الشيوعية في إيران على مقاليد الحكم، كما حدث في التغلغل الشيوعي السريع في القرار السياسي أثناء حركة مصدق بالخمسينيات، خصوصاً وقد رافق التحرك الثوري الحاسم والواسع في إيران عامي ٧٧-١٩٧٨م سيطرة الشيوعيين على الحكم في دولة أفغانستان المجاورة، وما يعنيه من اقتراب الاتحاد السوفيتي من المياه الدافئة في الخليج والمحيط الهندي، والتماس المباشر مع منبع النفط الأول في العالم فيما لو سقطت إيران بيد الشيوعيين بعد سقوط جارتها.

بصرف النظر عن اتهامات سلطة الشاه للخميني بالعمالة للمخابرات البريطانية في شبابه، فقد بدا واضحاً الموقف الغربي المؤيد للثورة الإيرانية التي استطاع الخميني التصدر لقيادتها، إذ رفعت الولايات المتحدة ورقة حقوق الإنسان في وجه الشاه، إلى جانب تصريحات غامضة من دبلوماسييها، وفيما كان الشاه مازال يعتقد بوجود بعض خيوط الود مع الولايات المتحدة آملاً مساعدتها، أصدرت وزارة الخارجية الأمريكية في عهد كارتر - الذي كانت علاقات إدارته بإيران متوترة - تصريحاً رسمياً أعلن صراحة أن الولايات المتحدة لا تنوي التدخل في شؤون إيران بأي شكل من الأشكال، لكن الأخطر في الموقف الأمريكي من ثورة الخميني ضد الشاه هو عملها على تحييد الجيش الإيراني، عامل القوة الأهم للشاه، ومما يُذكر في هذا الصدد أن أحد المقربين من الشاه نصحه باستخدام الطيران في قمع الثوار، فكان رد الشاه أن الطيارين يأتمرون بأمر الأمريكيين لا بأمره، حيث كان آلاف المستشارين الأمريكيين يشرفون على تأهيل الجيش الإيراني.

أشار الشاه محمد رضا في مذكراته إلى ما اعتبره تضليلاً من قبل الأمريكيين والبريطانيين، والأهم إلى مقابلة جرت بينه وبين ممثل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في إيران، خرج منها بقناعة بأن الأمريكيين تخلوا عنه لصالح الخميني، وهو ما تأكد من زيارة الجنرال هاوسر نائب القائد العام لقوات حلف الأطلنطي في أوروبا، لإيران، والتي استغرقت ثمانية أيام في بداية العام ١٩٧٩م، وانحصرت مهمة هاوسر في منع الجيش

الإيراني من القيام بانقلاب لإنقاذ عرش الشاه- كما حدث في الخمسينيات- وكان واضحاً أن هدف الإدارة الأمريكية أثناء تصاعد الحركة الثورية منصباً على إبعاد القوات المسلحة الإيرانية عن التحرك نهائيا.

وفي الاتجاه كان للمخابرات الأمريكية دور حاسم في تأمين عودة الخميني من فرنسا إلى إيران، وإقناعها السلطات الفرنسية بتأجيل رحلة الطائرة التي أقلت الخميني، ثلاثة أيام، تفادياً لاحتمالية إسقاطها في الأجواء الإيرانية من قبل موالين للشاه.

وعلى ذات المضمار تولى الإعلام الغربي، سيما الأمريكي والفرنسي والبريطاني، والإسرائيلي مهمة مهاجمة الشاه، وفتح أبوابه للخميني، من ذلك أن الصحف الأمريكية كانت تنشر تصريحات الخميني وصوره في أعمدتها الرئيسية بجوار بيانات المعارضة الإيرانية في الولايات المتحدة، أما هيئة الإذاعة البريطانية فساندت الخميني بشدة وبث بالفارسية دعواته إلى قلب نظام الشاه، ونشرت مراسليها في أنحاء إيران لنقل وجهات نظر الثوار، وأبرز الإعلام الفرنسي الخميني بوصفه زعيماً جديداً لإيران.

نجحت الثورة الإيرانية رسمياً في فبراير ١٩٧٩م، وعاد الخميني إلى طهران زعيماً شعبياً بدون منازع، وما إن وصل حتى شرع في ترتيبات تحويل آرائه السياسية في محاضراته المجموعة في كتاب "الحكومة الإسلامية"، إلى مشروع سياسي أوحد، لكن هذا المشروع في الواقع كان مصطدماً برؤى مخالفة من شركاء الثورة، ما جعل الخميني وأتباعه أمام مهمة مزدوجة، تصفية العهد البهلوي من جهة والتخلص من شركاء الثورة خارج خط ولاية الفقيه من جهة ثانية، ولتحقيق ذلك استمر الخميني على الأساليب التعبوية الكرنفالية الشيعية وخلق شعارات

سياسية جذابة للمزاج الإسلامي عموماً، من أهمها شعار "الموت لأمريكا، الموت للاتحاد السوفيتي، الموت لإسرائيل"، واستعار من موسى الصدر مصطلحات "المستكبرين" والمستضعفين"، وأتى بمقولة "الشيطان الأكبر"، وتوسل الخميني تدابير عملية تتركز في إيجاد سلطة خاصة موازية لسلطات الدولة كالمجلس الثوري الإسلامي الذي عمل في خط مواز لحكومة بازركان، واللجان الثورية، واللجان الشعبية، وما عُرف بمندوب الإمام (مُشْرِف) في مختلف مؤسسات الدولة، والأهم تأسيس الحرس الثوري الإيراني الذي يعد إلى اليوم الذراع العسكري والأمني والاقتصادي لنظام ملالي ولاية الفقيه.

تمكن الخميني من خلال ضمان غلبة الموالين له في لجنة لصياغة دستور ما بعد الثورة من إدخال مفهوم "ولاية الفقيه" كمرتكز للنظام السياسي الجديد، بل إنه أثناء تسرب الجدل والخلاف من اللجنة إلى خارجها تدخل الخميني مباشرة وألقى خطاباً جماهيرياً جاء فيه "أن ولاية الفقيه ليس شيئاً من ابتكار واختراع خبراء اللجنة وإنما هي شيء قد أمر الله به"، وكان يعني اعتماد النظام السياسي لولاية الفقيه مواجهة الرافضين لهذا النظام.

وبدون الإسهاب في الموضوع، أنشأ الخميني "محاكم الثورة" في أنحاء إيران، وأصدرت أحكاما أسفرت عن وجبات إعدام بالآلاف لمحسوبين على نظام الشاه، مدنيين وعسكريين، وبعمليات قمع ممنهجة أزاح الخميني وأتباعه خلالها شركاء الثورة العلمانيين، وأحزاب دينية سنية، ثم الرافضين لولاية الفقيه من رجال الدين الشيعة بينهم، وأهمهم آية الله العظمى شريعتمداري وأنصاره، شريعتمداري هذا أحد أهم المراجع الشيعية في العالم، وهو من أنقذ الخميني من حبل المشنقة أو السجن أواسط الستينيات بإضفاء لقب "آية الله العظمى" على الخميني ما فوت على

الشاه إمكانية إعدامه أو سجنه لأن العرف الدستوري والقانوني الإيراني يحظر حبس أو إعدام أي مرجعية دينية يصل إلى درجة "آية الله عظمى"، وانتهى الأمر بالخميني وأتباعه بإخراج آية الله حسين منتظري من المشهد السياسي، ووضعه تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، على الرغم أن منتظري كان أحد أعمدة نجاح الخميني، بل وأهمها، سواء أثناء الثورة أو بعدها، وكان الرجل الثاني بعد الخميني، ورشح لخلافته، أما السبب فآراؤه المعتدلة وبخاصة ما يتعلق بالولاية المطلقة للفقيه.

أداة لإضعاف العرب

لقد كان نظام ولاية الفقيه مهيئاً بمخزون الكراهية الموروث من النظرية الشيعية الفارسية ليكون أداة من أدوات الصراع في الحرب الباردة، ووسيلة قليلة الكلفة في إيجاد قدر من توتير المحيط الإقليمي العربي، يمتص الجهود ذات البعد القومي، ويقلص أوراق الضغط العربي على الكيان الإسرائيلي، بنفس الوقت الذي يجعل النفط الخليجي والأموال الناجمة منه تحت رعاية العم سام، ولأسباب متعلقة بتوافق ضمني لمثلث المصالح الأمريكية والإسرائيلية والإيرانية مارست الأخيرة ما نستطيع تسميته سياسة الإيذاء لجيرانها العرب.

لم يكن السلوك الفارسي تجاه العرب وقبلهم الساميين ودياً في أغلب المسار التاريخي بين الجانبين، وحتى نكون منصفين فإن العلاقات بين أي كيانين سياسيين متجاورين كانت تتسم بالتوتر أو الصراع، لكن أكثر تلك الصراعات كان ذا طابع سياسي بدرجة أساسية، فيما الصراع

الفارسي العربي ممزوج بمضامين ثقافية حافظت على نزعة كراهية فارسية للعرب، على سبيل المثال استطاع اليونان أن يعوضوا هزيمتهم السياسية أمام الرومان بغزو ثقافي انتهى بسيادة الثقافة اليونانية، وإحداث حالة تمازج إيجابي بين ما هو يوناني وما هو روماني، بحيث أن الثقافة اليونانية تخلت عن عقيدة التفوق والسعي لالتقاط الثقافة الرومانية الناشئة بغرض التحكم ببنيتها وزرع بذرات الصراع داخل البنية الثقافية الجديدة، بعكس ما حصل من تغلغل الثقافة الفارسية في البنية الثقافية الإسلامية للعرب حاملة معها حقد الانهزام السياسي.

إضافة إلى ذلك فقد تطورت السياسات العالمية باتجاه إرساء تقاليد وقواعد، وإنشاء مؤسسات مشتركة تحاول ترشيد الخلافات السياسية بين البشر والدول، من ذلك احترام سيادات الدول وعدم تدخل دولة ما في الشؤون الداخلية لدولة أو دول أخرى، بصورة مباشرة، غير أن مصالح الدول الكبرى في ظل هذا التطور السياسي الدولي لجأت لاستخدام أدوات تحكم غير مباشرة.

في القرن الأخير، تخللت العلاقات الإيرانية العربية في عهد الأسرة البهلوية شوائب من بينها احتلال إيران لجزر أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى الإماراتية بداية السبعينيات، مع هذا كانت القدرات الإيرانية محدودة في سياسات الإيذاء لجيرانها العرب لأسباب متصلة بعوامل إقليمية ودولية لا تقبل تجاوزاً كبيراً على القانون الدولي كعملية احتلال وضم عسكري لدولة ذات سيادة كالبحرين مثلاً التي يعتبرها إيرانيون أرضاً تابعة لهم، وكان البديل تأثير إيران في سياسات الدول المجاورة لصالح النفوذ الإيراني عبر وسائل تقليدية في السياسات الدولية، كالمساعدات وهي غير قابلة للتنفيذ في حالة دول عربية مجاورة ثرية، أو العمل الاستخباراتي، غير

أن الأخطر كان القدرة على إنشاء أذرع داخل الدول المجاورة، وهو مالم يتمكن منه النظام البهلوي إلا في حالة استغلال الأقلية الكردية في العراق، لكن الأكراد يمكن بالمقابل استخدامهم كورقة ضد الإيرانيين بسبب تواجد الملايين منهم في إيران ومعاناتهم من الحكم الفارسي.

بعكس الشاه، توفر للخميني وقد أقام دولة دينية شيعية، وبشعارات معلنة ضد أمريكا وإسرائيل، إمكانية فتح ثغرات مهمة في الجدار العربي عبر الأقليات الشيعية المتناثرة في دول المشرق العربي، وما يمكن إضافته من تعاطف شعبي بين العرب السنة المستائين من السياسات الأمريكية في منطقتهم، والمعانين من الخطر الإسرائيلي، وخمول النظام السياسي العربي، إلى جانب جاذبية المعتقدات الشيعية المعلنة في إيران لبعض ممن ينسبون أنفسهم سلاليا للإمام علي، وما تعطيه تلك المعتقدات من مسحة قدسية تضعهم في دائرة التمايز عن غيرهم من البشر.

وما زاد إمكانية الاختراق الإيراني من الناحية النظرية، التماهي الشديد بين السلطتين الدينية والسياسية في المعتقدات الشيعية "الثيوقراطية"، قوّاها أكثر،ترسخ اجتهادات مارسها بقوة في القرن السادس عشر الميلادي عقا محمد بكير بهبهاني الذي أوجب على كل مؤمن أن يختار مجتهداً كمصدر للمحاكاة أو كمرجع للتقليد وأصبحت آراء المرجعيات تعليمات دينية واجبة التنفيذ، ما أدى إلى حسم عامل القوة لصالح المؤسسة الدينية، التي ظلت قوية في إيران، إلى أن تسلمت مباشرة الحكم عبر نظام ولاية الفقيه، بقيادة مرجعيات دينية شيعية لا يتوقف واجب طاعتها داخل الحدود السياسية الإيرانية، وإنما يمتد إلى كل شيعي في العالم يتخذ من أحد هذه القيادات "مرجعية تقليد"، على سبيل المثال

اعتبار أمين عام حزب الله الحالي حسن نصر الله نفسه وكيلاً لمرشد الثورة الإيرانية في لبنان.

في الواقع لم يكن نظام ولاية الفقيه متحرجاً من إظهار نيته في القيام بدور المزعزع لاستقرار المنطقة، فقد نص الدستور الإيراني في فصل "السياسة الخارجية"، المادة (١٥٤) على أن "الجمهورية الإسلامية الإيرانية تقوم بدعم النضال المشروع للمستضعفين ضد المستكبرين في أية نقطة من العالم"، وكانت الترجمة المهمة لهذه العبارة تصريحات مسؤولين إيرانيين عن "تصدير الثورة" وإنشاء مكتب بهذا الاسم في وزارة الخارجية الإيرانية عقب نجاح الثورة الخمينية، ونقله إلى مكتب المرشد الأعلى للثورة بناء على طلب وزير الخارجية وقتها بسبب ما كان يلاقيه من تساؤلات دبلوماسيي دول أخرى حول أهداف مكتب تصدير الثورة.

لقد كانت سياسات نظام ولاية الفقيه، وما زالت مؤذية لجيرانها العرب، من خلال تشجيعها ودعمها للتمردات والتحركات الطائفية في العديد من البلدان، وتأسيسها حركات سياسية شيعية موالية كحزب الله في لبنان وبعض دول الخليج، وكثير من مكونات الحشد الشعبي في العراق، والحوثيين في اليمن.

ارتبط نهج الإيذاء والتحريض من أيام ثورة الملالي الأولى، ولا يعدم المهتم كثيراً من الشواهد، منها صرخة الخميني ونداؤه لحجاج مكة عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م) بإثارة الشغب أثناء أداء مناسك الحج، وحدوث فتن بعض السنوات بحجة إعلان البراءة من أمريكا وإسرائيل، لكن في مكة التابعة سياسياً للمملكة العربية السعودية، ومنها مظاهرات عاشوراء شرقي السعودية أواخر العام ١٩٧٩م وتحولها إلى مظاهرات سياسية مؤيدة للخميني.

وعلى المستوى الديني الإسلامي عموما، كان انتصار الثورة الإيرانية إعلان نعي لمحاولة التقريب بين المذاهب الإسلامية، عبر مؤسسة دار التقريب التي أنشئت في النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي في مصر من علماء من مختلف المذاهب الإسلامية بينها المذهب الجعفري الاثني عشري، وقد كانت وصلت إلى نتائج طيبة منها تفسير للقرآن متفق عليه، لكن تحت تأثير إنعاش الثورة الإيرانية لإمكانية بروز التشيع مسنودا بالقوة السياسية الإيرانية وإمكانياتها المالية، قل بريق التقريب بين المذاهب الإسلامية النشط على مدى يزيد على ثلاثين عاما، ولم تحوله الثورة الخمينية إلى أولوية من بين أولوياتها الفكرية، بالعكس سلكت بشكل طائفي، على الصعيدين الداخلي والخارجي، تماشيا مع نزعة التفكيك الداخلي للمجال الإسلامي.

الحرب العراقية الإيرانية

خرج الشاه من إيران، وانهار نظامه، وعاد الخميني إليها محملاً بتنفيذ برنامج "ولاية الفقيه"، وهو البرنامج الذي يقتضي تكوينه الديني بيئة خالية من المعارضة، فعمل نظام الخميني على تسوية الأرضية السياسية والاجتماعية الإيرانية بتصفية دولة الشاه، وشركاء الثورة على مدى يقارب خمس سنوات، وكانت واحدة من أهم المعضلات الجيش الإيراني المبني خلال نصف قرن في الفترة البهلوية، على الولاء للشاه، فلجأ النظام الجديد إلى مهمة مزدوجة، تقوية الحرس الثوري، الذراع العقائدي العسكري للولي الفقيه، وبالموازاة إضعاف الجيش النظامي القوي بتأهيله وعدده وعتاده، وغير مضمون الولاء.

وبالفعل بحث النظام عن وسيلة تكفل له التخلص من عقبات الداخل، وتساعد في تعبئة الإيرانيين لصالح ولاية الفقيه، فكان العدوان على العراق الطريق الأقصر - بنظر نظام الخميني - لتصفية المشاكل الداخلية من ناحية، وتنفيذ المهمة الجديدة في زعزعة استقرار المنطقة العربية، من خلال محاولة ضرب العراق الذي تصاعد دوره القيادي في المنظومة العربية، برؤية قومية ومشروع نهضوي شكل خطراً حقيقياً على الكيان الصهيوني.

ولعل المهتمين يعرفون الدور العراقي في الحروب العربية الإسرائيلية، وعقب توقيع السادات اتفاقيات كامب دايفيد مع الإسرائيليين. وإذا راجعنا السياسات الغربية منذ البروز الأوروبي ثم الأمريكي نلحظ عدم استعدادها قبول المشروعات السياسية ذات البعد

القومي العروبي، ابتداءً بمحمد علي ومروراً بعبد الناصر وأخيراً صدام حسين.

بدأ نظام ولاية الفقيه، المؤمن بتصدير ثورته، تحرشاته بالعراق.

بعد توقيع اتفاقية الجزائر العام ١٩٧٥م بين العراق وإيران، أوفت الأولى بالتزاماتها، فيما شكلت لجنة من الدولتين لتسوية المسائل الحدودية بينهما، وتسليم أراضٍ للعراقيين حسب الاتفاقية، ومع نجاح الثورة في إيران رفض الخميني إرسال أعضاء جدد إلى لجنة الحدود الإيرانية العراقية، كما أن الخميني رد على برقية، أرسلها الرئيس العراقي صدام حسين بمناسبة الفوز باستفتاء شعبي، وذيل الرد بعبارة " السلام على من اتبع الهدى"، ما أوحى باتجاه سياسي للدولة الإيرانية الجديدة يعتبر النظام العراقي كافراً، وبالنتيجة مستحقا للعداء.

أما على المستوى العسكري والاستخباراتي، شرع الإيرانيون بأعمال تخريبية في العراق بينها محاولة اغتيال طارق عزيز أحد كبار المسؤولين العراقيين، والاعتداء العسكري بأسلحة ثقيلة على أراض ومدن عراقية حدودية واحتلال بعضها، وإصدار بيانات عسكرية إيرانية بالخصوص، رغم محاولة الجانب العراقي التعامل مع التطورات الجديدة سياسياً، من ذلك رفع شكاوى بالاعتداءات الإيرانية إلى الأمم المتحدة.

اضطر العراقيون بعد ما يقارب ثلاثة أسابيع في سبتمبر ١٩٨٠م إلى رد عسكري قوي على الاعتداءات الإيرانية، وفق حسابات قرأت خطورة السياسات العدائية لنظام ولاية الفقيه، وهي القراءة التي أثبتت تطورات الثلاثة العقود الأخيرة صحتها.

ومع اتساع الحرب بين الجانبين، واستمرارها ثماني سنوات، وقتل وجرح وأسر مئات الآلاف من الضحايا، ظل نظام الخميني رافضاً لكل مبادرات السلام الإسلامية والدولية، بما فيها قرارات صادرة عن مجلس الأمن تدعو لوقف الحرب، في مقابل القبول الدائم من قبل العراقيين لإنهاء النزاع، وبقي الخميني ونظامه يؤكدون مراراً أن حربهم لن تنتهي إلا بإسقاط النظام البعثي "الكافر" الأمر الذي تم بالفعل لكن على أيدي الأمريكيين مباشرة في العام ٢٠٠٣م، إثر فشل الوكيل الإيراني في الثمانينيات، والعدوان الثلاثيني في التسعينيات.

وعندما أرغمت الانتصارات العراقية، في السنة الأخيرة من الحرب الإيرانيين على قبول القرار الأممي (٥٩٨) بوقف إطلاق النار بين البلدين، فإن الخميني شبَّه قبوله القرار بتجرُّع السم.

الموقف الأمريكي الإسرائيلي

خلال سنوات الحرب انقسم العرب بين مؤيد لإيران كبعض الحركات الدينية، ودول انحازت بشكل كامل للإيرانيين ولعبت دوراً مهماً في تزويدهم بالسلاح، ليبيا وسوريا، فيما وقفت دول أخرى وأحزاب قومية وليبرالية إلى جانب العراق، بينها مصر والأردن وبعض دول الخليج واليمن، وساندت العراقيين بالمال والمقاتلين -وهذا يفسر جزئياً اندفاع الحوثيين إلى تفكيك الجيش اليمني، وحله غير المعلن- بينما حاولت دول أخرى التزام الحياد كسلطنة عمان.

الموقف الدولي كان رافضاً للحرب عبر المؤسسات الدولية، وعلى مستوى الدول، أهمها الدول الكبرى فكانت على الحياد نظرياً غير أنها

من الناحية الفعلية لم تكن ترفض طلبات شراء الأسلحة من الجانبين، والأمر يبدو طبيعياً بحسابات المصالح، إلا أن ما يثير التساؤلات هو الموقفان الأمريكي والإسرائيلي من الحرب، لما للدولتين من قوة تأثير في المنطقة، وما بينهما من توافق كبير في سياستيهما في الشرق الأوسط.

لعل من المناسب قبل الدخول في بعض التفاصيل الإشارة إلى أن مصلحة الدولتين إضعاف واستنزاف القوتين الإقليميتين، العراق وإيران، لما لهما من ثروة نفطية تمكنهما من تمويل مشروعات نهضوية حقيقية، وتمويل جيشين، لا يستبعد أن يستخدما في مواجهة مصالح الأمريكيين والإسرائيليين في المنطقة، فمثلت الحرب فرصة لتصفية المشروع النهضوي - ذي الطابع القومي - لنظام الشاه السابق، والتخلص من النظام العراقي القومي الاتجاه الذي شكل بنموه وجيشه ومنحاه الاستقلالي عن الدول الكبرى خطراً فاعلاً على الإسرائيليين.

وفي حقيقة الأمر، فإن الموقف الأمريكي، الذي تشكل إسرائيل أحد أهم محدداته في المنطقة، اتسم بالازدواجية، أو السياسة ذات الوجهين من الحرب العراقية الإيرانية، فالموقف المعلن كان أقرب للحياد، مع تصريحات هنا وهناك ضد الإيرانيين، لكن لا علاقة لها بالحرب وإنما بدعم إيران للإرهاب، ويمكن القول إن الموقف الرسمي الأمريكي كان مراعياً لحلفائه العرب في المنطقة، وعلى رأسهم المملكة العربية السعودية المؤيدة للعراق في حربه، رغم موقفها السلبي إجمالاً من النظام العراقي وتوجهاته العلمانية والقومية ذات الميول الاشتراكية على المستوى العربي، وما يتضمنه من انتقادات للأنظمة العربية التي تعتبرها النظريات القومية العربية ذات توجهات رجعية، إلى جوار ما توحيه من اعتبار كل ثروة على أرض عربية ملكاً للعرب جميعاً، ما يعني أن نفط الخليج ليس ملكاً لمواطني

ودول الخليج العربي وحدها، بل لكل العرب، بما فيه النفط السعودي. وعلى كل حال فضلت السعودية الوقوف إلى جانب العراق لأسباب متصلة بسياسات الإيذاء الإيرانية ومقولات تصدير الثورة، ووجود أقلية شيعية مهمة في مناطق إنتاج النفط السعودية وما يمكن أن تشكله من ذراع لنظام ولاية الفقيه الديني، ظهرت احتماليته القوية مع مظاهرات عاشوراء التي تحولت لمسيرات مؤيدة للخميني في شرق السعودية.

أما الوجه الآخر للموقف الأمريكي فكان غير رسمي ومتورطاً في دعم إيران عسكرياً عن طريق التعاون مع إسرائيل، ومن البديهي أن المساندة الأمريكية والإسرائيلية كانت لازمة لتمكين إيران من الصمود أمام الجيش العراقي، على الأقل في السنوات الأولى للحرب، نظراً لأن الجيش الإيراني كان مبنياً وفق المعايير العسكرية الأمريكية طيلة أكثر من ثلاثين عاماً، وكانت تبعيته كاملة للأمريكيين من حيث التسليح، ولهذا فقد كان التعاون الأمريكي والإسرائيلي ضرورياً للجيش الإيراني، إن لم يكن في تزويده بأسلحة جديدة فليس أقل من عمليات الصيانة والإمداد بالذخيرة وقطع الغيار بعكس الجيش العراقي المعتمد في التسليح على مصادر متنوعة، وإن كان أهمها السلاح السوفيتي، وليس من بينها السلاح الأمريكي.

بالمقابل، وعلى نفس المنوال الأمريكي كانت السياسة الإيرانية، ذات وجه شعاراتي معلن شديد العداء لأمريكا وإسرائيل، تصدره الخميني، فيما الوجه غير الرسمي تولاه بصورة رئيسية مجلس الدفاع الأعلى، برضى الخميني.

دعم إسرائيلي لجيش الخميني

وبوصف مجمل مسار الحرب العسكرية العراقية الإيرانية، فإنها نحو السنة والنصف الأولى، والسنة والنصف الأخيرة كانت ميدانياً لصالح القوات العراقية، وبقية الفترة كانت تصب في المصلحة الإيرانية، وكان سبب التفوق العراقي بداية الحرب يعود من حيث التسليح إلى القوة الجوية، والدبابات، حتى أن الجيش العراقي كان يقترب من هزيمة الإيرانيين باكراً باقترابه من منابع النفط الإيرانية، مصدر التمويل الأهم للجيش والحرس الثوري الإيراني، لكن الميزة النسبية للجيش العراقي تم تقليص فاعليتها إلى حد حوّل مسار الحرب بفضل المساندة الأمريكية والإسرائيلية، وقد كانت مناقشات مجلس الدفاع الإيراني تؤكد أن الإيرانيين غير قادرين على الصمود العسكري إلا عدة أشهر مالم يضمنوا استمرار المساعدة التسليحية الأمريكية.

كان التعاون الرسمي بين الجيشين الإيراني والإسرائيلي انتهى بهروب الشاه، غير أن الاتصال ظل قائماً، ولم يمنعه الخميني، بل على العكس أطلق يد ضباطه في التعامل مع زملائهم الإسرائيليين، وظل المستشارون الإسرائيليون متواجدين سراً في القواعد العسكرية الإيرانية مباشرة، وكان لهم الفضل الحاسم في قيام الطيارين الإيرانيين بأداء دورهم بعد أسبوعين من اندلاع المعارك في شط العرب، عقب عمليات الصيانة الإسرائيلية للطائرات الإيرانية، مثلما عملت أمريكا بين العامين ٨٤-١٩٨٥م على مضاعفة عدد طائرات سلاح الجو الإيراني.

ولاعتبارات الموقف المعلن، تم التعامل بين الأمريكيين والإيرانيين عبر وسطاء سلاح، كانوا في البداية فرنسيين، وشارك غيرهم في العملية،

وبمقدمتهم ضباط إسرائيليون متقاعدون تربطهم علاقة بالعسكريين الأمريكيين من جهة، وبزملائهم الإيرانيين من جهة أخرى.

وكانت معظم المباحثات بين الإيرانيين والأمريكيين تجري في جنيف أو باريس أو لندن، وخلالها يشير المبعوثون الإيرانيون إلى أن من الصعب فهم الشعب الإيراني لتراجع سريع في لهجة العداء لأمريكا، لدى تبريراتهم للشعارات المعلنة.

مارست إسرائيل دوراً نشطاً في تزويد إيران بالسلاح من المخازن الإسرائيلية، على سبيل المثال إطارات طائرات فانتوم بعد نحو شهر فقط من اندلاع الحرب، وذخيرة للمدفعية والرشاشات، وصواريخ مختلفة، كما أن مصنعا إسرائيليا للكلاشنكوف في إيران من أيام الشاه استمر في الإنتاج ببيانات باللغة العبرية بقيت حتى منتصف الثمانينيات، وباشتراك مباشر في الحرب ضرب الطيران الإسرائيلي عام ١٩٨١ مفاعل تموز النووي العراقي، وقد لخص أرييل شارون، وزير الدفاع الإسرائيلي حينها، سياسة بلاده من الحرب بقوله في إبريل ١٩٨٤م "من المؤكد أن خميني واحد من أعدى أعداء إسرائيل حقيقة: إنه يريد القضاء علينا، ولكن بما أن هناك حرباً قائمة على شط العرب فإنه ليس بوسعنا أن نريد أن ينتصر العراق، فالعراق أيضاً عدو لدود لدولة إسرائيل، والعراق أقرب لأراضينا من إيران، فإذا انتصر العراق فسوف يحدث شيء آخر ليس في صالحنا".

إيران كونترا

بالإضافة إلى الدور الإسرائيلي المباشر في مساندة إيران، فقد لعب دور الوسيط النشط في إعادة شحن السلاح الأمريكي إلى إيران عبر إسرائيل، وفي الواقع فقد أنقذت المساعدة الأمريكية الخميني، وكان لإمدادات السلاح الأمريكي لعامي ١٩٨٠، ١٩٨٦م نتائج مؤثرة في الحرب.

عبر الوسيط الإسرائيلي زودت أمريكا الإيرانيين بمئات الصواريخ المضادة للدبابات والطائرات - أهم مرتكزات التفوق العراقي -، وعشرات الطائرات المقاتلة الأمريكية، وأعداد كبيرة من الدبابات طراز (إم ٤٨)، هذا غير المعلومات السرية الاستخباراتية، ورغم سرية التعامل العسكري الأمريكي الإيراني الإسرائيلي فقد تسربت معلومات صفقات السلاح بما عرف بفضيحة إيران جيت، أو إيران كونترا.

الرهائن الأمريكيون

إضافة إلى صلة التزويد الأمريكي والإسرائيلي إيران بالسلاح، بسياسات مرتبطة بمسألة الحرب الباردة دولياً، وبإضعاف المنظومة العربية إقليمياً، فقد كانت هناك دوافع أخرى لها علاقة باتفاقيات كامب دايفيد، والانتخابات الرئاسية الأمريكية، وبرز على المشهد قضية الرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية بطهران عقب نجاح ثورة الخميني، ثم الرهائن الأمريكيين في لبنان، وما لهما من دور تبريري في تزويد إيران بالسلاح، غير أننا سنركز على الأولى لدورها المفصلي في الموضوع.

بعد نجاح ثورة الخميني، حاصرت مجموعات ماركسية السفارة الأمريكية بطهران، في حين واجههم مؤيدو الخميني، إلا أن سماح الولايات المتحدة الأمريكية للشاه المعزول بالعلاج في أحد المستشفيات الأمريكية في أكتوبر

١٩٧٩م، أثار أنصار الخميني الذين طالبوا بتسليمه لإيران ومحاكمته، وقاموا في نوفمبر باحتجاز أكثر من ستين دبلوماسياً وموظفاً وجنود مارينز في السفارة الأمريكية بطهران، فدخلت قضية الرهائن كعامل حاسم في المنافسة الانتخابية بين الرئيس الأمريكي المرشح لفترة تالية عن الحزب الديمقراطي جيمي كارتر، وبين مرشح الحزب الجمهوري، رونالد ريغان، المدعوم من المسيحية الصهيونية، واللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة.

نجح كارتر في دفع الطرفين المصري والإسرائيلي في العام ١٩٧٨م إلى توقيع اتفاقية سلام، عرفت باتفاقيات كامب دايفيد، بين الرئيس المصري أنور السادات، ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن، وأدى هذا الاتفاق إلى عزل مصر عن محيطها العربي واتخاذ الدول العربية بقيادة عراقية نشطة إجراءات عقابية ضد نظام السادات، بيد أنه بمقابل التزام المصريين بما يخصهم في الاتفاقيات تنصلت إسرائيل من بنود جوهرية متعلقة بالفلسطينيين، أهمها إيقاف المستوطنات، وسحب القوات الإسرائيلية من غزة والضفة الغربية، ما جعل الموقف المصري حرجاً بشكل أكبر أمام العرب، فمارس السادات ضغوطاً على كارتر كراعٍ للاتفاق، الذي كان هو الآخر في حرج دولي، غير إمكانية تحول الاتفاق من مؤشر إيجابي في شعبيته داخل أمريكا إلى مشكلة في معركته الانتخابية القادمة، فحاول الضغط على إسرائيل لتنفيذ ما يخصها، ما أدى باللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة إلى استخدام ثقله لصالح ريغان، لتخليص الدولة الإسرائيلية من ضغوط الإدارة الأمريكية بقيادة كارتر.

وهنا تلاقت مصالح إسرائيل وريغان في إسقاط كارتر، مع حاجة إيران الخميني لاستمرار الدعم بالسلاح في حربها المحتملة مع العراق، بل إن هذا قد يكون مؤشراً لاتفاق بين الدول الثلاث على إسقاط المشروع

القومي العراقي، كما توضح ذلك أكثر بعد الفشل الإيراني في المهمة والتدخل الأمريكي المباشر، في ١٩٩١م ثم في ٢٠٠٣م وتسليم العراق لإيران لقمة سائغة.

كانت قضية الرهائن هي الورقة الرابحة في تحقيق أهداف مثلث ريغان، الخميني، بيغن، خصوصاً مع رفض الخميني التعاطي مع إدارة كارتر باتجاه إطلاق الرهائن، حتى مع موت الشاه، السبب المباشر والمعلن من أنصار الخميني لاحتجاز الرهائن، وزاد الطين بلة في طريق كارتر للاستمرار في البيت الأبيض فشل عملية عسكرية أمريكية في إيران لإطلاق الرهائن أحد أسبابها عاصفة رملية -طبعاً استثمرها الخميني دعائياً باعتبارها تأييداً إلهياً لنظامه- فيما أعطت انطباعاً عن عجز كارتر في الدفاع عن شرف أمته، ما قلص حظوظه أكثر.

أما ريغان فقد عمل جاهداً على إفشال أية جهود من إدارة كارتر تسفر عن إطلاق الرهائن قبل إجراء الانتخابات الرئاسية الأمريكية، وبسبب خوفه من قيام الرئيس كارتر بمفاجأة من خلال الإفراج عن الرهائن، استخدم ريغان مدير حملته - الذي أصبح مدير المخابرات الأمريكية بعد فوز ريغان - من أجل متابعة اتفاق "أسلحة من أجل الرهائن السري مع إيران"، وكان لهذا الاتفاق، دور في تمويل ثوار الكونترا ضد النظام الشيوعي في نيكاركوا، الذي عارضه الكونغرس الأمريكي.

كان كارتر بحاجة لرصيد تاريخي حتى وإن فشل في الانتخابات فخطط للسفر إلى ألمانيا لاستقبال الرهائن، إلا أن فريق ريغان وعد الإيرانيين بمزيد من الأسلحة غير القانونية إذا أخروا توقيع اتفاق إطلاقهم، وبالفعل أخر الإيرانيون إطلاق الرهائن بعد انتهاء ريغان من القسم كرئيس جديد للولايات المتحدة الأمريكية، ووقتها أعلن الخميني يوم تنصيب ريغان في

٢٠ يناير ١٩٨١م أن "إرادة الله تقتضي الآن بعدم الاحتفاظ بالأمريكان كرهائن".

وهكذا كانت ورقة الرهائن وسيلة فعالة في التخلص من كارتر وحصول إيران على الأسلحة ضد العراق، ونظام ولاية الفقيه على تعاطف شعبي داخلي ساعده في التخلص من القوى السياسية غير الموالية.

وبالمناسبة، بعد شهرين فقط من توقف الحرب العراقية الإيرانية أصدرت إدارة ريغان قرارات عقابية ضد العراق.

القضية الفلسطينية

ما يبدو للوهلة الأولى في النظر السطحي للعلاقات الإيرانية الإسرائيلية هو طغيان حالة العداء بين الجانبين، إذا تم تناول العلاقة من زاوية القضية الفلسطينية التي يظهر أن نظام ولاية الفقيه يقف بقوة إلى جانب الفلسطينيين، ولعل أحد الشواهد الممكنة في الصدد تحويل السفارة الإسرائيلية بطهران إلى الفلسطينيين في الأيام الأولى لنجاح الثورة الخمينية، وهنا يمكن ربط المسألة بحاجة الملالي إلى جاذبية شعبية توفرها شعارات العداء لإسرائيل وأمريكا المساندة لها، مع بعض الإجراءات المسرحية، إذ أنه في موضوع السفارة تحديداً سارع نظام الملالي إلى التخلص من أهم ضابط في المخابرات الخارجية الإيرانية استطاعت غرسه في السفارة الإسرائيلية في عهد الشاه، بدلاً من الاستفادة الجدية منه، بحجة أنه من الموالين للشاه.

الواقع أن مقارنة نظرة الشارع الإيراني للفلسطينيين بين زيارة وفد فلسطيني في الأيام الأولى لنجاح الثورة، وبين زيارة أخرى في وقت لاحق تشي بتفسيرات ما.

في الأولى حرص الإيرانيون على رفع أفراد الوفد على أكتافهم وأن لا يمسوا الأرض من المطار إلى مقر إقامتهم باعتبارهم "كربلائيين"، يستحقون قدراً من القداسة، أما في الزيارة الثانية فقد كانت المعاملة جافة سواء من المسؤولين أو من رجل الشارع ما يوحي بتغيير كبير جداً في مزاج الإيرانيين تجاه الفلسطينيين قبل الثورة أو على الأقل في لحظاتها الأولى، وبعد تمكن نظام الخميني.

بالتأكيد كان هدف ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية من زيارة طهران في الأيام للثورة وتهنئة خميني، تحقيق دفعة قوية للقضية الفلسطينية من دولة بحجم إيران يعتنق نظامها شعارات مؤيدة لفلسطين ومعادية بشدة لإسرائيل وحليفها الأمريكي، ويتسم بالطابع الثوري، بالإضافة إلى توقع احتفاظه بالجميل للفلسطينيين الذين أسهموا في تدريب حرس الثورة الإيراني قبل نجاح الثورة، لكن نظام الخميني كان له أجندته غير المعلنة في التعاطي مع القضية الفلسطينية، وهو تعاطٍ سلبي في عمومه وواقعه.

السياسة الإيرانية في إيذاء الجيران العرب تعززت في ظل حكم الملالي من خلال خلق كيانات موالية مزعزعة للاستقرار، كتبني حركة الدعوة العراقية، وتأسيس ودعم حركات بذات الاسم في بعض الدول كالسعودية والكويت، وحزب الله في لبنان وفروعه أو بالأدنى أحزاب بنفس التسمية في بلدان خليجية، وأخيراً الحشد الشعبي في العراق، والحوثيين في اليمن، والتدخل المباشر وعبر حزب الله اللبناني ومليشيات عراقية وأفغانية شيعية موالية في سوريا، وإطلاق موجة تبشير شيعية في هذا البلد، ولا يخفى أن إثارة القلاقل في البلدان العربية يزيد الموقف العربي ضعفاً حيال الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وبتنسيق أو بدونه، وبقصد أو بدونه فإن إضعاف المنظومة العربية - حتى بحالتها الراهنة - يصب استراتيجيا في المصلحة الإسرائيلية، ويخدم الأجندة الأمريكية التي يهمها بقاء قدر من حالة القلق في المنطقة للمزيد من الاستنزاف المالي والاقتصادي والسياسي، وحبس العرب في إطار مشاغل أمنية تعرقل أية مشروعات نهضوية حقيقية.

وهذا أمر طبيعي بالنسبة لسياسات الدول الكبرى، كما أشرنا سابقاً، منذ ظهور المسألة الشرقية، وجهود محمد علي باشا، ويبدو منطقياً ومعقولاً إذا ما شُخِّص زرع الكيان الإسرائيلي على أنه قاعدة متقدمة للقوى الكبرى مغروزة في قلب العالم العربي، وإذا ما وُصِف الصراع في ضوء الوقائع الجغرافية والتاريخية بأنه صراع فلسطيني إسرائيلي، في وجه، وعربي إسرائيلي في وجهه المكمل، وإن كنا لا نغفل البعد الإسلامي المساعد والمتضمَّن على كل حال في الوجهين الفلسطيني والعربي.

القضية الفلسطينية تمتد سياسياً إلى أواخر القرن التاسع عشر وتأسيس الحركة الصهيونية العالمية، وإن كانت إيديولوجياً تمتد إلى أكثر من ذلك بكثير، والنزاع العسكري تزايدت حدته بين العرب الفلسطينيين، والإسرائيليين بعد صدور وعد بلفور، وتوسع النطاق أعقاب إعلان دولة إسرائيل منتصف أربعينيات القرن الماضي إلى صدام عربي إسرائيلي، وخاض العرب أربع حروب مع إسرائيل، هي حصرياً الحروب الخارجية للأخيرة، وفي كل هذه الحروب كانت الإسهامات غير العربية تكاد تكون معدومة، سواء الرسمية أو الشعبية، بما في ذلك إسهام المؤسسة الدينية الإيرانية رغم قوتها المالية والشعبية في إيران.

إذن فقد كانت القضية الفلسطينية عربية بالأساس، وعمرها يتجاوز مئة وعشرين سنة، لا ثلاثين سنة أغلبها هادئة بين إيران وأذرعها وبين إسرائيل، وللإشارة إلى الدور المحوري للمنظومة العربية، برغم وضعها، نذكر تدمير العراق، وحالياً سوريا، وإخراجهما -على الأقل منذ سنوات مضت ولسنوات قادمة- من معادلة الصراع وفي المضمار إذا أخذنا بمبدأ الشعارات المعلنة العدائية لإسرائيل، لكانت إيران أكثر خطورة على الإسرائيليين من العراق في العام ٢٠٠٣م، ولكانت من ثم أولى بالتدمير

والغزو من العراق، فالأخير كان منهكاً اقتصادياً وعسكرياً في أعقاب حرب طالت مقدراته في ١٩٩١م، تبعها حصار خانق استمر حتى الغزو، وبالتالي كان فعلياً أضعف من إيران لناحية تهديد إسرائيل، وبخاصة وأن مبررات تدمير العراق في ٢٠٠٣ كانت مبررات واهية مرتبطة بأسلحة الدمار الشامل، في وقت كانت إيران تتمتع منذ انتهاء حربها على العراق بفرصها في البناء التنموي والعسكري، غير علاقتها من أيام ثورتها الخمينية بالإرهاب وفق المصطلحات الدولية، والأمريكية تحديداً، ومن ثم كانت إمكانية خلق مبررات ضربها عسكرياً متوافرة أكثر من العراق، إلا أن ما حصل هو بقاء إيران سالمة بل وتسليم العراق لها بعد ضربه وتدميره والقضاء على نظامه القومي العروبي.

فلسطينيو لبنان

في واقع الأمر، من الصعب دراسة الموقف الإيراني من إسرائيل والقضية الفلسطينية، خارج الساحة اللبنانية، لأسباب متصلة بالوجود المهم للشيعة الجعفرية، خصوصاً، في لبنان، ووزنهم الخاص في الذهنية الإيرانية الشيعية لدور علماء جبل عامل في تزويد الدولة الصفوية قبل خمسمائة عام بالرديف الدعوي لأعمال العنف الهادفة لنشر التشيع في إيران وقتها، سبب آخر يستحيل تجاهله هو تمكن إيران ولاية الفقيه من خلق وكيل سياسي وعسكري قوي في لبنان، بل وامتد نشاطه ليكون الوكيل الأهم لإيران في دول عربية أخرى، ويتمثل بحزب الله اللبناني، إلى جوار ما سبق، ما تشكله لبنان من تماس مباشر مع فلسطين، وثقل التواجد الفلسطيني فيها منذ العام ١٩٤٨، ودور لبنان كرأس حربة عربية فلسطينية في مواجهة إسرائيل عقب قرارات عربية مشتركة.

بالنظر إلى الداخل اللبناني نجده يشكل مجتمعاً متنوعاً من الناحية الدينية، وهو ما له علاقة بموضوعنا، إذ يتكون بصورة أساسية من المسيحيين، والمسلمين، والأخيرون ينقسمون في ثلاث مجموعات رئيسية هي السنة والشيعة، والدروز، على خلاف في اعتبار هؤلاء مسلمين لكن، في جميع الأحوال ترتبط أدبياتهم بالتراث الإسلامي، بصرف النظر عن تقييمها والاتفاق أو الاختلاف معها.

أدى الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، والعربي الإسرائيلي عموماً، والصدامات العسكرية التي تخللت الصراع إلى عمليات نزوح فلسطيني من الأراض الفلسطينية إلى العديد من الدول العربية، وبالأخص الملاصقة للأراضي الفلسطينية، كان من بينها لبنان، التي تعد من أهم الدول العربية المحتضنة للفلسطينيين بمئات الآلاف منهم، ما جعل عدد الفلسطينيين يمثلون نسبة كبيرة من الكتلة البشرية في الأراضي اللبنانية، وزادت الأهمية اللبنانية للفلسطينيين وصراعهم مع الإسرائيليين، بـ"اتفاق القاهرة" سنة ١٩٦٩م، الذي نظم وجود الفصائل الفلسطينية المسلحة في لبنان، ثم نقل مقرات منظمة التحرير الفلسطينية إلى لبنان بداية السبعينيات على أثر طردها من الأردن نتيجة ما عرف بأحداث أيلول الأسود، منذ ذلك الحين صارت لبنان قاعدة الأنشطة العسكرية الفلسطينية ضد إسرائيل وأصبحت فعلاً تشكل قلقاً حقيقياً للإسرائيليين، خصوصاً وقد وفر الجنوب اللبناني، الذي وصل التواجد الفلسطيني المسلح فيه إلى تسميته "أرض فتح" أهم فصائل منظمة التحرير برئاسة ياسر عرفات، أهم قاعدة للمقاومة الفلسطينية. وكان طرد منظمة التحرير وأذرعها المسلحة أهم أهداف الفعل السياسي والعسكري الإسرائيلي، فقامت إسرائيل بـ"عملية الليطاني" في الجنوب اللبناني،

العام ١٩٧٨م ضد الفصائل الفلسطينية، وصدر قرار مجلس الأمن "٤٢٥" الداعي للانسحاب، إلا أن إسرائيل سلمت مع انسحابها في ١٩٧٩م الأراضي المحتلة إلى ميليشيات لبنانية تابعة لها.

وأثناء الحرب الأهلية اللبنانية، غزت إسرائيل لبنان حتى وصلت إلى بيروت وحاصرتها، في العام ١٩٨٢م ورغم طرد قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، التي استهدفتها العملية الإسرائيلية من لبنان، كشرط لانسحابها، ظل القلق الإسرائيلي قائماً من إمكانية استمرار استخدام الفلسطينيين -تحت أي تسمية أو فصيل- لأراضي جنوب لبنان ضدها فكان هاجسها، وإصرارها المتكرر على ضرورة وجود "منطقة أمن" تبتعد على الأقل عشرة أميال داخل الأراضي اللبنانية من حدودها.

لقد كانت زعزعة استقرار الفصائل الفلسطينية، وإيجاد منطقة أو حزام أمني في جنوب لبنان يمثلان أهمية استراتيجية للإسرائيليين.

بالعودة للوسط اللبناني، كان الشيعة في لبنان يشكلون قطاعاً شعبياً خاملا -إلى حد ما- من الناحية السياسية، بيد أن عوامل عديدة أسهمت في تنشيطهم، منها ما يرتبط بالانتعاش الأصولي الديني في السبعينيات، كما اشرنا سابقاً، والحرب الأهلية اللبنانية وإذكائها عمليات الفرز الطائفي، ثم ما أسهمت به الثورة الإيرانية من بعث للفعالية الشيعية.

ارتبطت عملية التنشيط الشيعي في لبنان بالدور المؤثر لرجل الدين الشيعي موسى الصدر، الذي تمخض عن تنظيم الشيعة في أفواج المقاومة اللبنانية "أمل" أواسط السبعينيات. وبطبيعة الإيديولوجية الشيعية المسكونة بعقدة المظلومية، اتجه الكثير من تحركها ضد الفلسطينيين، الذين يشكلون بقوتهم العددية وتنظيم فصائلهم عاملاً مضعفاً للقوة السياسية الشيعية، لصالح القوة السنية اللبنانية، إذ أن الفلسطينيين المسلمين يكادون

جميعهم ينتمون مذهبياً للسنة، فكان الشيعة المتحالفون، أولاً، مع النظام النصيري السوري، أحد أهم الأدوات التي استخدمت ضد الفلسطينيين في لبنان، يندرج كشواهد على ذلك اختطاف طائرة أردنية من شيعة كان مطلبهم طرد الفلسطينيين من المناطق الشيعية، والأهم حرب المخيمات خلال ثلاث سنوات منذ ١٩٨٥م، التي أسفرت عن إضعاف الفصائل التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وانكفاء السلاح الفلسطيني داخل المخيمات، وليس من الصعب استنتاج ما يمثله ذلك من خدمات مجانية للدولة الإسرائيلية.

أما الموقف الإيراني مما يحدث في لبنان، كالعادة، اتسم بسياسة تصدير الثورة، كأولوية قصوى، وأثناء قتال حركة أمل الشيعية للفلسطينيين، توقع الشارع الإسلامي موقفاً يعي التأثير السلبي للمشكلة في خدمة القضية الفلسطينية، لكن ما حصل أن الخميني ألقى خطاباً تجاهل ما يحدث في لبنان، ولو بدعوة لإيقاف الاقتتال، وعند حصار القوات الإسرائيلية لبيروت وضربها منظمة التحرير الفلسطينية، وهي منظمة نتجت عن العمل العربي المشترك -خذلها نظام ولاية الفقيه بعد انتصار ثورته- أزبد الخميني وأرعد، وتحدث نظامه عن تجهيز أربعين ألف مقاتل وإرسالهم إلى لبنان لقتال الإسرائيليين، إلا أن عددهم انخفض إلى ألف، وبدلاً من الوصول إلى بيروت لقتال القوات الإسرائيلية، وصلوا إلى البقاع لتدريب عناصر حركة أمل الإسلامية، النواة الشيعية المنشقة عن "أمل" والمكونة لحزب الله، الذي أعلن في بيان تأسيسه منتصف الثمانينيات استهدافه تقويض النظام السياسي اللبناني، وإقامة الجمهورية الإسلامية اللبنانية، التي هي إرادة الله كما قال الخميني.

حزب اللّه

حزب الله، أو ما يطلق عليه بعض اللبنانيين تهكماً "حزب اللات" هو الذراع الإيراني الأهم في المنطقة، من حيث أسبقيته مقارنة بالحشد الشعبي العراقي، والحوثيين في اليمن، ومن حيث فعاليته بالنسبة للأذرع الإيرانية في بعض دول الخليج، ووضوحه في اندماجه بخط الثورة الخمينية، وبحكم موقعه في دولة متاخمة لإسرائيل، وبالتالي كورقة في العملية التفاوضية مع الولايات المتحدة إذا لزمت الحاجة.

تشكل حزب الله كتنظيم من المنشقين عن حركة أمل، المعتدلة ما بين الاتجاه الثوري وبين التقية السياسية، والتي تعتبر إلى حد ما لبنان كياناً وطنياً بدرجة أولى، وعربياً بدرجة ثانية، خلافاً لحزب الله الذي يحاول سلخ البُعد العربي اللبناني لصالح إيران.

وفي القضية القديمة الجديدة، في البنية الفارسية للتشيع، ذات التوجه العدائي الداخلي في المنظومة الإسلامية عموماً، والعربية خصوصاً، أدى حزب الله بنجاح كبير مهام مزعزعة للمنظومة العربية، بهذا القدر أو ذاك، وما ميز هذا الحزب هو أنه استطاع جذب تعاطف شعبي عربي، عبر تهويل دوره في الصراع مع إسرائيل، وإلى حد ما سحب البساط والأضواء عن الأدوار العربية، وحتى الفلسطينية في الصراع، وإلباسه نزعة طائفية تظهر الدور الشيعي البطولي في مقاومة إسرائيل، مقابل الدور المتخاذل بل والمتواطئ مع الإسرائيليين للسنّة، والعرب دون تفريق بين سياسات أنظمة حاكمة وبين مواقف شعبية عربية، والأمر في المحصلة يصب في خدمة نظام ولاية الفقيه لناحية إضعاف المنظومة العربية وجرها لمعارك جانبية، وتشتيت وتفكيك الولاءات ذات الطابع الوطني والعروبي.

رغم ما في الموقف "الحزب اللاتي" من مصادرة الفعل العربي والفلسطيني الفاعل -وما زال فاعلاً مع ما يعتريه من ضعف حاليا- أكثر من قرن في قضية الصراع مع إسرائيل، فإن واقع الأحداث يقتضي منطقاً آخر لا يعمل لصالح حزب الله وإيران.

سبقت الإشارة إلى أن الهدف الاستراتيجي الإسرائيلي في لبنان، هو استبعاد الفاعلية الفلسطينية في مقاومة إسرائيل من داخل لبنان، البلد الصغير والضعيف الذي يمكن الفصائل الفلسطينية من التحرك بحرية أكبر، بعكس بلدان الجوار الأخرى ذات الأنظمة القوية والكثافة السكانية القادرة على امتصاص أية أنشطة من الفلسطينيين سيما بعد توقيع مصر والأردن اتفاقات سلام مع إسرائيل[١]، وقوة قبضة النظام السوري التي مكنت من صمود اتفاق الهدنة بين سوريا وإسرائيل منذ ١٩٧٣م.

على إثر تدمير البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية في لبنان سنة ١٩٨٢م، وخروج قيادة منظمة التحرير إلى تونس، تكفلت حركة أمل في منع أية عودة نشطة للفصائل الفلسطينية بعد الانسحاب الإسرائيلي منتصف الثمانينيات وتولى حزب الله عملية الحلول في الجنوب اللبناني بدلاً عن الفلسطينيين، وقام بمناوشات في سنوات متقطعة مع الإسرائيليين مكنته من اكتساب مشروعية السيطرة على الجنوب، وبناء قواته العسكرية تحت يافطة المقاومة. وليس من العسير فهم أنه لو كان توجه حزب الله وإيران صادقاً في قضية الصراع مع إسرائيل لأمكن توفير قاعدة لإعادة تفعيل المقاومة الفلسطينية من الجنوب اللبناني الذي بات يتمتع بعمق استراتيجي استثنائي بعدما تمكن الإيرانيون من الهيمنة على الخط الجغرافي الممتد من طهران إلى حدود دولة الكيان الصهيوني مع دورها

١- والكتاب على أهبة الذهاب للمطبعة ارتفع الحديث الإعلامي عن اتفاق مماثل بين لبنان وإسرائيل

والموالين لها في العراق وسوريا، بخلاف قطاع غزة ذي الرقعة الجغرافية الصغيرة، وإحاطة إسرائيل به من أكثر الاتجاهات، ووقوع المنفذ الغربي بين مصر الموقعة اتفاقيات سلام مع الإسرائيليين، وبين شريط ساحلي قصير تمتلك إسرائيل القدرة العسكرية على حصاره، ولا يختلف الأمر كثيرا بالنسبة للضفة الغربية.

بالعودة إلى إسرائيل، كان من الواضح أن السياسة الإسرائيلية حريصة على إخلاء جنوب لبنان من السلاح الفلسطيني -في معية أي فصيل- واستبعاد أية احتمالية لعودة النشاط الفلسطيني المقاوم هناك، عبر خلق حزام أمني أو منطقة عازلة في الجنوب. ولم يكن ضم الجنوب اللبناني هاجساً إسرائيلياً، وواقع الحروب العربية الإسرائيلية يؤكد هذا، لذلك انسحب الإسرائيليون عقب ثلاثة أشهر من عملية الليطاني في ١٩٧٨م، وفي ضربتها لمنظمة التحرير الفلسطينية، تمكنت من استصدار قرار من مجلس الأمن أدخل قوات حفظ سلام إلى جنوب لبنان ولكن يبدو أن القرار لم يكن كافياً، فغزوا لبنان مرة ثانية في ١٩٨٢م، وما تبعه من اشتراط إسرائيل في اتفاق ١٧ مايو ١٩٨٣م الانسحاب مقابل خروج القوات السورية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وما حدث خروج منظمة التحرير وبقاء السوريين.

ظلت إسرائيل، تعلن مراراً موافقتها على الانسحاب من جنوب لبنان شريطة ضمان أمنها من خلال منطقة عازلة، ووعد إيهود باراك إثر فوزه بمنصب رئيس الوزراء في ١٩٩٩م بالانسحاب من جنوب لبنان في ٢٠٠٠م، إذ كانت قوات إسرائيلية قليلة تتواجد حول الشريط الحدودي داعمة للميليشيات اللبنانية الموالية لها، وبالفعل انسحب الإسرائيليون من جانب واحد، ودون عمليات اشتباكات مهمة مع اللبنانيين، لكن سرعان

ما قفزت الآلة الإعلامية الإيرانية ومواليها بتجيير الانسحاب على أنه انتصار لحزب الله. وبعد ست سنوات حدثت مسرحية حرب ٢٠٠٦م والتي جيرها حزب الله بالكامل لمصلحته وللإيرانيين من ورائه رغم مشاركة أطراف أخرى في العمليات العسكرية، وكالعادة رافق المسألة ضخ إعلامي هائل يصور ما حصل على أنه كسر لأسطورة الجيش الإسرائيلي عجزت عنه الجيوش العربية في السابق، بينما لو قارنا ما حدث في جنوب لبنان لتضاءل أمام ما حصل من مقاومة في غزة ٢٠٠٦، ٢٠٠٨، ٢٠١٢، ٢٠١٤، ٢٠١٨م هذا إذا تماشينا مع مقولة الانتصار، بينما نتج عن حرب ٢٠٠٦م قرار مجلس الأمن رقم "١٧٠١" الذي حقق لإسرائيل أخيراً منطقة أمنية عازلة تمتد عشرات الكيلومترات في العمق اللبناني إلى نهر الليطاني، وهو ما كانت تسعى إليه إسرائيل منذ عملية الليطاني في ١٩٧٨م، وحققته واقعاً بعد ما يقارب ثلاثين عاماً، في عهد (مقاومة حزب الله)، وبدلاً من الكلفة السياسية والمالية والعسكرية للإسرائيليين في التأمين المباشر للمنطقة ومن خلال أتباعها اللبنانيين، أصبحت لديها بموجب القرار الأممي في ٢٠٠٦م "منطقة أمن" بدون كلفة تُذكر، وللتذكير، فقد أعلن حزب الله موافقته على القرار حتى قبل الإسرائيليين أنفسهم.

مازال كثير من العرب مبهورين بحزب الله وواقعين تحت تأثير دعايته، والدعاية الإيرانية، رغم أن مقارنات بسيطة للوقائع تظهر حالة التخدير، فالحزب منذ ٢٠٠٦ -للعام ٢٠٢٠- تكاد لم تحصل بينه وبين الإسرائيليين ولا حتى مناوشات بسيطة، وباسترجاع ما قبل تدخل حزب الله في الصراع مع إسرائيل يمكن أن نرى فارق الصدام بين الفلسطينيين والإسرائيليين عبر الأراضي اللبنانية، وبين الأخيرين وبين حزب الله.

وعلاوة على كل ما سبق، مثّل الحزب كامتداد طبيعي للنشاط الشيعي الفارسي أداة في خلخلة الصف العربي الإسلامي، كما يتبين من دور حزب الله حتى في صراعه لسنوات مع حركة أمل، ثم دوره المباشر في الصراعين السوري، والعراقي، والمتواري في اليمن، وبالتالي يمكن من باب الإنصاف موازنة تأثير حزب الله منذ نشأته في النيل من إسرائيل، بمقابل ما نال من العرب.

القاعدة وداعش

من لبنان غرب الجناح العربي الأسيوي، إلى شرقه، إلى العراق، المجال الأهم للتماس والتداخل السامي الفارسي أولاً، فالعربي الفارسي تالياً، ومرة أخرى يدخل العراق كعنصر لا غنى عنه في قراءة وتفسير السلوكيات الفارسية حيال الإطار العربي الإسلامي.

تم التطرق سابقاً للحرب العراقية الإيرانية والتي أزالت عن العالم، والشعوب العربية، الغطاء الكثيف لشعارات العداء الإيراني في العهد الخميني "للشيطانين" أمريكا وإسرائيل، بعكس ما كان قائماً بالفعل من تعاون بين الدول الثلاث.

الآن سننتقل بشكل مقتضب إلى قراءة إيران ولاية الفقيه من خلال الملف العراقي أعقاب الغزو الأمريكي المباشر واحتلال العراق والقضاء على سلطته السياسية ذات التوجه القومي العروبي، ونركز أكثر على تداعيات الغزو الأمريكي في بروز القاعدة وداعش على الساحة العراقية، وعلاقة إيران بالأمر.

تولى الأمريكيون إدارة العراق مباشرة في البداية، ثم عبر وكلاء لها، الجلبي ثم علاوي، إلا أنهما لم يكونا يتمتعان بقدر يُذكر من القاعدة الشعبية، كما أن اتجاهاتهما العلمانية، إلى حد ما، لم تكن تخدم فكرة تنشيط الطائفية الدينية في المنطقة فلجأ الأمريكيون إلى إيران ولاية الفقيه، عبر الأذرع الجاهزة الموالية لإيران، السياسية والعسكرية، كحزب الدعوة، والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وفيلق بدر وجيش المهدي، واستطاع أنصار ولاية الفقيه العراقيون بفضل الإمكانيات المتاحة على

كافة الأصعدة، خنق الأصوات الشيعية المعارضة، مثلما فعل نظراؤهم الإيرانيون من قبل، ثم انخرطوا بلا هوادة في أعمال انتقامية من العراقيين تحت مسميات مختلفة، منها اجتثاث البعث، وحل الجيش العراقي، وهي مسميات تحولت من صبغتها السياسية في كثير من الأحيان إلى تصفيات جسدية، وعلى مسار خدمة الأجندة الأمريكية الإسرائيلية الإيرانية، جر عملاء ولاية الفقيه العراق إلى مستنقع طائفي لم تقتصر مفاعيله على العراق فحسب، ويمكن اعتبار مشهد ومكان إعدام الرئيس العراقي السابق صدام حسين تدشينا أمريكاً إيرانياً للمنعطف الطائفي، وللتذكير والتنويه، فقد وافق الأمريكيون على إعدام الرئيس في مقر الشعبة الخامسة التابعة للمخابرات العراقية، وهي الشعبة الخاصة بالتعامل مع النشاطات الإيرانية.

تمكن نظام العراق (قبل الغزو الأمريكي الإيراني ٢٠٠٣)، بنجاح كبير من مواجهة التنظيمات الدينية المتطرفة بكافة مسمياتها، إلا أن مجموعة من شباب العراق تأثروا كثيراً بما وصف بحركة الصحوة في المملكة العربية السعودية، التي يمكن اعتبارها إحدى تداعيات فشل محاولة المتشدد جهيمان العتيبي في السيطرة على الحرم المكي، ودعوته لإسقاط النظام السعودي أسوة بما فعل الإيرانيون في القضاء على حكم الشاه، وبدأ احتكاك بعض الشباب مباشرة بالاتجاه السروري أحد المكونات الصحوية، وتقوم في أساسها على إحياء السلفية الجهادية، وفي العام ١٩٩٧م أعلن جهاديون عراقيون في منطقة على الحدود الإيرانية، بمحافظة السليمانية بكردستان العراق، تأسيس جماعة أنصار الإسلام التي توافر لها في العام التالي الدعم والإسناد من المخابرات الإيرانية التي اشتهر ارتباط الجماعة بها، بهدف القيام بعمليات عسكرية ضد ضباط الأمن والمخابرات والقيادات البعثية،

وكان من بين نشطاء أنصار الإسلام أحمد الخلايلة المشهور بـ"أبو مصعب الزرقاوي" الذي تردد على إيران، وأسس لاحقاً مع مجموعة من أنصار الإسلام "كتائب التوحيد والجهاد" بعد دخول القوات الأمريكية العراق، ونشأ بين جماعة الزرقاوي وفصائل سلفية جهادية معادية للتواجد الأمريكي في العراق تعاون خجل، ضعف أكثر عقب مبايعة الزرقاوي لأسامة بن لادن زعيم التنظيم الدولي للقاعدة وتغيير اسم جماعته إلى "قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين"، وكان التعاون بين الأخيرة والفصائل المسلحة يتقلص خاصة خلال معركة الفلوجة الأولى، وخداع الزرقاوي لـ"الجيش الإسلامي في العراق" وأخذه القنصل الإيراني المختطف لديهم وإطلاقه دون أي مقابل ملموس من الإيرانيين.

الحال أن علاقة القاعدة، ثم داعش بإيران ولاية الفقيه تثير الكثير من الأسئلة، فإذا كان الخطاب السياسي لابن لادن غير طائفي، ولا يعتبر أن هناك ما يدعو إلى محاربة تنظيمه لنظام ولاية الفقيه الشيعي "الرافضي" رغم الخلاف العقائدي والديني الشديد، فإن الصلات السابقة للزرقاوي كفرد بإيران، ثم كأحد نشطاء جماعة أنصار الإسلام يضع إيران في خانة المتهمين بمساندة ما للزرقاوي وجماعته التي تطورت لاحقاً إلى "تنظيم الدولة الإسلامية" أو ما عرف بتنظيم داعش، بل مما كان متداولا في بعض الأوساط العراقية أن داعش إحدى المليشيات التابعة لإيران.

هناك اتهامات لإيران بإيواء، وتهريب أفراد من القاعدة، وأقرباء لابن لادن عبر أراضيها، بعد انهيار دولة طالبان في أفغانستان، ما يوحي بتعاون ما، لا سيما وأن القاعدة ثم داعش لم يقوما بعمليات أمنية وعسكرية في إيران، على خلاف استهدافات طالت دولا عربية وإسلامية، المفترض أنها

من الناحية المذهبية العامة من المذهب السني الذي تؤكد فصائل السلفية الجهادية التزامها به، لكن بطريقتها الخاصة طبعاً.

ربما كان ابن لادن، كما تكشف من وثائق عثر عليها الأمريكيون أثناء عملية قتله، يعتبر قتال الدول غير الإسلامية أولوية، مع تريثه في إقامة ولايات إسلامية أو استهداف دول مجتمعها مسلم، ربما كان لذلك عازفاً هو وتنظيمه عن الإضرار بإيران، هذا إذا استبعدنا أية علاقات استخبارية بين الجانبين، لكن الأمر يبدو مستغرباً مع تنظيم داعش، الذي أقنع الأب الروحي له، أبو مصعب الزرقاوي، أسامة بن لادن قبل مبايعته بأن يكون لفرع القاعدة في العراق خصوصية، وإدارة ذاتية، تجعل الحرب الطائفية ضد الشيعة أولوية، والشروع في إقامة دولة إسلامية، بحجة أن استهداف الشيعة سيزيد من شعبية وقوة القاعدة في الأوساط السنية العراقية المستاءة من السلوكيات الطائفية للحركات والسياسيين الشيعة المسيطرين على مفاصل الدولة العراقية، وبالتالي كان من الطبيعي وفقاً للمنطق الطائفي لداعش أن تقوم بعمليات ضد إيران والموالين لها من شيعة العراق، خصوصاً أعقاب السيطرة الجغرافية لداعش على مناطق واسعة من العراق بينها محافظات تمتلك شريطاً حدودياً طويلاً مع إيران، لكن ما حدث، باستثناء عمليات استهداف مراقد شيعية عراقية، إضعاف الفصائل الوطنية والسنية العراقية، وإعلان أبو بكر البغدادي، الذي نصب نفسه خليفة للمسلمين، السعودية رأس الأفعى، لا إيران، حسب ما يتبادر إلى المنطق الداعشي الطائفي، تجاه العراقيين عملياً المتصاعد على أثر انشقاق داعش عن القاعدة بعد مقتل بن لادن.

بمحاولة لتفسير، صلة دور داعش في العراق، وفي سوريا أيضاً، بإيران، نستطيع التأكيد على أن داعش وفر سياسياً وعسكرياً خدمة جليلة لنظام

ولاية الفقيه، أحد جوانبها إيجاد دفعة جديدة للانقسام وعدم الاستقرار في العراق، وإشغاله عن أدائه دوراً يتناسب مع قوته - في الوضع الطبيعي - في القضايا العربية، وكذلك مكنت داعش من توفير غطاء، مقبول ومشروع دولياً، للمزيد من التوغل والتحكم الإيراني في العراق سواء بالتواجد المباشر للحرس الثوري الإيراني، أو بتقوية أذرعها الطائفية هناك وتجميع الكثير من التشكيلات المليشاوية التابعة لها في ما سمي بـ"الحشد الشعبي" وإعطائه صبغة رسمية، دستورية وقانونية، من جهة تعتبره أحد مكونات الجيش العراقي، ومن جهة ثانية تؤكد استقلاليته، أما الهدف السياسي والطائفي الاستراتيجي فيتمثل في تقديم صورتين أساسيتين للإسلام في العالم، أولاهما، سلبية يعبر عنها الإسلام السني الذي فرخ السلفية الجهادية والحركات الإرهابية، والثانية، إيجابية ويمثلها الإسلام الشيعي الفاعل دولياً في محاربة الإرهاب في منطقة الشرق الأوسط، وهو الإسلام الذي يدور سياسياً حول الدولة الشيعية الإيرانية.

ويجب أن تكون إيران ولاية الفقيه هي محور الإسلام الشيعي في تصور قادتها، ولهذا السبب لن يقبلوا بعراق مستقر وقوي حتى في ظل دولة يحكمها شيعة متدينون، ولو على منوال ولاية الفقيه، فذلك سيعني بشكل أو بآخر تحول قبلة شيعة العالم من طهران إلى بغداد التي يرقد على تربتها أهم أئمة الشيعة، وتضم في جغرافيتها المناطق المقدسة لدى الشيعة، النجف وكربلاء.

الدم العربي

حاول هذا القسم أن يجد تفسيراً للسلوكيات الفارسية حيال المنطقة العربية، العدائية في توجهاتها العامة الفعلية، وذلك عبر عملية تتبع ذهبت في الزمان إلى وقت نشوء الإمبراطورية الفارسية، وتشكل هويتها، وتطور هذه الهوية للمساعدة في مبتغى الفهم.

وتم تدعيم الفرضية التفسيرية بأمثلة تضمنت بعضها الإشارة العابرة لمسار العلاقات الفارسية العربية، واشتمل بعضها الآخر على قدر من التفاصيل، مع التركيز على وقائع قريبة ترتبط بفترة حكم المؤسسة الدينية الإيرانية بنظرية "ولاية الفقيه" الخمينية.

ويأتي الاهتمام بهذه الفترة لما تثيره من التباس وضبابية تعيق استيعاب حقائق الموقف الفارسي الإيراني من المشهد العربي، وبعض صلاته الخارجية.

انطلقت عملية التفسير من فرضية ترجع السلوكيات الفارسية مع العرب إلى قاعدة ثقافية هوياتية أكثر مما هي فعالية سياسية، وإن كان من الصعب فك الارتباط بين هذين العاملين، الثقافي الكامن وغير المرئي بوضوح، والسياسي الظاهر، أما السبب فيعود إلى مخزون ثقافي سياسي عم معظم الحضارات القديمة يتلخص في مفهوم الحاكم المقدس، وما وسعته، أو زادت عليه الثقافتان المتلاقحتان، اليهودية والزرادشتية، من بناء مفاهيم الأسرة، والقبيلة المقدسة.

عندما تلقت الإمبراطورية الفارسية، ضربتها السياسية والعسكرية القاضية على يد العرب المسلمين، البدو التابعين الجوعى، في المنظور الفارسي، نشأ لدى النخب الفارسية المهزومة، بوعي أو بدون وعي، حركة مقاومة سياسية وعسكرية، لم تكن كافية لإشباع النزعة الاستعلائية على العرب، وإعادة إحيائها عبر أفعال ثأرية انتقامية تعادل مستوى الهزيمة التي نالتهم من العرب المسلمين، فلجأ الفرس إلى الباب الثقافي كبديل فاعل يضرب الحضارة العربية الإسلامية الناشئة في العمق، ويضمن استمرار الفعل الانتقامي عبر الزمن.

وفي الصدد اعتبر المخزون النفسي الفارسي، الإسلام معطى عربياً مسؤولاً عن انطلاق المارد العربي من قمقمه وانقضاضه على الإمبراطورية الساسانية، ولأن الإسلام تمكن كدين من الشخصية العربية يصعب، بل يستحيل اقتلاعه، فقد انتقل الفعل الفارسي من مضمار المواجهة إلى مضمار الاحتواء، من خلال إعادة تدوير الدين الإسلامي في الوعاء الثقافي الفارسي، لإنتاج نسخة إسلامية فارسية تتولى عملية الانتقام.

الواقع أن الإسلام تمكن كدين، في نفوس العرب، ووضع أسس وموجهات ثقافة إسلامية، إلا أن الثقافة الجديدة على خلاف الدين كانت بحاجة لجهد بنائي، ولوقت، تتحول فيه إلى ناظم للحياة الإسلامية، ولأسباب عديدة أخذت الثقافة الفارسية على عاتقها القيام بعملية البناء هذه والانحراف بها عن المحددات الدينية للإسلام باتجاه صبغها بمكونات أساسية في ثقافة الفرس، فحولت المتغير القبلي في الشخصية العربية، وهو متغير ثقافي اجتماعي قابل للتطوير والتبديل في طبيعته، إلى ثابت ديني، استلهم مفهوم العشيرة المقدسة، ما كان له تداعيات سلبية في الثقافة

الإسلامية انعكست في المستوى السياسي على إيجاد حالة انقسامية دائمة داخل المجتمع المسلم أخذت منحى صراعياً، عنيفاً، في كثير من الأحيان، استكمل بنيته التدميرية بربطه بمفاهيم اغتصاب الحق الإلهي، وما يترتب عليه من ثورة مستمرة لاستعادة هذا الحق، والثأر من المغتصبين.

كان لهذه البنية الإيديولوجية دور مهم في استنزاف الطاقات الإسلامية عموماً، والعربية خصوصاً في جهود سياسية وعسكرية وأمنية، داخلياً. وهو ما حدث في التاريخ الإسلامي لحقب ماضية، ومازال يحصل اليوم، وبشكل بارز للعيان منذ تولي ملالي إيران، السلطة السياسية، وما جرته على المنطقة من ويلات طائفية، تخدم عملية الاستمرار في إضعافها لصالح أجندات أمريكية وإسرائيلية في الوقت الراهن والمشكَّلة، من خلال شعارات إسلامية، المفترض عند ترجمتها عملياً، أن تصب في التعاون مع المنظومة العربية وتعزيز عوامل قوتها، لكن وبنوع من "التقية" السياسية تذهب الشعارات الفارسية في طرف، وتذهب الأفعال إلى الطرف المقابل، لدرجة تجعلنا لا نتجنى إن ختمنا بالقول: إن الفرس على استعداد لقتال كل العالم، لكن في أرض وبدماء عربية.



خاتمة

إن المنظومة الإيديولوجية الشيعية تولدت في بداياتها من إحساس بالظلم والتهميش، ولكنها بدلا من تطوير صيغ مواجهة إيديولوجية في إطار النص الإسلامي، لجأت إلى تصنيع أدواتها الفكرية والبشرية من خارج المربع الإسلامي الأصيل، وبالاعتماد على المادة الفكرية والبشرية المرجحة في مكونها للشخصية الفارسية التي آثرت امتصاص العقلية الظاهرية والمباشرة للشخصية العربية -مادة الإسلام الأولى- في الخلفية الحضارية والثقافية للشخصية الفارسية، ساعدها في ذلك أن الشخصية السامية التي يشكل العرب قطاعا واسعا منها، مرت بحالة غيبوبة طويلة - عدا عرب اليمن واليهود إلى حد ما- جاءت بعد السقوط البابلي على يد القوة الفارسية الفتية في القرن السادس قبل الميلاد، وعلى مدى يفوق الأحد عشر قرنا فقد العرب حسهم الحضاري ما جعل شخصيتهم سهلة الاختراق من قبل الثقافة الفارسية قبل أن تتبلور شخصية عربية جديدة بفعل الدين الجديد (الإسلام)، فعوض الفرس خسارتهم في مواجهة الإسلام بتسريب ثقافتهم وإعادة موضعتها داخل الدائرة الإسلامية من خلال توفير أدوات بناء المنظومة الشيعية أولا، وتمكنت بالفعل من التشكل الخاص داخل المجال الإسلامي عبر النجاح في توليد صيغة إسلامية فارسية تتمثل في التشيع، وثانيا استطاعت اختراق ما يمكن وصفه بالمجال السني عبر تسريب النزعات الصوفية المتطرفة، وعبر استغلال عدم الوعي السني بالبنية الشيعية المتشكلة خلال أكثر من ثلاثة قرون هجرية، ولهذا تبدو كثير من مقولات النزعة الشيعية مشتتة ومتداولة في الوسط

التراثي السني كتمييز علي بن أبي طالب بتوصيف الإمام دون غيره من الخلفاء، وكذا تداخل السرد التاريخي المؤدلج للعديد من الوقائع، وغير ذلك كثير.

في الختام من المناسب التنويه إلى أن ما جاء في هذا الكتاب، عبر كل صفحاته السابقة لم يكن أكثر من مشروع مقالة، تطورت وتوسعت تلقائيا، لكنها لم تصل إلى مستوى البحث العلمي الصارم في التزاماته الشكلية والإجرائية كالتوثيق الدقيق للمصادر حسب الأعراف التأليفية المتبعة.

وفي كل الأحوال فإن هذا الكتاب محاولة للإسهام في إلقاء حجر وسط مياه خرافة تجاوزت النقاش الفكري والتاريخي الخاص إلى دائرة الجدل العام، وصارت ذات سطوة في الكثير من أحداث المنطقة العربية والإسلامية.

أهم المراجع

- القرآن الكريم

- موسوعة الحديث الشريف، إسلام ويب

- أديان العالم، هوستن سميث، تعريب وتقديم سعد رستم، دار الجسور الثقافية، ط ٣، ٢٠٠٧.

- الأصولية الإسلامية في العصر الحديث، دليب هيرو، ترجمة عبد الحميد فهيم الجمال، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

- التشيع العلوي والتشيع الصفوي، د. علي شريعتي، ترجمة حيدر مجيد، دار الأمير- مؤسسة نشر آثار الدكتور علي شريعتي، ط ٣، ٢٠٠٧.

- الحكومة الإسلامية، روح الله الخميني، مدرسة الشيعة الإلكترونية- شبكة الفكر، ط ٣.

- الحوثيون.. الظاهرة الحوثية، د. أحمد محمد الدغشي، مكتبة خالد- دار الكتب اليمنية، صنعاء، ط ٢، ٢٠٠٩.

- الدستور الإيراني.

- الزهر والحجر: التمرد الشيعي في اليمن، عادل الأحمدي، مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، صنعاء، ط ١، ٢٠٠٦.

- السلفية والشيعة، جهاد بن عبدالإله الخنيزي، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط ١، ٢٠١٢.

- السياسة والدين في مرحلة تأسيس الدولة الصفوية، علي إبراهيم درويش، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط ١، ٢٠١٣.

- الصلة بين التصوف والتشيع، د. كامل مصطفى الشيبي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٣، بيروت، ١٩٨٢.

- القياصرة الأمريكيون، نايجل هاملتون، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط ١، ٢٠١٣.

- الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، منشورات الفجر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧.

- الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧.

- الموسوعة الميسرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط ٢، ١٩٨٩.

- إيران بين طغيان الشاه ودموية الخميني، ذيبان الشمري، مؤسسة المدينة للصحافة، ط ١، ١٩٨٣.

- إيران من الداخل، فهمي هويدي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ٤، ١٩٩١.

- تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (سلسلة عالم المعرفة الإصدار ٢٥٠)، د. آمال السبكي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ١٩٩٩.

- تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال أشتياني، ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩.

- حقبة من التاريخ، د. عثمان بن محمد الخميس، مركز الكلمة الطيبة للبحوث والدراسات، صنعاء، ط ٧، ٢٠١٣.

- داعش.. من النجدي إلى البغدادي، فؤاد إبراهيم، مركز أوال للدراسات والتوثيق- مكتبة مؤمن قريش، بيروت، ط ١، ٢٠١٥.

- سطوع نجم الشيعة، جرهارد كونسلمان، ترجمة محمد أبو رحمة، مكتبة مدبولي، ط ٣، ٢٠٠٤.

- علم الأديان، ميشال مسلان، ترجمة عز الدين عناية، كلمة- المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٩.

- مدافع آيات الله، محمد حسنين هيكل، دار الشروق، ط ٦، ٢٠٠٢.

- موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية، د.عبدالمنعم الحفني، مكتبة مدبولي، ط ٣، ٢٠٠٥.

- موسوعة تاريخ إيران السياسي، د. حسن كريم الجاف، الدار العربية للموسوعات، ط ١، ٢٠٠٨.

مراجع الأنساب:

- الشجرة المباركة في أنساب الطالبية، للإمام فخر الرازي (توفي ٦٠٦هـ)، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة، قم، ط ٢، ١٤١٩ هجرية.

- الفخري في أنساب الطالبيين، لمؤلفه العلامة النسابة عزيز الدين أبي طالب إسماعيل بن الحسين بن محمد بن الحسين بن أحمد المروزي الأزورقاني (٥٧٢ – بعد ٦١٤هـ)، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة، قم، ط ١، ١٤٠٩ هجرية.

- المجدي في أنساب الطالبيين، لمؤلفه أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد العلوي العمري النسابة (توفي ٤٥٩هـ)، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة، قم، ط ٢، ١٤٢٢ هجرية.

- المعقبون من ولد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لمؤلفه يحيى بن الحسن بن جعفر الحجة الحسيني المدني العبيدلي (٢١٤–٢٧٧هـ)، تحقيق حسون كريم، من الانترنت.

- تهذيب الأنساب ونهاية الأعقاب، لمؤلفه أبي الحسن محمد بن أبي جعفر شيخ الشرف العبيدلي النسابة (توفي ٤٣٥هـ)، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى، قم، ط ٢، ٢٠٠٧.

- سر السلسلة العلوية، لأبي نصر البخاري (كان حياً سنة ٣٤١هـ)، برواية عبد الرحمن، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف ١٩٦٣.

- عمدة الطالب الصغرى في نسب آل أبي طالب، لمؤلفه العلامة النسابة جمال الدين أحمد بن علي الحسني الداوودي المعروف بابن عنبة (٧٣٨ – ٨٢٨هـ)، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة، قم، ط ١، ٢٠٠٩.

- الأغصان لمشجرات عدنان وقحطان، الناشر علي عبدالكريم شرف الدين، التوزيع مكتبة العزيزية للتوزيع، الرياض، ط ٢، ١٩٩٥.

- نيل الحسنيين بأنساب مَن باليمن من بيوت عترة الحسنين وغيرها من بيوت العلم والزهد والصلاح والرياسة اليمنية إلى سنة ١٣٧٦هـ، من مجاميع (مؤلفه) محمد بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن أحمد بن إسماعيل بن الحسين بن أحمد زبارة.

- واعتمد فيه على كتاب - مخطوط - روضة الألباب وتحفة الأحباب وبغية الطلاب ونخبة الأحساب بمعرفة الأنساب، المشهور بمشجر أبي علامة لمؤلفه محمد أبي علامة (متوفى ١٠٤٤هـ).

تم بحمد الله